

الأعمال الروائية الكاملة 1

غالب هلسا

الضحك
الخماسين
السؤال







البنك الأهلي الأردني



أمانة عمان الكبرى

الخماسين

الحزن ساعة الغروب

ودع ليلى. انفلتت يدها اللدنة من يده، واندفعت ليلى في زحام ترولللي رقم ١٧ : ناعمة، مراوغة، مباغتة كقطة. غيّبها الزحام - فتاهت عنه. شاهدها للحظة. كانت غاضبة. واختفت. ثم بدت ثانية مكتملة خلف زجاج نافذة الترولللي. كان اندهاشها معجزاً (الغضب يمتزج بالدهشة): وكأنه من المستحيل أن يكون هنالك، أو حتى أن يوجد. أحسّ بالقهر وهو يراها مضغوطة بفظاظة في وسط تلك الأجساد ذات الرائحة النفّاذة. كانت تقف رافعة ذراعيها إلى أعلى تمسك بماسورة الترولللي، وجسدها يندفع إلى الأمام قليلاً ثم يتراجع بحركة الركاب الذين خلفها.

تحوّلت دهشتها إلى ضحك أضاء الوجه ببريق حيّ وأرعش جسدها كله. لوّحت بيدها وضحكتها تومض. رفع يده مشجّعاً: كل شيء سوف يكون على ما يرام. وانساب الترولللي وبدا وراءه باب القصر العيني مهجوراً وكأنه أطلال مجد زائل.

ودخل في الغروب: الهواء الخماسيني المترب الجاف، دخان المازوت تطلقه عربات الشحن الضخمة، رائحة الزيت المغلي تتراقص على سطحه أقراص الطعمية، البخور المنبعث من محل بيع العصير، ورائحة تفل قصب السكر الذي أخذ يتخمّر. . وكانت هناك سماء سوداء كابية، كأنها ستار من الصلب يمنع نفاذ الهواء النقي. ثم ولج عالمه العصابي: عالم التطيّر والفزع.

عبر الشارع إلى الرصيف الأوسط. كانت ترولللي ١٧ يقف بينه وبين بوابة القصر العيني. «كيف حدث هذا؟» ساءل نفسه وهو يعاني دواراً مفاجئاً. وفتّش عن ليلى في داخله. «ماذا جرى لي؟ إن ذلك طبيعي تماماً. . إنه مجرّد عربة ترولللي أخرى تأتي من الجهة الأخرى».

ويعبر النصف الآخر من الشارع ويعود من الطريق نفسها التي سلكها مع ليلى. . يقول لنفسه وهو يسير فوق الكوبري: «لا تنظر إلى الماء. سوف يعتقدون أنك تنوي

الانتحار . . » .

ما زالت الأماكن التي عبراها معاً مشحونة بتداعيات ليلى المتقطّعة : كوبري النيل، القصر العيني الجديد، كوبري الجامعة، والشارع المشجّر الذي يفصل حديقة الأورمان عن حديقة الحيوانات يحرسه نصب مختار، وينطلق كالسهم إلى باب جامعة القاهرة. ودارت به الأسماء والكلمات، أحاطت بليلى كشرنقة احتوتها واندفعت به بعيداً. افتقد ليلى بحدّة، وكلّم نفسه قائلاً: «إننا نتباعد مع كل خطوة كقطبيز متنافرين . . » .

***

تجلس ليلى أمامه في الكازينو المطل على فرع النيل والمواجه للقصر العيني القديم. الماء غامق الخضرة، ثقيل كأنه معدن مذاب. وجه ليلى الرقيق مرهق وقد ألقت عليه غبشة الغروب ظلاً قاتماً. عيناها راكدتان بالقهر والإحباط. العشّاق الجالسون على الطرابيزات من حولهما أشباح بلا ملامح: متماسكو الأيدي وعيونهم فوهات مظلمة. قالت ليلى لنفسها: «كان يجب أن أعود من المعهد إلى البيت مباشرة. أما غالب هذا . . » واستسلمت إلى خيبة الأمل.

ثم تكلّمت لتعالج ضجراً يجثم ثقيلاً على صدرها. كان حديثها موجهاً إليه بقدر ما هو موجه إلى المساء والعالم:

ـ عندي صداع.

وضعت كفها على جبينها لتبرهن على ذلك. ثم واصلت كلامها.

ـ عندي صداع. مش عارفه أنا زهقانه ليه؟ راسي حايفرقع. مش عايزة آخد أسبرين. ما احبش آخد دوا . .

تتجاوزه بنظرتها، ولكنها لا ترى. يقول:

ـ يمكن أنا متضايقه علشان محمد أخويا بوّخ معايا مبارح. يظهر إني حسّاسه.

وتضحك ليلى ويمتقع وجهها كأنها قالت شيئاً بذيئاً. ثم تستعيد تماسكها:

ـ قول لي إيه هدفك في الحياة؟ فيه طالب في المعهد سألني: إيه هدفك في الحياة؟ حا قولّه إيه! مش عارفه . . قلت له مش عارفه . . زهقانه، لازم أقوم حالاً . . ساعتك كام؟ مش عايزه أتخانق في البيت علشان التأخير . .

ثم تقول وهي تغطّي عينيها بكفّها وكأنها تكلّم نفسها:

ـ عندي صداع . . لازم تشكرني علشان نزّلتك من البيت . . ثم تضحك خجلة:

ـ أنا بايخة، مش كده؟ أنا عايزه أعزمك عالغدا. بتحب تاكل فين؟ ما قلتش إيه هوه هدفك في الحياة؟ عندي صداع وزهقانه . . لازم أعزمك على الغدا.

تصمت ليلى وتتوه نظرتها. تميل نحوه فجأة وتسأله:

ـ بتعتقد في العفاريت؟ عمرك شفت عفريت، أو تعرف حد شافه؟ ساكت ليه؟ ما قلتليش إيه هوه هدفك في الحياه؟ الظاهر إني رغّايه.

***

أمسكت ليلى الولاعة. أشعلتها وأخذت تراقب شعلتها ثم قالت:

نوعها إيه الولاعه دي ؟ رونسون ؟ عايزه يكون معايا ولاعه! أطلعها في المعهد وأولع بيها.

تعاود ليلى الحديث:

ـ عايزه أسألك سؤال. ممكن الست ـ مش المرأة مساويه للرجل؟ ـ تكون زي الراجل ؟ يعني لو أنا لعبت رياضه وشلت حديد ممكن أبقى كويه . .

يقول لها مصححاً:

ـ قويه.

تضحك ليلى وتقول:

كويه . . يعني قويه زي الراجل؟

ـ ممكن.

ـ والله ؟ بجد ؟ ممكن أبقى كو. . قويه وأضرب حمدي أخويا لو لعبت رياضه؟ مش عايزه أبقى ضعيفه ! مش عايزه حد يتأمّر عليّ. مش عايزه حدّ يعتبرني صغيره ويديني نصايح . . ! تعرف! أنا كررت (تضحك) قررت إيه؟ مش حاتجوز. عايزه أكون حرّه . . نفسي يبقى عندي شذوذ. بيقولوا كل العباقره عندهم شذوذ.

وفجأة انطلقت ليلى كالصاروخ، تقول بكلمات سريعة:

ـ إنت عبقري ؟ يبقى لازم يكون شذوذ ! أنت عندك شذوذ؟ . ثم يهدأ اندفاعها

وتقول بصوت شاك، بطيء الإيقاع:

ـ عايزه يبقى عندي شقه وعربيه. حا اشتري العربيه لما أبقى مخرجه سينمائيه مشهوره. وحا اشتري مسدّس. طبعاً ما دام ساكنه لوحدي لازم يكون عندي مسدّس.

قال:

ـ عايزه، عايزه، عايزه..

تضحك ليلى كثيراً. يصبح وجهها قرمزياً، وتصمت مكسوفة. كانت أليفة كقطة. قالت بعد قليل:

ـ حمدي أقوى مني لكني. بجرّحه بظوافري..

وتعرض يديها أمامه ليرى أظافرها. كانت حادة ولامعة. قال لنفسه: «لها تجليات القطة: الوداعة، والأظافر، والشراسة، وسرعة الانسياب والمباغتة».

***

عندما أعطاها غالب الأوراق التي كتبها عنها أقبلت عليها ليلى ضاحكة. استغرقت في القراءة وهي تقول:

ـ يا سلام! حاجه حلوه!

ثم يتوتر وجهها ـ يقترب حاجباها وتقرّب الورق من عينيها ـ ثم تقول وهي ما تزال محدّقة في الورق:

ـ كده؟ كده؟

ترفع رأسها وتنظر إليه بوعيد وتقول:

ـ طيب!

وتعود إلى الورق، محدّقة فيه بشراسة وهي تتمتم خلال ذلك:

ـ طيّب، يا أستاذ غالب بيه!

ثم تنتفض وهي تقول:

ـ إيه ده! إيه ده!

ثم ترفع وجهها إليه. على وجهها تعبير تعس أشبه بالبكاء، وتقول له بصوت

شاك صغير:

ـ بقى أنا بقول كررت وبقول تكويه؟

يقول لها:

ـ قلتي.

ثم تحني رأسها وتواصل القراءة. تتوقف وتقول بلهوجة سريعة:

ـ مسدّس؟ أنا عمري ما قلت عايزه اشتري مسدّس. إنت بتجيب الكلام ده منين؟

وتستمر في القراءة وهي تقول:

ـ يا سلام، يا اخويا، يا سلام!

تضع الأوراق جانباً، تتنهد بعمق، وعيناها لا تنظران إلى شيء. وجهها غاضب منذر. تنظر إليه فجأة بحدّة وتقول:

ـ بعد كده لازم الواحد يحاسب وهوه بيتكلّم معاك. بقي عيني راكدتان بالقهر والإحباط.

وتضم سبابتها إلى إبهامها لتكوّن دائرة بهما وتقول متوعدة.

ـ طيّب.

مرسي يكشف عن بعض تجلياته

في الصباح كان غالب يركب السيارة الفارتبورج الحمراء، صنع جمهورية ألمانيا الديمقراطية، بجوار السائق مرسي. تخطيا ميدان سليمان باشا ودخلا شارع قصر النيل. أوقفتهما إشارة المرور أمام عمارة الإيموبيليا. اقترب مرسي برأسه من شباك السيارة وصعد نظره في العمارة الضخمة، ثم مدّ ذراعه من الشباك وأشار إلى العمارة وقال:

ـ فيه لنا صاحب فاتح عياده هنا.

أعاد ذراعه إلى الداخل وتوجه إلى غالب وقال:

ـ دكتور كبير قوي. بيدرس في القصر.

تاه مرسي في تفكير ما، وأخذت عينه اليمنى تتقلّص قليلاً، ثم صحا وأخذ يهزّ رأسه:

ـ تعرف يا بيه؟ من غير فخر، فيه لنا قرايب فطاحل.

تحوّلت إشارة المرور من الأحمر إلى الأخضر. نبّه مرسي إلى ذلك:

ـ الإشارة فتحت.

فعالج السيارة وانطلق بها.

تساءل مرسي وهو ينظر باستقامة عبر زجاج السيارة الأمامي:

ـ بيقول إيه المدير عني؟ قال لك إيه لما دخلت له؟

ردّ عليه غالب أنّ المدير قد قال له إنه غير راض عن مرسي لأنه يعتقد أن مرسي يستغرق وقتاً طويلاً في توزيع النشرة ويعتقد أيضاً أنّ مرسي يفعل ذلك عن عمد حتى يزيد ساعات العمل الإضافي.

أسرعت السيارة ولسع هواء الخماسين جفون غالب. كان مرسي محتداً. أقسم

أنه لا يدري لماذا يتقصده هذا المدير الألماني. لقد عمل هو مع أناس كثيرين: مع أمريكيين وخواجات من كل صنف ولون. وهو يعرف كيف يكونون وكيف يكون العمل معهم. أما هذا المدير فهو شيء لم يشهد مثله. وهو يعرف بالطبع من يقف وراء ذلك كله: عباس، ذاك الذي يطبع النشرة الإخبارية اليومية للوكالة. كل ما يحدث هو مغرز من عباس. «ما يدّيني يا أخي مكافأتي، إذا مش عايزني، ويقول لي مع السلامه».

ويصمت مرسي وهو يزفر غيظاً. يشعل غالباً سيجارة وينظر إلى المارة. يعلن مرسي:

ـ آخر الزمن واشتغلنا في وكالة أنباء.

ثم يقسم أنه سوف يترك العمل، ولكنه قبل أن يفعل ذلك سوف يفتح بطن عباس.

لم يرد عليه غالب. فكّر أنّ مرسي سوف يحاول الاعتداء على عباس، ولكن عباس أقوى منه، وسوف تكون النتيجة في غير صالح مرسي.

كان وجه مرسي ذاوياً. هناك مساحات سوداء تحت عينيه ـ قال غالب لنفسه: «إنه الكبد» ـ ووجهه أسمر كاب. عيناه ذات لون أزرق باهت، باهت جداً، تجعل الناظر إليهما يعتقد أنهما لا تريانً. وكان وجهاً مثيراً للرثاء. بدافع من الشفقة قال له أن لا داعي لافتعال أية مشاجرات مع عباس. وعلى كل حال فالمدير ليس صغيراً حتى يضحك عليه عباس.

جذب انتباه مرسي إلى أن الإشارة حمراء، فأوقف مرسي السيارة بشكل مفاجئ وقال: ها أنت ترى أنّ كارثة كادت أن تحدث. لم يبق عقل في رأسي.

ثم انفجر بغتة:

ـ اللي اسمه عباس ودين النبي هاموّته.. اللي يقطع عيشي ها افتح بطنه وأروح في داهيه..

توقفت السيارة أمام سينما أوبرا. للتو أخذ جسد غالب يرشح بالعرق. كان عرقاً أسود، لزجاً، يسيل من جبينه، يتخلل حاجبيه ويتعلّق برموشه. ومرسي كان يتحدّث، وجهه الحزين البائس قريب منه، كان يقول بلهجة استجداء مريرة:

ـ يا بيه ، إنت راجل شاعري ، وبتكتب في الجرانين وفاهم ، يعني كل حاجه .

فكّر غالب : «ولكن ما هي علاقة هذا بأي شيء في العالم؟» ومرسي يواصل بصوت أشبه بالنحيب :

ـ يا بيه ، من الصبح لغاية الساعه سته بعد الظهر وأنا بلف بالعربيه . ساعة ما أخلص الشغل لاقي رجليا مش مني . أروح البيت مشاكل ، مصايب : الواد عيان ، أمه عندها خرّاج وسخونية ، وما الاقيش لقمه آكلها . . الفلوس متعفرته تلقاها خلصت من أول الشهر . . وبرضه مستكترين عليا القرشين اللي باخدهم . .

ثم يعلو دويه ويحتد :

ـ ودين النبي لانا فاتح بطن عباس ، لانا جايب المقص الكبير اللي في أودة المطبعه وفاتح بطنه بيه . . أنا عندي ثمانية وعشرين سنة واللي يشوفني يقول عليا عجوز عنده خمسين سنة . . حرام يا خلق . . حرام يا مسلمين . . ! ودين النبي يا عباس حاتكون نهايتك على إيدي . أتسجن ؟ أتسجن . . هوه يعني أنا مبسوط قوي؟ .

راح وجه مرسي يبتعد ، يغيم ، ويتماوج . كان أشبه بوجه تحت الماء ـ قال غالب لنفسه : «إنني أختنق» وأخذ يلهث ـ ثم أخذ الوجه يسيل ويتبدّد . يدقّق غالب النظر ، يتماسك الوجه قليلاً ثم يشف ويتحلّل ، ولا يبقى أمام عينيه سوى الصوت ـ ذلك الهدير الخافت الموجوع يأتيه أجش ، مختنقاً . .

«حشرجة محتضر . . ؟»

حكاية عن قرني

كنت أعمل مترجماً ـ ومراسلاً أحياناً ـ في وكالة أنباء الصين (صينهوا) . وقد حدث هذا قبل عشر سنين من نزهتنا ، ليلى وأنا ، فوق كوبري الجامعة .

فتح المدير الصيني الباب الصغير الواقع في نهاية صالة التحرير الطويلة ؛ الباب الذي يؤدي إلى حجرة صغيرة ينسحب إليها المدير أحياناً ويجلس فيها يعمل ما لا أدريه .

قال المدير :

ـ هل الخبر مهم؟

ثم تقدّم قليلاً فاختفى نصفه حول العامود . كنت أترجم إلى الإنجليزية خبراً جاءنا على وكالة أنباء الشرق الأوسط .

قلت :

ـ ليس عاجلاً .

قال :

ـ دقيقة واحدة من فضلك .

تبعته إلى الحجرة . كان قرني يقف أمام مكتب المدير منكس الرأس . وقرني لم يبلغ الخامسة عشر بعد ، أسود الوجه ، واسع الجبين ، عريض الأنف ، ذو أسنان كبيرة صفراء . وكان يعمل فرّاشاً في الوكالة .

كان المدير قد جلس على مكتبه وجلست أنا عليْ كرسي قريب . على المكتب الآخر كانت تجلس امرأة صينية تقرأ صحيفة صينية . رفعت المرأة رأسها عندما رأتني وقالت :

ـ هالو مستر غالب .

قال المدير :

ـ أرجو أن تترجم . مستر قرني ، يريد إجازة ثلاثة أيام ، وقرضاً قدره خمس جنيهات . . ؟ .

قال ذلك بصيغة السؤال وصمت . ترجمت كلامه لقرني فقال إن هذا صحيح . أضاف المدير :

ـ يريد ذلك بسبب وفاة أمه؟ .

أعدت السؤال على قرني فأكّد صحته .

قال المدير :

ـ مستر غالب ، أرجوك أن تقول لمستر قرني إن هذه هي المرة الرابعة التي تموت فيها أمه . .

ثم أخرج دفتراً كبيراً من درج مكتبه وأخذ يقلّب فيه ، ثم توقف عند صفحة منه ، وأخذ يقرأ :

ـ مستر قرني أخذ إجازة ثلاثة أيام وقرضاً قدره سبع جنيهات بسبب وفاة أمه في ١٧/ ١/ ١٩٦١ . وفي ٣/ ٦/ ١٩٦١ أربع أيام إجازة وخمسة جنيهات كقرض بسبب وفاة أمه .

ثم . . ثم . . أجل هنا . . مستر قرني في ٩/ ١٢/ ١٩٦١ أخذ إجازة يومين وقرضاً ثلاثة جنيهات بسبب موت أمه .

ترجمت ذلك لقرني وقلت له :

ـ حصل ؟

فهز رأسه .

قال المدير :

ـ وهو الآن يطلب إجازة لمدة ثلاثة أيام وقرض قدره خمس جنيهات بسبب وفاة أمه . هذا يعني أن أمه قد ماتت أربع مرات .

قالت المرأة الصينية بحمية :

ـ قل له إنها ليست نقودنا حتى نلقيها هكذا ، ولكنها عرق وكدح العمّال

والفلاحين الصينيين .

قلت لها :

ـ أعتقد أنه من الصعب عليه أن يفهم معنى ذلك .

كلّم المدير المرأة باللغة الصينية . كان واضحاً أنه غير راضٍ عما قالت . قال لي :

ـ أرجوك لا تترجم ذلك .

قلت لقرني :

ـ دي رابع مره .

أجاب بهمس وهو يتحاشى النظر إليّ :

ـ كانت عيانه .

قال المدير :

ـ قل لمستر قرني إننا سوف نسمح له بالإجازة ونعطيه القرض على أن تكون هذه هي المرة الأخيرة . هل يعد بذلك؟ .

أغلق المدير الدفتر ووضعه في الدرج . سألت قرني إن كان يعد أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تموت فيها أمه؟ .

قالت المرأة الصينية وقد احمرّ وجهها وهي تمدّ يمناها نحو قرني وقد فردت أربعة أصابع :

ـ أربع مرات . .

ثم قالت باللغة العربية :

ـ البعه .

قطّب قرني وجهه واستدار عني ولم يرد . سألته مرّة أخرى إن كان يعد المدير أن تكون هذه هي المرة الأخيرة . أحنى رأسه وظلّ صامتاً . قال لي المدير :

ـ هل سألته؟ .

قلت له لقد فعلت وأنا أنتظر ردّه .

لاحظت أن كتفي قرني يرتعشان . كنت أرى المنظر الجانبي لوجهه وأرى خدّه

ينبسط ويتقلّص. قلت للمدير:

ـ الغلام المسكين يبكي.

المدير كان ينظر بعينين جاحظتين من خلف زجاج نظارته الطبية. لم يبد عليه أن سمع ما قلته، إذ ظلّ ينظر مبهوراً إلى قرني. المرأة الصينية عقدت حاجبيها وأخذت عيناها ترمشان دون توقف وهي تطالع قرني. فجأة اكتسب وجهها تعبيراً غريباً انحلّت أساريرها وبدت لي أنها على أهبة البكاء ـ ثم أحنت رأسها وأخفت وجهها وأخذ جسدها ينبض بإيقاع منتظم. اكتشفت فجأة أن قرني كان يضحك، جسده كله يرتج بالضحك والمدير الصيني يطالعه بعينين واسعتين، غير مصدّقتين.

حاولت أن أداري الموقف فقلت للمدير:

ـ إنها نوبة هستيرية.

وفجأة انطلق المدير يضحك. خلع نظارته الطبية وأخذت الدموع تسقط وتبلل وجهه الكبير.

رفعت المرأة الصينية وجهها وقد أصبح قرمزياً وقالت من خلال التحقيق وهي تمدّ أربعةأصابع:

ـ قرني، أربع مرات.. قرني، أربع مرات.

ثم غلبها الضحك فلم تستطع أن تكمل.

وكان قرني يضغط بكفه على بطنه، وجذعه مندفع إلى الأمام، وقد أصبح فماً كبيراً يضحك ويضحك ويتلوى كأنه يعاني ألماً لا يطاق.

***

النيل تحتنا ـ تحت كوبري الجامعة ـ ساكن أسود. وليلى تسير بجواري متعجّلة، مهمومة، صامتة كأن هنالك ما ينتظرها.

(منذ ساعتين كنت أجلس في الصالة بعد أن انتهيت من الغداء. كنت على وشك الدخول إلى حجرة النوم عندما سمعت خطوات ليلى. كانت تصعد السلّم مسرعة كأنها تسحق شيئاً. تلا ذلك دقّات الجرس القصيرة المتلاحقة، وخلال ذلك صوتها كان يستعجلني.. ثم دخلت: بهجتها تضيء. قالت إنها تصوّرت أني غير موجود، كادت أن تنصرف. ولكن ها أنا. وانطلقت بصخب.. تضحك كثيراً وتحكي

وتحكي. وفجأة حطّ عليها القلق والضجر: تريد أن نخرج ـ نتمشى، أن تعود إلى البيت، أن نجلس في كازينو.. وأعلنت ـ بضيق ـ أن المرأة مساوية للرجل وأن...).

قبل أن نصل إلى منتصف الكوبري أخذت تتحدّث. قلت لها إنها تسرع في كلامها وإنني لم أعد أستطيع فهم ما تقول. قالت إنها ضجرة ولا ترغب في الكلام. وصمتت غاضبة، مقهورة، ونحن نواصل السير في قلب حلة ضخمة ملأى بالغبار العاصف، وكان الكوبري يهتز تحت قدمينا، كجسدٍ حيّ، بمرور السيارات.

قالت:

ـ ساكت ليه؟.

أدركت أن ضيقها قد تحوّل إلى عنف موجه نحوي؛ كانت تبحث عن سبب للشجار. فآثرتُ الصمت.

وقع خطواتنا كان ينتظم حسب إيقاع موحّد. قالت ليلى فجأة وقد تشوّه وجهها بالكراهية والغضب:

ـ عايزك تفهّمني إيه هيه الشيوعيه، وإيه هيه الوجوديه، وتفهّمني السورياليه...

قلت:

ـ عايزه دلوقتي؟.

أخذت تسرع في كلامها:

ـ ما فيش وقت، ومش عايزه أفضل أقرأ وبرضه ما افهمشي حاجه.. وحا اقرا إمتى، وأروح المعهد إمتى ـ وأنام امتى، وآكل إمتى، وأعيش وأحب وأسافر وأتفرّج على الدنيا إمتى، إمتى...

لم تكن ليلى راغبة في الكلام، بل كانت تحاول أن تنفذ من تلك السماء البيضاء المتسخة التي تحيط بها كستار عن الفولاذ. يداها كانتا كمجذافين تحاول بهما أن تشق طريقها إلى الهواء والنور.

***

كان كارل شميدت، مدير الوكالة الصحيفة التي أعمل فيها، يقف أمام الشباك عندما دخلت حجرته. أشار إلى الغبار الذي يغلّف الأشياء في الخارج فيفقدها

ملامحها وقال :

ـ ألن ينتهي هذا أبداً؟ .

ودون أن ينتظر رداً مني أشار إلى مرسي السائق الذي كان يقف عابساً ، متصلّباً وقال :

ـ يقول مرسي لا بد من الذهاب إلى الاسكندرية .

اقترب مرسي مني ، رفع كفّيه أمام وجهه فاستطعت أن أرى خطوطهما القليلة العميقة ، وقال بوجه متجهّم :

ـ أنا رحت للمرور يا بيه ، قالوا ما دامت العربيه دخلت عن طريق اسكندريه فلازم نجيب شهادة مخالفات من مرور اسكندريه ونجدد الرخصه هناك .

ثم توجه إلى شميدت وقال :

ـ لازم ون ديه اسكندريه .

قال شميدت :

ـ ما رأيك في هذا ؟ نحن في القاهرة ويريدون شهادة مخالفات من مرور الاسكندرية !

رفع مرسي سبابة يده اليمنى بين عينيه ، في موازاة الأنف تماماً ، وقال بوقار روماني وكأنه يطلق نبوءة :

ـ لازم اسكندريه .

ثم توجه إلى شميدت وقال باللهجة التي يخاطب بها المصريُّ الأجانبَ :

ـ مش ممكن . إسكندريه لازم .

قلت لشميدت :

ـ هذا المنطق الكابوسي في هذا الجو الخماسيني يغريني بأن ألقي نفسي من الشباك .

ثم سألت مرسي :

ـ إيه حكاية اسكندريه؟ .

ـ لازم اسكندريه . شفت راجل كبير في المرور وقال لازم اسكندريه .

ثم اقترب وجهه مني وأخذ يهمس لي :

ـ يوم واحد يا بيه أروح الصبح بدري وأرجع العصر . فيه واحده قريبتي بتشتغل في جمرك اسكندريه حا اروح لها ـ تخلص المشكلة في دقايق وأرجع تاني . .

في وسط هذا الجو الخماسيني الخانق تبدّت لي الاسكندرية بجوها الصافي ونسيمها المحمل بذرات الماء كحلم مستحيل التحقيق .

قلت لشميدت :

ـ سوف أذهب للمرور وأرى .

انطلقت بنا السيارة من الزمالك وعبرت كوبري أبو العلا ، ثم أسرعنا بجوار الكورنيش إلى شارع الجلاء . أقسم مرسي أنه اشتغل مع خواجات كثيرين ولكنه مثل هؤلاء الألمان الشرقيين لم ترَعيناه أبداً ، وأمور مثل تجديد الرخصة واستخراج شهادة مخالفات يجب أن تترك له ، فهو السائق وهذا جزء من عمله .

في شارع الجلاء كان الغبار كثيفاً فأغلقت زجاج الشباك رغم شدّة الحر .

أمام أحد المكاتب الذي كان يجلس عليه أحد الموظفين والذي يزدحم حوله جمهور كبير وقفت أنا ومرسي . من وراء حاجز من الأعمدة النحاسية الصفراء ، الرفيعة ، المجوّفة نهض شاب وأخذ يكلّمني بالإنجليزية :

ـ لقد جاءنا منذ قليل . قلنا له إن عليه أن يشتري أورنيك ٧٣ من الحجرة المجاورة ، ويأتي معه بشهادة تأمين السيارة ، ثم يذهب إلى الجراج لإجراء فحص فني على الموتور . وبعد ذلك فإننا سوف نجدد له الرخصة .

قال مرسي :

ـ الأستاذ اللي قاعد على المكتب هناك قال لازم اسكندريه .

ولكن الجالس على المكتب التفت إلينا وأخذ يتكلّم بمجرّد أن وقع نظره علينا . انتزع نفسه من جمهور الواقفين ومن الأوراق التي بين يديه وقال وهو يشير إلى السائق :

ـ أورنيك ٧٣ ، الأوده اللي جنبنا . . إلخ . . .

اخترقنا زحام الواقفين أمام الشبابيك على شكل طوابير ، وزحام الذين يبدون

وكأنهم ـ بعيون تائهة ـ يسيرون بلا هدف .

في الخارج قال لي مرسي .

ـ جالك كلامي؟ .

نظرت إليه متسائلاً ، فقال :

ـ جالك كلامي إن بتوع المرور مهويين؟ .

***

لقد حوّلت مدام شهدي عطية المكتبة التي تملكها في شارع البرازيل بالزمالك إلى جاليري لعرض أعمال بعض الرسّامين المتميّزين . وبجانب ذلك فهي تعرض بعض الأواني الخزفية والتحف والملابس الشعبية وبعض أدوات الزينة . وتحوّل المكان الأوروبي ـ أو بالأحرى الأمريكي ـ الطابع إلى مكان له طابع إسلامي غير محدّد : الباب الخشبي الأرابيسك ، والمكتب ذو اللون الداكن والمطعّم بسن الفيل ، والأرائك ذات الطابع المملوكي ، بالإضافة إلى المنمنمات الشرقية المعلّقة على الجدران ، وبعض التحف ذات الطابع الجريكو ـ رومان والقلائد إلخ . . .

دخلت الجاليري فقالت :

ـ ها ، غالب!

سألتها عن صحتها . كان واضحاً أنها مصابة بالزكام ، فردّت بالإنجليزية ، وأنا هنا أترجم ما قالت :

ـ مصابة بالزكام ، وهو يأتيني في هذا الجو الخماسيني الحار . كأن هذا الحر الخانق والغبار لا يكفيان . لا يأتي في أيام البرد . لا ، أبداً ، ولا في أيام الصيف العادية . لا ، بل يأتي الزكام في هذا الجو الخماسيني . . شيء فظيع ، فظيع جداً . . الأغلب أنها حساسية للتراب . .

قلت :

ـ وجو الربيع المحمّل بمئات الأشياء . .

قالت :

ـ طبعاً ، طبعاً ، الزهور تتفتّح ، والأشجار تورق ، والهواء غاص بذرات اللقاح

وأشياء أخرى كثيرة . . وأنت كيف حالك؟ ماذا تعمل؟ .

قلت :

ـ أكتب مسرحية .

قالت :

ـ ها ، تكتب مسرحية؟ هذه أخبار جديدة ، حسن جداً ، إذن تكتب مسرحية . . عن ماذا؟ .

ـ عن رجل عجوز وزوجته عجوز أيضاً وعن تليفون .

ـ رمزية؟ .

نفيت ذلك . رداً على سؤالي إن كانت هي تكتب شيئاً الآن أو إن حاولت أن تكتب شيئاً في الماضي قالت :

ـ كان ذلك عندما كنت صغيرة ، ليس صغيرة للغاية . شابة في السابعة والعشرين أوالثامنة والعشرين . كتبت . لم أكتب فيها كثيراً . الديكور والملابس فقط . كل شيء كان أخضر . الكراسي والجدران والإضاءة والملابس . لا أدري لماذا ، ولكن كل شيء كان أخضر (فكّرت : لا بد أن الحوار كان يخرج من أفواه الشخصيات أخضر أيضاً) .

أضافت روكسانا :

ـ وفي تلك المسرحية كان هنالك شخصيتان لا أعرف من أين جاءا ولا ماذا كانا يريدان . كان ذلك منذ زمن بعيد ولم أتمها كما قلت لك . أنت تكتب مسرحية؟ شيء يستحق المحاولة . . ومرة أخرى كنت أكتب شبه رسائل إلى ابنتي نانا . . كانت حنان صغيرة ، صغيرة للغاية . . فكنت أكتب : عندما تكبرين وتقرأين هذه الرسائل . . . شيء كهذا . . ولكن الكتابة ترهقني . هل تشرب قهوة؟ دون سكر ، أليس كذلك؟ (تنادي) سعد!

أطلّ سعد من الباب بشاربه الكبير وفمه الواسع الذي يبدو وكأنه يبتسم دوماً وقال :

ـ ندهتي يا ست؟

قالت :

ـ واحد مضبوط وواحد ساده .

ثم عادت إليّ :

ـ ماذا كنت أقول؟ آه ، رسائل إلى ابنتي . . كنت أقول إن الكتابة كان ترهقني . أفكاري كانت أسرع من يدي مهما حاولت . ورغم معرفتي الجيدة بقواعد اللغتين الفرنسية والإنجليزية ـ لقد كنت أكتب باللغتين حسب توارد الأفكار ـ ولكنني عندما كنت أقرأ ما كتبت أجد اللغة مليئة بالأخطاء وكنت أشعر لذلك بابتئاس شديد . أشعر بحزن ثقيل عندما أكتب ، لا أدري لماذا؟ إذ أجد نفسي ـ وأنا أكتب ـ أود أن أقول أشياء كثيرة وغير مترابطة ـ مثل ذلك الرجل الإيرلندي الذي كتب عن أوليس ، ما اسمه؟ ـ كنت أشعر ، أيضاً ، أن ما كتبته ليس هو ما كنت أريد قوله . . تعرف ما أعنيه؟ أريد أن أقول شيئاً فأجد الكلمات تتوالى والجمل كذلك فأجد نفسي قد قلت شيئاً آخر . وعندما كنت أتوقف عن الكتابة ـ تتعب يدي فأتوقف عن الكتابة ـ كنت أشعر بإنهاك شديد وبكآبة تستمر زمناً .

قلت :

ـ أعرف ذلك .

قالت :

ـ يحدث معك ؟ .

ـ في السابق .

قالت :

ـ عندما كنت أنتهي من الكتابة أشعر بأنني أريد أن أبقى وحيدة ، لا أطيق أن أكلّم أحداً . أشعر . . ماذا ؟ أشعربرغبة في ا لبكاء .

سألتها عن الموضوعات التي كانت تكتب عنها في تلك الرسائل ، قالت :

ـ لم يكن شيئاً محدّداً . قلت لك إنني كنت أوجه الحديث إلى نانا : ابنتي . لقد كان ما يمكن أن تسميه إحساساً عاماً . . ماذا يسمونه؟ نوع من التحذير . كنت أرى كل شيء يهرم ويشيخ ويموت ، العلاقات تتقطع ، والناس (جذبت أطراف فمها إلى أسفل فبدا كالهلال) يسيرون في الشارع ، أعني لا يهتمون . . أعني : إحساس بخطر مُلح ولا أحد يفعل شيئاً لوقفه . كما أود أن أقول لنانا إن الحياة قصيرة ، لا ، ليس هذا

بالضبط . . ولكن المسألة أن تؤخذ أشياء كهذه على أنها شيء طبيعي . . الزكام ، والآن صداع . . انني عصبية ، ولكن لماذ؟ (تنادي) سعد! فين القهوة؟ (تكلمني) إنني أشرب فنجان زيادة عن الفنجانين اللذين اشربهماكل يوم . . رغم تحذيرات الطبيب . (تنادي) سعد!

وانتقلت إليّ العدوى . أصبحت عصبياً . نهضت وبحثت عن سعد . رأيته قادماً يحمل صينية القهوة . شربت القهوة بسرعة وأنا اتهيأ للانطلاق إلى الشارع . . ولكن الخماسين أحبطت عزمي .

ليلى في رحلة العودة

هذا الإحساس الغريب بالعالم يأتيها في مثل هذه الساعة: ساعة الغروب والشعور بالإنهاك الجسدي . يعذبها الآن هذا الهواء المحمل بالتراب ودخان الشاحنات، ويؤذي عينيها ، يرافقه صداع وطعم حريق في حلقها كبقايا القيء . والريح صفراء تهب، فتصبح الوجوه شائهة . في هذه الساعة ينسحب المعنى من العالم كما ينسحب اللون من الوجه ، فيبدو مضحكاً . هكذا تراءت لها الكباري المعلقة فوقها مفتقدة الرسوخ والوظيفة، وسائق الترولللي الذي يجلس على كرسيه المرتفع يمسك بالمقود، عابس الوجه ، جاداً للغاية . بدا لها أيضاً مضحكاً، وفائضاً عن الحاجة ؛ بدا وكأنه يؤدي طقساً تجهله .

ورعبها من الملامسة ، من اقتحام حصانة الجسد ، كان حاضراً على شكل رفض لتحويلها إلى طفلة ، على شكل خوف من تعرٍّ مفاجئ . . وقد تجسّد في هذه الساعة في شعور من الاشمئزاز من الجسد ـ كانت تضيق حتى الاختناق من تماس أعضائها .

قالت لنفسها : «أنا قوية» . رددت تلك العبارة لنفسها ولكنها طغت فوق المذاق المضجر للأشياء مجانيةً ومبتذلة . وبالتدريج أخذت هذه العبارة ترسخ ، مخترقة سطح السأم مجاورة له . وأخذت ليلى تتشكل بهذا الاقتناع . ترى نفسها من الخارج : كيان متماسك ، شامخ العنق ، محسوب الحركة . والقوة، كانت تحس بها كمجال كهربي يحيطها ، كقدرة فذة وبارعة في الساعدين السكانين ، في الأصابع . ومن خلال تلك الرؤية الودودة جداً، والتي تزعم الحياد، كانت تتحدد. قالت لنفسها : «أنا قوية» . وكان ذلك يعني أيضاً السيطرة على تلك السيولة ، في داخلها ، التي تشكلها وفق رغبة الآخرين . وكان ذلك يعني أيضاً قسوة على الذات ، وكبح الرغبات الصغيرة والخوف : الامتناع عن الانحناء لتوقف رغبتها في رؤية ذلك المتسكع الذي لا يبدو منه إلا جزؤه الأسفل ، حتى وإن كان كما تصورت ـ شخصاً

تعرفه ؛ إسكات تأنيب الضمير (فذاك الغالب الذي كانت تسير بجواره كان يثير أعصابها ولكنها الآن تشعر بالذنب لأنها سببت له كثيراً من الإزعاجات) .

توقف الترولللي باص في ميدان التحرير . من الشباك رأته يقف تحت مظلة المحطة ينتظر . التقت عيونهما . كان يحرجها بنظرة ثابتة ، وقحة ، مُدينة ، ساحرة . تولاها الخوف ؛ خوف تتوقعه كاجتياح لذيذ ، خوف مريح ـ كانتا عينين نافذتين ، تتخللانها وتشعرانها بأن هنالك خطأ ما عليها أن تصلحه بسرعة . ولكنها تقف مشلولة كما في الأحلام . تساءلت : لماذا هو غاضب ؟ .

سار الترولللي وهبط عليها ركود ثقيل ، ودت لو تموت ، لو تكون إنسانة أخرى في مكان آخر . (انفتح باب الشقة . خلفه كان يطل ذلك الوجه الصامت، المغلف بالعنف ، المنذر ؛ وجه الأب . حاولت جاهدة أن تبعد تلك الصورة) .

وسط زحام الترولللي كانت تعرف ماذا تريد : عتمة حجرتها وملمس اللحاف يحيطها من كل جانب ، يحمل عطراً خفيفاً ، رائحة عرق قديم ، فيه لدونة طيعة ، فاجرة ، معيبة : يكاد يكون جسداً آخر ولكنه في الوقت ذاته امتداد لجسدها ـ في ذلك الخدر الذي تهبط فيه باستمرار ، لا تحس بنفسها إلا هابطة دون توقف ـ . يفقد الآخرون سطوة حضورهم الملحة، فتستطيع أن تسيل ناعمة ، مبلولة، مداعبة جروحها ، تمارس الرثاء للذات دون توقف .

توقف الترولللي ففقدت ذلك الاهتزاز الرتيب الذي كان يتخللها كيد تداعبها في حلم يقظة ، كعناق جسدين عاريين في حلم جميل يستمر طويلاً بعد اليقظة . . ذلك الاهتزاز الذي يوجه انفعالاتها . أرادته أن يستمر قليلاً ، قليلاً فقط ، ثم اجتاحتها حركة الأجساد الهابطة . هبطت وهي تصارع زحام الهابطين والطالعين . كانت غاضبة غضب خيبة الرجاء : «ها أنا مرة أخرى ولم يحدث أي تغيير» . أعادت خصلة شعر نافرة إلى موضعها ، لمست جبينها فأكدت لزاجة الملمس إحساسها بالاشمئزاز من الجسد . أتى الغضب عاصفاً يمد جذوره في اليأس يبحث عن موضوع . أتى الموضوع ـ كان هنالك دائماً ـ مع إيقاع الخطو السريع :

ـ تلك الأخرى (أعلم أنني سخيفة ، أعلم ، أعلم ، فلا توقف ولكنها تمضي) الفتاة اللعوب ذات المظهر البريء ـ هذا مهم للغاية : المظهر البريء ـ هنا تتوقف تطلب إلى الشارع العريض .

وينقطع المشهد. لا تريد أن تتذكر : وجوه الطلبة تطفو أمامها وتنعدم في اللحظة نفسها . . ولا تعود تفكر في شيء . . تراقب قدميها تخطوان فوق الرصيف بإيقاع ثابت، منطفئ وكأنهما قدما فتاة أخرى . .

ثم . .

والمارة ، والحلاق الذي يقف بباب محله ، وغالب الذي ولّد عندها الصداع (وما الذي تريده من الوجودية والسوريالية والشيوعية والمصائب الثقيلة . . ؟!) والخوف الذي ينتظرها وراء الباب ـ دائماً هنالك على جانب ثديها الأيمن يضغط ضغطه الخفيف الملح ـ . وطلبت من الشارع الذي يمتد مستقيماً كالسهم ينفذ إلى هضبة المقطم . . طلبت إليهم جميعاً أن يتوقفوا ، وينتظروا حتى تستمتع بمداعبة جرحها الغائر . يتوقفون وقد جمدت التعابير على وجوههم ، كما في صورة فوتوغرافية لمجموعة كبيرة من الناس تسير في مظاهرة . . يقولون لها : «هيا ، استمري . . !» .

تخطو نحوه ، يكون عابساً يقرأ في كتاب ما ، يتظاهر بالقراءة ، يدّعي أنه لا يراها . هنا يتحطم التسلسل التاريخي للأحداث . تحاول أن تبدأ من جديد ، ولكن ذلك التسلسل ينفلت منها زاخراً صاخباً ، ثم . . وجميع العيون تنظر . . يسيران كتفها تحتك بكتفه ، ترى ظهريهما ، هو ببنطلونه العريض الحافة ، وهي بحذائها ذي الكعب العالي . وهي ليلى تقف وحيدة تطالعهما وجيمع العيون تنظر إليها . هل بكت؟ هل حاولت أن تبتسم . . ثم . .

تدق الجرس ، وتنتظر (كم ذلك سخيف ، كم ذلك ممل!) . تسمع خطواته مسرعة ـ وصوته يقول : «أيوه» . تتسع عيناه ـ يفتح الباب ، أولاً تدخل بثقة وتغلق الباب خلفها . تدخل بثقة ـ هكذا ـ يسد عليها الطريق . هي نفسها لا ترغب في الدخول (وكان الباب ينفتح بمجرد أن تمد يدها إلى الجرس ، تمتد يده وتجذبها إليه ، وجهه ساخن ، وصوته قد اخشوشن) ولكنها هي أيضاً لا ترغب في الدخول . كلمة واحدة سوف تقولها وتمضي .

ـ لماذا لم تستعملي التليفون؟ .

ليس عنده تليفون ، ولكن ذلك مشهد رأته في السينما .

ـ بالطبع ، النمرة مشغولة على طول .

ـ كذابة .

فتقول إنها تعرف أن الأخرى في الداخل . . ستقول كلمة واحدة وتمضي . وجهه منتظر : فلتقل كلمتها وتمضي . ولكنها ليست على عجل . لتتجرع الإهانة حتى النهاية . ذلك ضروري حتى تبرر العقاب المقبل .

ـ اخرجي . . !

هل يقول لها ذلك ، كما يفعل عادل أدهم في الأفلام . . ؟ لا ، ليس هكذا . . تسمع حركة في الداخل . . تفاجأ . . ثم تسمع صوت الأخرى يقول : «مين؟» .

ـ «فيه حدّ جوه؟» .

ولكنها تعلم أن تلك الأخرى كانت في الداخل . . لا لم تكن تعلم ولكنها فوجئت بها . يضطرب . وجهه قبيح ، يكون قبيحاً عندما يغضب فيتجعد أنفه وترى الشعر في داخله . . يحاول أن يدفعها إلى الخارج . . لا ، لا ، إن هذا لا يتيح لها أن تقول كلمتها بالبرود وبالثقة اللازمتين . . بل هي تقف شامخة ، معتدة ، يحاول أن يمنعها من التقدم ، ولكنها لا تتقدم فهي واقفة ، شامخة ، فتبدو محاولاتها مضحكة . تقول وهي تطل باعتداد عليه وعلى الأخرى وعلى العالم ـ إنها تخاطب التاريخ ـ : سوف تندم!

وتنصرف .

ثم . .

تكون نجمة (يمدون سباباتهم ويشيرون هامسين : ليلى) ـ ممثلة؟ مخرجة؟ كاتبة؟ المهم أنها مشهورة ، وهنالك على الدوام أناس كثيرون يتجمعون أمام بابها لا يُسمَح لهم بالدخول إليها . . يحاولون مقابلتها ، وهنالك دائماً من يمنعهم . وذلك الباب ليس باب بيتها ، ولكنه مكان العمل ـ أضواء باهرة بيضاء ، وممرات طويلة لامعة في نهايتها شبابيك بعلو الجدار ، وأناس يخطون بسرعة ورشاقة ، ثم يختفون في أبواب على الجانبين ، وهي ليست محددة في مكان ما ، بل تشيع في المكان كله : فهي ترى الذين يحاولون الدخول ، وترى كيف يمنعونهم وترى الممرات والسائرين المستفرقين ، ورجالاً بشعور بيض يجلسون على مكاتب فخمة ، يبتسمون بحلاوة ويدخنون سيجاراً كبيراً . .

أما هو . . فيجد الأخرى متلبسة مع آخر . . آخر وضيع تافه . . يدخل شقته ،

وهو يضحك فرحاً فيراهما هنالك . ولكن ذلك كأفلام يوسف وهبي . . وها هو الآن يدور في الشوارع منادياً باسمها لم يصدقها .

ـ قلت لك حاتندم !

ـ أرجوك يا ليلي!

تأمره بالخروج . لن تدعه يموت . سوف تغفر له . ولكن عليه أن ينال عقابه أولاً . . ترسل وراءه من يعتني به .

وهي تزداد لمعاناً. وكان ذلك يعني : فريجيدير ضخم للغاية ، فوتيلات عريضة ، أضواء غير مباشرة ، شبابيك مطلة على النيل ، طلباتها تلبى بواسطة أناس ليس لهم ذلك الحضور اللجوج الملح . يأتون وينصرفون كأنهم بلا قوام .

ثم تشعر بالاختناق داخل ذلك المكان الواسع الخافت الضوء . يرهقها حلم اليقظة ويملؤها بالملل .

دخلت باب العمارة وفكّرت : «إنها نهاية اليوم» ففوجئت ، وفي أعماقها ترقب ذلك الخوف الذي ينتظرها عندما تغادر المصعد وتبدى لها ذلك وكأنه نهاية الحياة .

كانت الأرض مرشوشة بالرمل . خطواتها فوقه تحدث صراخاً مكتوماً كعظام تتهشم . فاستولت عليها رعشة تنبض في داخلها ،و تنفذ إلى جلدها كالصقيع .

تتوقف أمام باب المصعد تنتظر هبوطه . تراه صاعداً ، مشبوحاً في الفضاء . أسفله يصارع ليلحق بأعلاه . راقبته وهو يمتطي في ذلك السرداب المظلم يحاول الانفلات من السير باستقامة مفروضة عليه . . وكأنما يتأهب للانطلاق إلى رحابة عالم بلا قضبان .

تراه يعود هادراً، يطلق دائرة معتمة من الضوء في ظلام سردابه . يتوقف أمامها أعمش ، مرتعش الضوء ، مهدداً بالهبوط في ظلمة راكدة . تدخله فيرتج تحت قدميها، ويبدأ في الصعود مطلقاً عويلاً أبكم ، مختنقاً ، تتخلل ذبذباته المرتعشة جسدها . . وخلال ذلك كانت تعيش خطواتها داخل الشقة .

وترى العيون :

العيون العجوزة التي تشبه كرة من الماء العكر ، العيون الساخرة ، العيون الفتية التي تطالع الحياة بجدية مبالغ فيها ، العيون التي تتصنع الدهشة ،العيون المستنكرة ،

العيون البقرية الواسعة في وجوه خائفة ، العيون السوداء الحادة النظرة في وجوه تلهبها حمرة الخجل ، العيون النافذة الآمرة ، عيون الأطفال الوديعة . . كلها تنظر باستقامة وتقوى ، كلها تشعرك أن هنالك خطأ ما يجب أن تبادر إلى إصلاحه فوراً .

عيون تحدد مساراً مستقيماً : المدرسة ثم الجامعة ثم الوظيفة والزواج والأطفال وحسن السيرة . . تقول لها العيون : كل يوم سوف تزدادين غنى واحتراماً وسمنة . . طريق طويل في آخره سوف يراك الجميع في قمة مجدك : سمينة، بلهاء ، محترمة جداً ، وأنت تتأهبين للسقوط في هوة العدم . . عيون تقول : لماذا تأخرت حتى الآن ؟ لماذا لم تتفوقي في الدراسة؟ هل تكلمين الصبيان؟ .

خطوة واحدة ثم أخرى ، وسوف تقف وحيدة مرتعشة في وجه ذلك السيل الكاسح من الورع .

عالم الطيرة والفزع

ودخل في عالمه العصابي : عالم التطير والفزع . غبشة أول المساء تهبط على المدينة كطيور سوداء مرتجفة . من إنحناءات الشارع حيث تترصده ظلمة أشد كثافة كانت عبارات ليلى تنبثق وقد زايلتها حدة قلقها وضجرها فأصبحت حانية تمسح عنه الرعب . على كوبري الجامعة ، منعكساً على صفحة السماء الكابية بالغبار والعتمة كان السائرون أشباحاً ، يحدد أطرهم ضوء المساء الشحيح . السيارات بضوئها الذي يخنقه التراب وطلاء مصابيحها الأزرق تجتاح الكوبري بغموض ، مخلفة وراءها اهتزاز الأرض تحت قدميه .

أسرع في مشيته على رصيف الكوبري . بجواره كان يسير حمار ، يجر عربة محملة بحجارة بيضاء مقطوعة على شكل مستطيلات ، وكان صاحب الحمار يجلس على مقدمة العربة . والقاهرة حوله هياكل عمارات رمادية ، وأضواء تتفتح ، فاردة انعكاسات طويلة مبرقشة في عمق النهر . . شبابيك قليلة مضاءة ، وفي نهاية الكوبري عمارة في مرحلة التشطيب ، ثم حديقة الحيوانات وحديقة الأورومان تبدوان كدغلين أسودين . وعلى امتداد النهر تتوالى المدينة على الضفتين تبهظها وحشة الليل ويطفيء بهرجها تراب الخماسين .

أبطأ السير عندما تبين له أن الرغبة في مسابقة الحمار كانت السبب في إسراعه . فوجيء بالرجل ، إذ نبت أمامه فجأة . كانت رغم الحر يرتدي معطفاً عسكرياً ، أصفر . . كان هذا المعطف هو أول ما جذب انتباهه وأذهله . ثم رأى الوجه النحيل فوق عنق طويل ، غليظ ، منتفخ الأوداج ، مما جعل الرأس مجرد امتداد منسجم للعنق . لحيته لم تحلق منذ أيام وأنفه عريض ومدوّر ومنفصل كأنه ألصق بالوجه دون عناية . الحاجبان أسودان ، كثّان ومتباعدان كأنهما حاجبان مستعاران ، وفمه ـ في هذا الفم يتجسد بؤسه ـ شفتان كأنما قُصّتا بموس ، وزحف شعر اللحية والشارب إلى داخل

الفم . والشفتان مشققتان ، جافتان ، وقد ترسبت بين القشور التي تغطيهما مادة بيضاء متيبسة .

كان الفم يرتعش والشفتان تختلجان دون أن يصدر عنهما صوت ، والعينان واسعتين تدوران في محجريهما ، تعكسان رعباً لا يصدق . بعد مجاهدة قال الرجل :

ـ يا بيه ! .

وقد أخذت تفاحة آدم تصعد وتهبط على التوالي عبر عنقه الطويل ، وعيناه ترمشان بلا انقطاع كأنهما لا تصدقان ما تريان . ثم صمت ، وعلى وجهه تعبير انتظار كأنه ألقى سؤالاً وينتظر الرد عليه .

طالت فترة الصمت وتفاحة آدم تعلو وتهبط . وأحس غالب بالحرج . سأل الرجل عما يريد على وجه التحديد . قال : مصر جديدة ـ يود أن يذهب إلى مصر الجديدة ـ بذلك الصوت الخشن المهجور . رغم إدراك غالب للعبة الرجل ـ وهي غير متقنة على أية حال ـ التفت إلى الخلف وأشار في اتجاه النيل . قال له إنه في نهاية الكوبري ، أمام العمارة العالية التي على اليمين وتبدو واضحة من هنا ، يوجد موقف أوتوبيس . من هناك يستطيع أن يأخذ أتوبيساً يأخذه إلى ميدان التحرير أو ميدان العتبة . ومن هناك عليه أن يسأل عن الأوتوبيس الذاهب إلى مصر الجديدة ، كثيرون سوف يدلونه عليه .

بدا واضحاً أن الرجل لم يكن يتابع شرحه . بمجرد أن صمت غالب تكلم الرجل على الفور . كان صوته صوت إنسان بلغ أقصى حالات الضجر والضيق . فكان احتجاجه أشبه باحتجاج أنثوي . قال :

ـ أتوبيس ، قال ، وأنا مالي ومال الأوتوبيس ، هوه معايا فلوس أركب بيها . . .

ومضى الرجل في حديثه . لم يعد محتاجاً إلى المكابدة حتى يخرج كلماته . قال إنه في حقيقة الأمر لا يود الذهاب إلى مصر الجديدة بل يريد الوصول إلى بلدة أبو حماد ، وإنه مضطر أن يسير المسافة كلها على قدميه . لقد غادر السجن منذ ساعات قليلة فقط وهو لا يملك مليماً واحداً . ولم يأكل شيئاً من منذ أمس .

خطا غالب جانباً وواصل السير . أسرع الرجل خلفه وأخذ يردد بصوت نابح ، خشن : إنه يحتاج إلى نقود ، نقود قليلة ، ليس للسفر ، فهو سوف يسافر على

قدميه، بل ليأكل .

ـ جعان يا بيه ، جعان وحياة النبي . بقالي يومين إثنين من غير أكل ! .

ثم أضاف وكأنه يستغيث :

ـ جعان يا مسلمين!

وكان غالب يسرع ويفكر خلال ذلك أن الرجل ليس دقيقاً ، مصر الجديدة حيناً وأبو حماد حيناً آخر ، ثم يريد أن يأكل وحسب، والرجل يلهث خلفه ، وقد أصبح صوته أشبه بالنداء :

ـ بيه ، يا بيه ، سعادة البيه ، يا بيه ! إلهي يصون عافيتك، بقالي يومين بطولهم من غير أكل ، والله العظيم يومين . . »

توقع غالب انغراس المطوى في كتفه . كان الجرح المتوقع بارداً قرب العنق ـ وقد كان يحس بلهاث الرجل مختلطاً برائحة الكحول ، قريباً من أذنه ـ وبعد قليل لم يعد يسمع للرجل حساً ، فقدر أنه يئس وانصرف . التفت غالب خلفه فرأى الرجل واقفاً، يتكئ بظهره على سور الكوبري وقد فرد ذراعيه على امتدادهما على حافة السور العليا . ما إن رآه الرجل ينظر إليه حتى انطلق مسرعاً ، يكاد يعدو ، حتى أصبح جواره وأخذ يردد بصوت مختنق :

ـ ربنا يخليك يا سعادة البيه ، والنبي يا سعادة البيه ، وحياة النبي . .

صرف الرجل بحدة ، وعلى التو طفا أمامه في سمرة المساء وجه ليلى رائقاً ، متألقاً . . وجه وديع ، أليف ، حنون، يشكو سيولة العالم ، حزين ومقهور لافتقاد المطلقات في عالم الكبار : سسوف تعيشين أياماً صعبة . أياماً عصيبة قبل أن يمنحك العالم سره المأساوي .

حديقة الأورمان دغل ينبش أحلام الطفولة ، دغل مخيف ومجتزأ من العالم . وتتصاعد إلى أحشائه ذكرى ملمس امرأة يخنقه بالرغبة . الأشجار على امتداد حديقة الأورمان تحجب عنهما السماء ، ولا تتيح للمارة أن يروهما . . ولكن ماذا يستطيعان أن يفعلا في الشارع سوى تلك الملامسة الحميمة ، اللاهثة ، الخائفة ، المخوفة . . فوق رصيف الشارع الذي يصل بين كوبري الجامعة وجامعة القاهرة كتلة متراصة متشابكة من الأشجار تبدو خلالها آلاف الفراغات البالغةَ الصغر ، تنفذ منها العين إلى نتف

ميكروسكوبية من سماء بيضاء ، متسخة . دوائر من ضوء أصفر ، مرتعش، ترسم على الرصيف أرابيسك من الظل والضوء ، سجادة فارسية بنقوش متراقصة ، وفي أنفه رائحة الأشجار ، أوراق الشجر المتعفنة بالماء ، رائحة الحيوانات في حديقة الحيوانات تصله كثيفة حلوة ، رائحة أجساد كثيرة في عنابر السجون . تداعب وجهه العرقان نفحات ريح ، لها ملمس أنثوي ، نعومة تلك المرأة تتسلل إليه كبدايات الحمى، ملمس ذلك الجسد وهو يحيطه بذراعيه يتلبسه منعشاً ، ممكناً ومستحيلاً في الوقت نفسه . في ذراعه الأيمن ذلك الملمس وهو يتلقى حركة الجسد ، وهو يسير يتلقى نبضاته ، وانفراج العضلات وتقلصها . . يريدها الآن ، الآن . .

وتقول ، لماذا توقفت الآن ؟ ماذا بك؟ .

يذكرني الشارع ، يقول ، وأنت بشارع آخر كان كالسرداب والشجر فوقه يحجب الضوء والسماء . .

تقول إنها تعرف ، تعرف . وغضبت قليلاً وابتعدت عنه .

وتلح عليه الذكرى ، فيحدث نفسه : أين نادية الآن ؟ .

وتقول المرأة التي ابتعدت عنه غاضبة ، توقف عن هذا الآن . بلغه صوت الطائرة تندفع على ارتفاعات قصوى ، فانتزعه التراب الذي يؤذي عينيه من تلك اللحظة المسحورة . ذو العين الواحدة ، يطاردني من زمن : «علينا ألا نجعل العرب ينسون ليوم واحد ما حدث . سوف نجعل كابوسه يجثم على قلوبهم . . » قال شيئاً كهذا . . قلق مؤلم استولى عليه وهو يدفع ورق الأشجار الدقيق يتساقط عليه من أعلى وكأنه ينفذ من فتحات غربال .

«الاستحمام حالاً ، الاستحمام حالاً .»، وهو يسرع نحو البيت . يدور حول حديقة الأورمان ثم يتجه إلى الميدان .

ميدان الدقي : الصخب والتراب وفوضى المرور ، والوجوه المألوفة التي قد لا تعرف اسمها . دخل العمارة : رائحة الأحياء ، وهواء رطب تلقاه . توقف أمام باب المصعد منتظراً هبوطه . خرج البواب من حجرته الواقعة على يسار المدخل . صعد الدرجات القليلة نحو غالب، وجلابيته البيضاء الصافية تضطرب وتموج حول جسده، كأن ريحاً قوية تعصف حوله وهو يمسك بطرفها حتى لا يتعثر . كان خلال ذلك يحمل

ورقة صغيرة يمد بها ذراعه إلى أقصى مدى ، ويشير بها نحوه ، وعندما توقف أمامه قال :

- ورقة لحضرتك من البتوع . .

ولم يكمل .

أمسك الورقة وهو يعرف تماماً ما بها ، قرأها :

السيد غالب سلامة .

الرجاء حضورك إلى مبنى وزارة الداخلية في الثامنة لمقابلة الرائد . . للأهمية ، والشكر مقدماً . . ثم التوقيع . شكر البواب الذي تلكأ قليلاً .

***

مبنى وزارة الداخلية غارق في الظلمة ، عدا بضعة شبابيك مضاءة . مهما حاول فهو لن يستطيع أن يمنع ذلك الشعور بالإجهاد الذي يستولي عليه وانحلال الركبتين وهو يعبر بوابة ذلك المبنى ، التي كانت تبدو من الخارج بريئة للغاية . الحوش الواسع مزدحم بالسيارات ، وبينها يقف عدد من المخبرين بتصلب . صورتهم لا تغيب عن خياله : وجوه ثابتة ، صلدة ، تحمل نذيراً خفياً عنفاً مصمتاً ، خالياً من التردد وشبه آلي . خطواته مغلولة بعبء العيون ورهبتها ، تلك العيون التي لا تنظر إليه ولكنها تحاصره كالمصيدة .

انتهى من منتصف الحوش ودخل باباً ينفتح على ممر طويل ، في نهايته دورات المياه ، والمكان الذي يوقع فيه المخبرون ساعة حضورهم وساعة انصرافهم . على يمينه ، وبعد خطوتين ، كان هنالك باب منخفض ضيق . عبره وهو يحني رأسه قليلاً فاستقبلته عشرات العيون السوداء متسائلة ، راجية ، تضحك بخوف . إلى يساره رأى المنظر الجانبي لرجل يختفي معظمه وراء حاجز خشبي يعلوه حاجز زجاجي . دار وواجه الرجل . كانت تقاطيعه حادة ، جافة ، ووجهه صغيراً . لم ينظر إليه . كلهم لا ينظرون إليه ولكنهم ، رغم ذلك ، يشعرون بأن لهم عيوناً خفية تتخلله ، وتعرف أخفى مقاصده . من فتحة مدوّرة في الحاجز الزجاجي ، مد الرسالة . تناولها الرجل ، نظر فيها بعناية واستغراق كأنه يقرأ رواية مثيرة ، ثم وضع قلم الرصاص في فمه ، وأشار إلى الجالسين وقال له :

- تفضل .

كل ذلك دون أن ينظر ؛ بدا لغالب أن الرجل غاضب منه لسبب ما ، وأنه لا يمكن لشيء أن يخفف من غضبه . كان فيه شيء من غضب الأب الصارم .

اختار كرسياً وجلس . هناك عدد كبير من المنتظرين . رجل أوروبي يقرأ (الإجيبشان جازيت) بوجه ضجر عابس : كان خارج اللعبة . فتاتان . إحداهما تضع على وجهها مساحيق ثقيلة جعلته أسمر كابياً ، أما شفتاها فمدهونتان بلب أحمر - بني ، وتبدوان مبلولتين ، لامعتين ، ولها شعر طويل جداً ومستقيم . بعد قليل تأمل ذلك الشعر : رأى الشعر الآخر تحته ، الشعر الطبيعي ، مجعّداً ، أشهب ، بنظرة جانبية ناصعة البياض ، راجية ، باسمة ، كنظرة مومس تود اجتذاب عيني زبون ، وفي الوقت نفسه مستعدة لسماع أسوأ الأنباء . كانت تنظر إلى الرجل الذي يبرز وجهه وكتفاه عبر الحاجز الزجاجي . نظرتها لا تفارقه وشفتاها تتحركان حركة غير ملحوظة ، وكأنها تصغي لحديث وتستعد - بحركات فمها - للرد . . شاب يجلس وحيداً ، يضع ساقاً على ساق . الساق العليا تهتز اهتزازاً سريعاً ، متصلاً . يقرأ أو يخفي وجهه في صحيفة الأهرام . من الواضح أنه بذل مجهوداً ليبدو أنيقاً ، ولكنه يفسد أناقته بجلسته التي سوف تفسد كي البنطلون . هناك رجلان يجلسان متجاورين . أحدهما له شعر أبيض لامع ، مموج ، ووجه غامق السمرة ، به تجاعيد طولية ، عميقة ، وعين ثابتة النظرة . مفارقات هذا الرأس تجذب العين على الفور لتستقر على الفم العريض الرخو الذي يحمل تعبير ألم ، وكأنه على أهبة البكاء . الشاب الذي على يمينه ، بعينين ضاحكتين ، برّاقتين ، يلتفت بين الحين والحين بجذعه كله نحو الرجل الجالس إلى جواره وفي عينيه الواسعتين نظرة تساؤل ضاحكة ، وكأنه يداعبه . يعود بعد ذلك إلى وضعه الطبيعي بعد أن يجوس المكان بنظرة أفقية .

يستغرق غالب في المكان ، يدخل في سياق عالم سمته الانتظار الطويل ، وتوقع فعل عنيف ، شرير ، مباغت .

انحل غالب في هذا السياق .

العالم الخارجي أصبح مجرد ذكرى .

يتذكر : في المرة الأولى التي جاءوا به فيها إلى هذا المكان ، يذكر أنه صعد سلالم عريضة - أنه يهبطها عندما ينتهي من المقابلة مع الرائد في الأدوار العليا - . أوقفوه أمام

رجل ضخم الجثة يرتدي ملابس واسعة عليه . كان لوجهه الكبير الأحمر تعبير محايد، غير مبال . أخذ الرجل يصدر إليه أوامره بضجر . لم يكن ينظر إليه ، ولكنه كان واثقاً أنه سوف يطاع .

قال الرجل :

ـ الحزام .

تردد قليلاً ، وفكر أن يتظاهر بأنه لم يفهم المقصود . ولكن وجه الرجل ؛ بذلك الضجر المنذر بالعنف ، جعله يسرع بخلع الحزام . تناوله الرجل ووضعه على مكتب صغير أمامه . وتنفيذاً لأوامر الرجل خلع غالب الساعة التي في يده ، وأخرج النقود والسجائر والكبريت ، ثم نهض الرجل من وراء المكتب وأمسك بيده وسار بتأنٍّ كأنه يعلّمه المشي . هبط به بضعة درجات وفتح باباً خشبياً يستقر على الدرجة الأخيرة . انفتح الباب على ظلمة سوداء كالقار . أمره الرجل بالدخول فمد ساقه وتحسس بقدمه المكان . دفعه الرجل من الخارج دفعة خفيفة ثم أغلق الباب . عندها أحس أن العالم هجره . . أنه خارج العالم . كان الإظلام تاماً، وفكر أن عينيه ستتعودانه بعد قليل . ظل واقفاً في مكانه بانتظار ذلك .

ولكن السواد ظل لصق عينيه ثقيلاً مصمتاً . برك حيث يقف ونام . كان نوماً ثقيلاً بلا أحلام . صحا بعده وطعم كريه في فمه يرافقه إحساس شديد بالجوع . فتش عن سيجارة فلم يجد . تذكر أن الرجل قد أخذها منه . حاول العودة للنوم فلم يستطع .

تمشى في الزنزانة وهو يمد يديه أمامه ، ويفكر أن ما يحدث مثير ـ ليس الآن ، ولكن عندما يرويه ـ ثم أخذ يلاحظ شيئاً بدا له شديد الغرابة . استطاع أن يميّز بالجدار جزءاً به لمعة سوداء . اقترب منه وأخذ يتفحصه ، رأى حركة غامضة في داخله تبدو وتختفي . خطر له أن يجلس حيث يقف وأن يظل هكذا دون حراك . نسب تلك الحركة الغامضة إلى مراقبة من نوع ما . قدر أن هذا الجدار من ذلك النوع من الزجاج الذي يستطيع الذي يقف خلفه أن يرى الشخص الذي في الداخل ، دون أن يستطيع هذا الأخير رؤية الذي في الخارج .

ـ أنا مراقب ، وما في ذلك ريب . قال لنفسه ، ولكن ذلك لم يرتفع إلى مستوى الغرابة .

وقف هكذا مدة طويلة ، وهو يحس بغموض أن هنالك شخصاً ما يقف خلفه ، ثم عزم أمره واقترب من ذلك الجزء اللامع من الجدار . كان هنالك حركة شبحية في داخله : كتلة ما تقترب منه . لمسه بيده . كان السطح ناعماً صقيلاً ، وفجأة خطر له أنه مرآة . وعلى التو أحس بخيبة الأمل ، وتولاه ضجر الانتظار وتوقع العنف . واصل سيره الحذر في الزنزانة وهو يمد يده أمامه .

ثم أخذوه للتحقيق ، واستمر حوالي ست ساعات حول لا شيء ، لم يعرف منه السبب الذي جعلهم يعتقلونه . كانت الأسئلة تدور هكذا :

ـ هل تعرف سبب اعتقالك؟ .

ـ لا .

ـ لا ؟ هل تعتقد إننا أغبياء؟ .

ـ لا . ولكن لماذا اعتقلتموني؟ .

ـ لا . تعرف ؟ .

ـ لا أعرف .

ويهز المحقق رأسه بضيق :

ـ لطيف هذا التظاهر .

ـ لا أتظاهر .

ـ خمّن .

ـ لا أستطيع أن أخمن .

ـ فكر قليلاً . تذكر ماذا عملت . .

ومضت الأسئلة والأجوبة على هذا النحو .

حوالي الواحدة بعد منتصف الليل وضعوه في سيارة لاندروفر . تحقق أنهم يهتمون بإدانته أكثر من اهتمامهم بمعرفة المعلومات . اتجهت العربية إلى ميدان عابدين، ثم إلى ميدان باب الخلق . أين سيذهبون به ؟ إلى سجن مصر؟ تساءل . ولكنه رأى أنها تتجه إلى قلعة محمد علي . اجتازت السيارة المدخل ، وصعدت في الطريق المسقوف وتوقفت أمام بوابة حديدية كبيرة . قال لنفسه : إنه سجن القلعة .

ولكن الغرابة ظلت في المكان .

أمام البوابة كان رجلٌ يرتدي ملابس مدنية واقفاً ينتظر . على بعد قليل من البوابة الحديدية كان يقوم بناء من طابق واحد ، يقف أمامه مجموعة من عساكر البوليس بملابس بيضاء . عندما هبط من السيارة قاده المخبر إلى الرجل الذي يقف أمام البوابة .

على الفور قال الرجل شيئاً بسرعة ثم أخذ ينظر إليه . كانت له عينان واسعتان ، لامعتان ، لونهما أقرب إلى الخضرة . وكانت العينان تضحكان . أعتقد غالب أن الرجل قال نكتة . فابتسم . اتسعت الضحكة في عيني الرجل وقال بنفاد صبر :

ـ أنت أطرش؟ .

كان غالب ما يزال يبتسم ولكنه أدرك أن الرجل يطالبه بفعل شيء . ثم تبين أن للرجل فماً مشوّهاً : الشفة العليا متورمة وقد نبتت عليها شعرات سوداء قليلة والفم مائل قليلاً . ردد الرجل :

ـ أطرش؟ .

ـ أنا؟ لا .

وكأنه يجيب على مجرد سؤال عادي .

قال الرجل بفظاظة لا تنتمي إلى تلكما العينين الضاحكتين :

ـ بقولك طلع المنديل!

أي منديل؟ لم يفهم . أي منديل ؟ وماذا يريد منه؟ قال :

ـ منديلي؟ .

ثم أخرج منديله وعرضه أمام الرجل كأنما ليشهده أنه يملك منديلاً بالفعل . ما زالت الضحكة في عيني الرجل وهو يمد يده ويجذب المنديل بقوة . تأمله ، وقد وضعه بين عينيه وضوء المصباح المثبت فوق البوابة ، وبدا التقزز واضحاً على وجهه ، وقال بصوت مكتوم وكأنه يحدث نفسه : إيه القرف ده؟ .

ثم أمسك بطرفيه وشده قال :

ـ قرب! .

اقترب غالب فدار الرجل خلفه ، وضع المنديل على عينيه وأخذ يعقد طرفيه على

مؤخرة رأسه . ثم تركوه هكذا . وقف غالب ينتظر وهو يتوقع ضربة مفاجئة . مر وقت خيل إليه أنه طويل وهو واقف دون حراك . كان حديثٌ يدور في مكان غير بعيد ، عجز عن فهمه غير أن الإيقاع كان بطيئاً ليس فيه هذا الجو المتوتر الذي يحيطه . سمع صلصلة البوابة الحديدية وهي تفتح ، وسمع همساً وهمهمة لم يحاول تبين ما تعنيه ، تفادياً للشر . ثم إذ بيد كبيرة ، خشنة ، تحتوي كوعه بعنف ، صوت قاطع يقول :

ـ ما تمشي! .

سار واليد توجه خطواته . تخيل أنه يسير في أرض خلاء ، وأن هنالك أشجاراً صغيرة ، أوراقها ذات خضرة داكنة متربة ، مسنودة بأخشاب بيضاء ، كانت الصورة التي في خياله لبستان في مدينة إقليمية في الأردن ، تقع على حافة الصحراء ، وعندما حاول تحديد موقعها ، يتذكر أنها حديقة مدرسة ابتدائية في إحدى تلك المدن التي زارها ودخل مدرستها ليسأل عن مدرس صديق له .

هبط درجة على غير توقع فاختل توازنه وكاد أن يسقط لولا اليد الممسكة به والتي جذبته بقوة : زعق به مرافقه وطلب منه أن يكف عن الدلع :

ـ حاتشتغل بي .

بعد ذلك ساخت الأرض بين قدميه وأصبحت كل خطوة مهوى . أخذ يتحسس بقدميه قبل أن يخطو ، متخيلاً أنه يسير على حافة سور شديد الارتفاع . جذبه المخبر بعنف وقال بنفاذ صبر :

ـ بلا فلقه ، ما تمشي .

هذه المسيرة تتخلله الآن تملؤه بتوقع السقوط المفاجئ. مد يداً مرتعشة إلى جيبه وأخرج المنديل : إنه قذر أيضاً ، وأخذ يجفف العرق عن جبينه . عندما أعاد المنديل كان مبتلاً أسمر . رأى الرجل الذي يخفي وجهه بصحيفة الأهرام يهبط بها قليلاً وينظر من فوق حافتها . في عينيه ذعر أبيض . التفت ليتابع نظرة الرجل فرأى قسيساً يدخل . «ما الذي جاء به إلى هذا المكان؟» . للقسيس لحية كبيرة مدورة يتخللها الشيب ، وملابس سوداء ضافية . توقف لحظة كالتمثال ، عيناه شاخصتان بغضب ورع ، ثم اضطربت أثوابه وماجت بخطوط طولية واقترب من الرجل الجالس خلف الحاجز

الزجاجي . بدا وكأن القس يحاول أن يدخل رأسه من الكوة الزجاجية رغم أنها لا تتسع لقبضة اليد . عاد برأسه إلى الخلف ثم أخذت لحيته الكبيرة تهبط وتصعد بانتظام . انصرف عنه الرجل والقس ما زال يتكلم ومد له ذراعه مشيراً له بالجلوس . استدار وتأمل الحاضرين بنظرة يقظة كأنه يبحث عن وجه يعرفه ، ثم سار بخطوات سريعة إلى أقرب كرسي وجلس عليه ، وقد أعطى الآخرين جانب وجهه ، وكأنه يقول لهم : «لستم من عالمي» .

دخل شاب نحيل ، طويل ، جاحظ العينين ، مسرعاً . أبرز الورقة الصغيرة إياها . قال له الرجل شيئاً ، فأخرج الشاب بطاقته الشخصية وأدخلها من تحت الحاجز الزجاجي . أمسكها الرجل ، كتب شيئاً ، أعاد البطاقة وتناول سماعة التليفون وهو يشير للشاب أن يجلس . تفحص الشاب المكان ، ثم سار حتى نهاية الحجرة ، وجلس . بمجرد جلوسه اتخذ سمت الاستغراق . جحظت عيناه ، وبدا لغالب وكأنهما سوف تنفصلان عن محجريهما ، وهما تحدقان في الفراغ ، وارتسم على الوجه تعبير مأساوي .

(هذا الضوء الذي يسيل على الوجوه كأنه براز ، هذه الرموش والحواجب التي يتعلق بها التراب كما يتعلق الدقيق برموش طحان القرية العجوز . . هذا الوجه الأصفر ، الذي جاء به إلى هنا؟ أما ذلك المحاط بسياج من زجاج وأضواء نيون بيضاء تحاصره فيبدو وكأنه جالس في فترينا . .) .

التفت غالب إلى القسيس . كان غارقاً في توفز أسود . عتمته الكثيفة تمتص الضوء ، فتخلفه كتلة سوداء . (هذا الضوء المعتم يأتي من السراج المعلق في دارهم الواسعة بالقرية عندما تزدحم بضيوف صامتين . الذكرى تثير معها روائح التبغ في الأفواه الخالية من الأسنان ، والفروة التي كان يرتديها أبوه . . هذا الضوء هو أيضاً السراج المعلق في الدار الكبيرة ساعة الغروب ، لا يضيء إلا نفسه ، عندما تتمدد على الأفق الغربي غيوم حمراء وبرتقالية ، مذهبة الحواف) .

كان القسيس يركز عينيه على الرجل الجالس خلف الحاجز الزجاجي وقد مال بعنقه إلى الأمام وارتفع كتفاه فبدا وكأنه يتأهب للنهوض . قال غالب لنفسه : «هذا القسيس تعود أن يطاع» . وصور لنفسه أن أحد أفراد رعيته ـ أحد خراف الكنيسة المؤمنين الذي يرعاهم هو ـ أو أحد أقاربه يعمل في هذا المكان ، وهو قد جاء يطلب منه

خدمة ما . وتصوّر ذلك الخشوع الذي سوف يلقاه به ذلك القريب المؤمن ، وأن القسيس سوف يمارس سلطة أبوية على رجل واسع النفوذ ، مخيف للغاية .

فجأة ، نهض القسيس واقفاً وحدّق في غالب بنظرة جانبية . كان يقف طويلاً ، متصلباً كأنه عامود أسود ضخم ، وبدا وكأن غالب يلقي إليه حديثاً والقسيس يصغي بكل انتباه . كان رأس القسيس ملقى إلى الخلف ، يميل ميلاً طفيفاً إلى اليمين ، فأصبح وجهه مع لحيته مع غطاء رأسه الدائري يكوّن مسطحاً مستديراً للغاية ، هشاً ، أسمر ـ أسود ، مسطحاً ملصقاً برقبة قصيرة تعلو جسداً راسخاً كالصخر . وجه في صورة ما ، قديس في لوحة ما يشكو معذبيه للرب (فتحوا له باب زنزانته في الليل . كان ذلك استثناء خاصاً به . قال له المخبر : «علشان أنت غريب وضيف هنا . .» . سار أمامه المخبر في اتجاه دورة المياه . كان عالماً مسحوراً ذاك الذي دخل فيه : القمر بدر شديد اللمعان ، وليل بداية الشتاء رائق ، وأشعة القمر كأنها سائل تضفي على المرئيات طابعاً شبحياً غريباً ، ملغية جميع الألوان عدا اللونين الأبيض والأسود . عبر المسافة التي لا تزيد عن بضعة أمتار والتي تفصل صفي الزنازين عن بعضها . في تلك اللمحة التي رأى فيها الزنازين مظلمة ، ساكنة ، كان حضور رفاقه يتجسد في حنين يكاد يدفعه لأن يعلن عن نفسه أنه اقترب منهم متراً آخر ، وأنهم لو مدوا أيديهم عبر الأبواب المغلقة لاستطاعوا أن يلمسوه . صعد عدة درجات ثم دخل دورة المياه عندما خرج ، تباطأ ليشاهد مئذنتي مسجد محمد علي كعامودي فضة في ضوء رجراج مائع ، تحيطهما هالة من الضباب المشع . رؤية هاتين المئذنتين تنزلقان مبتعدتين في ذلك الضوء المذاب في الضباب أدخلت في قلبه حب التاريخ ، بعثت في ركن مهجور في قلبه الصبوة إلى عالم مستقر ، أليف ، وضع حلاً لمشكلة الموت بأن جعله فاصلاً بين عالمين) .

(ربما كانت تلك الصرخة الغريبة التي لا تمت إلى الإنسان هي التي جعلته يتجاهل الأوامر ويلتفت . إذ تنبه لما يجري على يساره . كان ذلك أمام البوابة الكبيرة المؤدية إلى الممر الذي يفصل بين صفي الزنازين ، والذي كان غارقاً في ضوء القمر . دام ذلك عشر ثوان أو ربما أقل ، استحثه المخبر بعدها إلى المسير ، ثم أدخله زنزانته وأغلق عليه الباب . أمام البوابة رأى شبحاً ـ إن لم يكن شبحاً فماذا يسميه إذن؟ ـ مغطى بلفائف بيضاء من رأسه حتى قدميه . استطاع أن يميز عدة بقع سوداء في اجزاء عدة من اللفيفة) .

(على كرسي قرب البوابة كان يجلس مخبر سمين ، تائه النظرة ، على وجهه حزن رقيق كحزن العذارى العاشقات . بدا وهو مستغرق ، ساكن ، كأنه يجلس في هذا المكان ، في ضوء القمر منذ زمان طويل ، من مئات السنين) .

(كان هنالك مخبر آخر يقف على بعد قليل من اللفيفة البيضاء ، ممسكاً بعصا دقيقة ، طويلة ، رفعها وهوى بها على ذلك الشيء عدة مرات . كانت العصا وهي تخترق الهواء مسرعة ، هابطة ، تحدث صوتاً شبيهاً بأنفاس مبهورة . أطلق الشبح صرخات عديدة ، متتالية ، واندفعت يداه ـ كان له يدان ـ تحميان وجهه كما تفعل النساء عندما تتعرض للضرب . هوت العصا عدة مرات على اليدين اللتين تحميان الوجه ، والوجه والرأس . كان الضارب ينحني مع كل ضربة ليؤكد اتجاهها . ومرة أخرى توالت تلك الصرخات الملتاثة العاوية ؛ صرخات قصيرة ، ولكنها ولولة متصلة ، أشبه بزغرودة) .

(لم يكن ذلك تعذيباً ، فيما بدا لغالب ، بل كان أشبه بطقس عتيق ، بطقس سحرة ، يجري في ضوء القمر وتلك الولولات اكتسبت طابع بكاء كوني) .

(المخبر المخدر في ضوء القمر مال برأسه في اتجاه الواقف أمام دورة المياه ، وقال :

ـ بس ، بس ، فيه ناس .

بدا ذلك كالمعجزة في سياق دورة كونية مجهولة . وكان صوته مليئاً بالشجن ، مشحوناً بتوقع فاجع) .

(قبل أن يدخل الزنزانة رأى غالب تلك اللفيفة ترقص ، ترقص بالفعل . رغم أن العصا ارتفعت عنها فما زالت تتقيها بحركات إيقاعية ، ترافقها ولولة خافتة أشبه بالتنهدات) .

(في داخل الزنزانة حاول أن يفهم معنى الذي رآه . اختنق بعجزه ، رافضاً التفسير البسيط : إنسان تعذب حتى فقد عقله ، وغاص في دوامة كابوس : إن ما رآه هو مشهد تمثيلي صامت يعاد فيه عرض أحداث جرت منذ زمن بعيد . . أوربما كان شيئاً يحدث في مكان ما في الكون . . كان ذلك مجرد إحساس عجزت الكلمات عن تفسيره أو استيعابه) .

(إن كابوس تلك اللحظة لم يفارقه أبداً ، ويعجز ، عندما يحكيه للآخرين أن

ينقل إحساسه به ، ولكن جو القلعة الأثري والمئذنتين اللتين تبدوان دائبتي الانزلاق في الضباب ، وتلك الولولات ، تختلط لتكون خلفية المشهد) .

(قد يكون ما رآه مجرد وهم عقل مرهق بالتعذيب الجسدي المتصل ، وبسماع صرخات الآخرين الذين يُعذَّبون ، أو ربما كان ما حدث شيئاً أخطأ في تفسيره ، ولكن ذلك المشهد ظل مطبوعاً في ذاكرته بوضوح فائق : لحظة مسحورة ، وفي أحد الأطراف البعيدة تدور أحداث مبهمة كأنها تجسيد لخيالات محموم) .

التفتت الفتاة نحو المرأة التي تجلس بجوارها وأخذت تهمس لها . غير أن الالتفاتة كانت بالرأس فقط ، أما عيناها ـ الواسعتان بالترقب ـ فقد ظلتا محدقتين بالرجل الجالس خلف الحاجز الزجاجي . المرأة كانت مسبلة العينين ، جامدة . ابتعدت الفتاة عن المرأة بغتة وتعلقت عيناها بالرجل المنكب على الورق ، وراء الحاجز الزجاجي كانت عيناه تومضان ـ بدهشة؟ بضحكة؟ ـ وكأنها تتوقع أن يتعرف الرجل عليها وينهض ويصافحها .

وقف الرجل الذي يغطي وجهه بجريدة الأهرام . سار بساقين متخشبتين نحو موظف الاستعلامات الذي يجلس في تقاطع الأضواء البيضاء المنخفضة وقال بهمس سمعه الجميع وهو يشير إلى ساعته إنه مضى عليه ساعة وهو ينتظر ، وعرض ساعته أمام وجه الرجل الآخر ليتأكد من هذه الحقيقة . دفع موظف الاستعلامات رأسه إلى الخلف وتخطاه بنظرته إلى الفتاة التي كانت تطالعه بنظرة تعرف براقة ، ثم دعاه إلى الجلوس بلهجة قاطعة . توقف الرجل لحظة ، أدار رأسه في جميع الاتجاهات ، ثم استدار وسار بمشيته المتخشبة إلى كرسيه وجلس عليه .

القسيس ما زال في وقفته المتصلبة ، مشنوقاً ، شاخصاً بنظرة جانبية كالقتلى في لوحات عصر النهضة ، يصغي لأصوات لا يسمعها أحد غيره . حركة غير ملحوظة من كتف القسيس أعطت ايحاء بالحركة فاعتقد غالب أنه سوف يعاود الجلوس مكانه . أعاد القسيس رأسه إلى وضعه الطبيعي ، واكتسب وجهه تعبير من يعاني في ابتلاع شيء ما ، ثم فجأة استدار نحو الباب وهرول خارجاً وأروابه الفضفاضة تموج وتصطفق محدثة ضوضاء خفيفة .

رفع الرجل الأوروبي رأسه وأخذ يطالع القسيس الهارب بعدم تصديق . تحركت شفتاه بكلام غير مسموع قدّر غالب إنها : «بحق السماء» . التفت إليه غالب متسائلاً ،

فعاد الأوروبي إلى الصحيفة وهو يقول :

ـ أوه ، إنه لا شيء .

التقط غالب اللكنة الأمريكية على الفور ، وتكونت على شفتيه جملة : «هل أنت أمريكي؟» عازماً أن يسرع في إلقائها ليوهم الآخر أنه أمريكي أيضاً . ولكنه عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة .

ثم أخذ غالب يلاحظ شيئاً غريباً ، كانت يدا الرجل الذي يخفي وجهه بجريدة الأهرام ترتعشان . الذي جعله يلتفت إلى الرجل صوت خشخشة الورق . أول ما خطر له أن الرجل يحرك الصحيفة للتهوية ، ولكنه أدرك خطأه بعد قليل . إذ أخذت الصحيفة تنساب من يديه المرتعشتين ببطء ثم سقطت على ركبتيه وأخذت تزحف إلى جانبه الأيمن ، نحو الأرض . استقر طرفها على الأرض فتوقفت . لاحظ غالب وجهه المبلل بالعرق ؛ قطرة منه توقفت على طرف أنفه وظلت معلقة . اجتذب لمعان النقطة ذبابة حومت قليلاً ثم حطت على أحد منخريه .

مد الرجل يده في جيبه وأخرج منديلاً أبيض ، مكوياً ، وأخذ يجفف به وجهه ، فرد المنديل على كفه وراح يفرك به أنفه وحاجبيه . كان وجه الرجل رمادياً ، تخالطه صفرة ، ينضح بالعرق رغم التجفيف المتواصل .

كان الجميع ينظرون للرجل ، الآن . كان الجانب الأيسر من وجهه ابتداء من الفم حتى طرف العين اليسرى يرتعش بشكل متواصل ، كأن موجات صغيرة تسري سريعة، متلاحقة تحت سطح الجلد . وكان يلهث . يجتذب أنفاسه بصعوبة .

أبعد غالب عينيه عن الوجه (هذا الوجه الرمادي الأصفر يبعث ذكرى بعيدة . . أين؟ من؟ . .) مرت في خياله صورة حوض ورد دائري ، في وسطه نافورة ماء . . أين؟ أين؟ ولكن الذكرى راوغته .

سقطت الصحيفة على الأرض محدثة دوياً خافتاً فاهتزت ساقه اليمنى ، أخذ وجه الرجل يتشنج وشفتاه تنفرجان عن أسنانه التي أخذت تصطك . (هذا الوجه الرمادي ـ الأصفر . . أين رآه ، قبل الآن؟ الذكرى تلوح قريبة منه ثم تنفلت) .

كانت الفتاة قد أدارت وجهها نحو الرجل وراحت تحدّق فيه وكأنها تصغي إليه . انسابت قطرة من العرق وتوقفت ـ مشعة ـ على طرف شفتها العليا . رفعت يدها

ووضعتها على ذراع المرأة التي تجلس بجوارها ، واندفع جذعها إلى الأمام ثم مال نحو الرجل ، كأنها تشهد منظراً مستنكراً وتعبّر بميل جذعها عن لومها .

الرجل الجالس وراء الحاجز الزجاجي ألقى نظرة سريعة على ما يحدث ، لم تتوقف عند أحد بالذات ، ثم أحنى رأسه وعاد إلى أوراقه . الأمريكي ما زال مكباً على صحيفته بوجه جهم . حشرجة غريبة صدرت من حلق الرجل . غطت الفتاة وجهها بكفيها ، وبقي أنفها بارزاً ، مضغوطاً بين الكفين . سمع غالب صوت الأمريكي وهو يقول :

ـ بحق السماء .

نظر إلى الأمريكي . رآه محدقاً . تابع نظرته فاكتشف أنها تنتهي إلى الأرض . أدرك غالب سبب الدهشة على وجه الرجل . بين حذائي الرجل الرقيقين واللامعين جداً وتحتهما رأى بركة ماء صغيرة . كانت ساق البنطلون اليسرى مبلولة ابتداء من انفراجة ساقيه حتى أسفل البنطلون ومن الطرف الأسفل تتساقط نقاطٌ سريعة متتابعة من السائل على الحذاء الأيسر والأرض . على الفور زكمت أنف غالب رائحة البول والعرق وأخذت معدته تتقلص ، وأحس بضغط على حلقه . التفت إليه الأمريكي وقال بصوت مخشوشن ولكن صادح عميق :

ـ هذا الرجل يحتاج إلى طبيب .

قال له غالب :

ـ سوف يتدبرون أمره ، . لا تقلق.

ـ «من؟»

ثم استعاد الأمريكي تماسكه وقال :

ـ أوه ، فهمت . ثم عاد إلى صحيفته .

من الوجه الذي أصبح يشبه نعل (الكريب) صوّب الرجل نظرة تعرف ناصعة البياض ، وحاول أن يبتسم . اختلج قلب غالب بعنف : «يا للشيطان ؛ أهو أنت! . . وفي لمحة خاطفة تذكر الوجه الآخر . «كان اسمه عصفور ، أليس كذلك؟» . صعد إليه الوجه من خلفية نافورة المياه التي تتوسط حوش سجن عمّان المركزي ، وشجيرات الورد الأحمر . وأخذت الصورة تتكامل : حجرات المساجين التي تحيط

بمربع الحوش من ثلاث جهات ، الأسلاك الشائكة من جهة الغرب التي تفصل ساحة السجن عن سجن النساء الذي تقع أمامه باحة مبلطة ، والسور العالي الذي يحتل جزءاً من الجانب الشرقي وتتوسطه بوابة شاهقة ، بلا باب ، تؤدي إلى دورة المياه .

من تلك البوابة ، في الساعة ٧ر٤٠ صباحاً رأى غالب عصفوراً يدخل حوش السجن ، قادماً من دورة المياه ، كان عصفوراً قصيراً ، صغير الرأس ، وهنالك ابتسامة معتذرة ، ثابتة ، لا تفارق وجهه . (كان غالب يسأل نفسه : كيف يستطيع عصفور أن يقتل رجلاً قتل عدة رجال ، كما قيل ، وهو بهذه الابتسامة التي لا تزول؟ سأل عصفور مرة عن ذلك فقال : نصيب . الأغلب إنه لم يفهم سؤاله) .

منذ أمس وجميع المساجين يعرفون أن عصفوراً سوف يعدم في الثامنة صباحاً . كثيرون ادعوا أنهم إنهم سمعوا الخبر من هذا المسؤول أو ذاك . ولكن القرينة المؤكدة كانت حين منعه مدير السجن من التجول داخل السجن ، وطلب إليه ألا يغادرالزنزانة ، ثم نزع العقال والحزام اللذين كان يسمح له باستعمالهما بشكل استثنائي ، عند ذاك انتشرت الإشاعة .

في السادسة صباحاً أعلن شاويش السجن بأنه سوف يعدم في الثامنة ، وقال له : ٩٩٪ سوف يصدر الملك عفواً عنك ، وحبل المشنقة في رقبتك .

رغبة عصفور في توديع المساجين لبتها إدارة السجن دون تردد . مر عليهم في حجرة ٢٤ وصافحهم واحداً ، واحداً . عانقه البعض عناقاً سريعاً ، ثم توقف أمامهم وألقى خطبة قصيرة . كان يدرك أنها لحظة مجده ، لحظة سوف تعيش بعده ، وسوف يذكرها الجميع دائماً . «من يستطيع أن ينسى لحظة كهذه؟» فلهذا تحدث عصفور وعينه إلى التاريخ . قال : يا أخوان ، وابتسم تلك الابتسامة البلهاء ، الغريبة . ثم أضاف ، إنه بعد (توقف ونظر في ساعته) عشر دقائق سوق يقابل وجه ربه . في حقيقة الأمر إنه مازال هناك أمامه خمسة عشر دقيقة كاملة أضيفت لها دقيقتان فيما بعد ، لأنه سمع صوت انفتاح الأرضية الخشبية ، وسقوط الجثة في الهوة في الساعة ٨ر٢٠ ، ومضى عصفور يقول إنه لهذا السبب يطلب المغفرة من الجميع إن كان قد أخطأ في حق أي واحد من الحاضرين . ارتفع صوت يقول بشجن وتسليم : «ربنا يغفر لك » ، ثم خاطب عصفوراً :

ـ أنت بحاجة إلى المغفرة يا عصفور .

قال عصفور :

ـ نعم ، أنا بحاجة إليها .

وقال ، أغفروا لي ، إذا أخطأت في حق أحد ، فبالرغم مني (الواقع إنه البارحة عصراً ، بعد أن تسرب إليه خبر أنه سوف يعدم في اليوم التالي ، أتى بغلام من حجرة رقم ٢٧ ، المخصصة لمن هم دون سن السادسة عشرة وأدخله زنزانته وضاجعه . كان الولد يصرخ ، ولكن الجميع سكتوا أمام الرغبات الأخيرة لرجل سوف يموت) .

نصح عصفور الجميع أن يبتعدوا عن الطريق التي سار فيها ، قال إن نهايتها معروفة . قال إنه قتل تسعة أشخاص . تسعة أرباب عائلات ، تيتم الكثيرون بسببه ، قال ، وبعضهم بلا سبب ، يعني لم يؤذوه . كان غالب متأكداً ، إن عصفوراً يبالغ . قال إنه نادم : أمام ربي ، وأمامكم يا أخواني نادم . وصمت . وتلك البسمة البلهاء ما زالت على شفتيه وفجأة عانق أقرب رجل إليه وهو يقول :

ـ سامحني ، سامحني!» .

ثم استدار وخرج على نحو فجائي ، غير متوقع .

عندما نظر في وجه عصفو وهو يتحدث بكل ذلك الزهو رأى الموت في وجهه . أدرك بحدس مباشر أن تلك الصفرة الكابية في ذلك الوجه هي الموت .

من باب يؤدي إلى الداخل أتى رجلان متجهمان . توقفا أمام الرجل المرتعش ، ثم ابتعدا معاً عندما رأيا بركة البول وعلى وجهيهما تعبير ضجر مصمت ، شرس . أدخل كل منهما يده تحت إبط الرجل وأمسكا به وأخذا يرفعانه ببطء . كان الرجل يقاومهما بجذب جسده نحو الكرسي ، غير أنهما استطاعا أن يجعلاه يقف .

بعيون زائغة نظر إلى الجالسين . حاول أن يتكلم ولكنه كان يحرك فمه دون أن يخرج منه صوت ، فبدا وكأنه يلوك طعاماً . حاول التملص من الرجلين بإلقاء جسده إلى الأمام . تعثر أحدهما ، ثم استعاد توازنه ، وعلى التو جذب الرجل الذي يتأرجح بعنف . بعد الخطوة الأولى استكان وأخذ يمشي بينهما .

فجأة ، انفلت من الرجلين ، واستدار وقال بصوت مرتفع ، مخاطباً غالب :

ـ ممكن يقتلوني . رافض أتعاون .

وعندما لكمه أحد المخبرين على ظهره وجذبه ، صرخ : «كمال» . وكأنه يضع

توقيعه تحت العبارة التي نطقها .

قال غالب لنفسه : لقد تعاونت في السابق يا كمال ، ولن يدعوك ترفض مواصلة التعاون» .

انطلقت شتيمة بذيئة من الداخل ـ أطلقها كمال دون شك ـ وارتفع صوت :

ـ اخرس ! ثم ساد الصمت .

كات جميع الأنظار معلّقة بالرجال الثلاثة حتى خروجهم من الباب المؤدي إلى الداخل . وظلت العيون معلقة بالباب كأنها تشهد ما يحدث في الداخل .

الرجل الجالس خلف الحاجز الزجاجي لم يبد عليه أنه أحس بما يحدث . كان مستغرقاً بأوراقه وتليفونه .

***

نودي اسمه . رغم توقعه ذلك بوغت غالب فنهض متعجلاً وسار نحو موظف الاستعلامات . اقترب الرجل من الحاجز ووضع فمه لصق الفتحة الزجاجية وقال :

ـ تفضل .

مشيراً بيده إلى الطريق الذي عبره الرجال الثلاثة منذ لحظات . كان صوت الرجل أنفياً ، وقاطعاً . دخل غالب الباب فرأى مخبراً قاتم النظرة يقف قريباً منه . عندما اقترب منه غالب أدار المخبر ظهره وسار ، فتبعه . صعدا عدداً من الدرجات تنيرها نوّاسة صغيرة ، ثم اتجها يساراً إلى صالة واسعة تشكل مدخل الوزارة الرئيسي . عندما رأى المصعد توقف أمامه ولكن المخبر أخذ يصعد السلم فحذا حذوه . صعدا ثلاثة أدوار . أرهقه الصعود وانبهرت أنفاسه ، فأخذ يشم رائحة المكان العتيق . في الدور الثاني شم رائحة قهوة . أمام أحد الأبواب في الدور الثالث توقف المخبر ودق الباب بقبضة يده دقات لا تكاد تسمع . كان هو يختنق ، وأحس بجسده مبللاً بالعرق . فتح المخبر الباب بحذر وأطل في الداخل برأسه فقط ، ثم دفع الباب ودعاه إلى الدخول .

كانت حجرة صغيرة رغم ذلك ، ففيها مكتبان ودولاب . وكان الرائد يرتدي الملابس المدنية ، يجلس خلف أحد المكاتب ويقرأ صحيفة . عندما دخل غالب رفع رأسه إليه ، ثم نهض بسرعة ووضع الصحيفة فوق المكتب . لاحظ غالب أن ذراعيه

طويلتين طولاً مفرطاً . دار حول مكتبه ، وأفلت من المسافة الضيقة بين المكتبين ببراعة ، واتجه إلى حيث يقف هو قرب الباب . عجز عن فهم الداعي لهذا كله ، فتوقع أذى . كانت هذه هي المرة الثانية التي يراه فيها . المرة الأولى كانت قصيرة ـ مجرد جلوس أمام مكتبه وشرب فنجان قهوة في انتظار وصول ضابط آخر ـ لدهشته البالغة أحاطت به ذراعا الضابط وجذبه إليه وقبّل خديه على التوالي . فرأى غالب نفسه مضطراً أن يفعل الشيء نفسه ، ولكنه لسبب غير مفهوم رأى نفسه يقبل الضابط في أذنه . أنهى الضابط العناق . أمسك بكتفي غالب بيديه وأخذ يحدق في وجهه دون أن ينطق بكلمة ، تاركاً للصمت أن يعبر عن كل الاشتياق الذي يكنه . استدار على نحو فجائي وعاد بالحركات الرشيقة نفسها إلى مكتبه وجلس .

كان غالب واقفاً يفرك يديه ، مرتبكاً . قال له الضابط بلهجة حماسية :

ـ العفو يا أبو غالب ، تفضل اقعد! .

ثم دقق النظر في غالب الذي جلس ـ كانت عيناه خضراوين واسعتين ـ وقال له وهو يبتسم ابتسامة عريضة خجلة :

ـ سيادتك ، يعني ، لا مؤاخذة ، تأخرت . . .

وترك الجملة معلقة ، ثم نظر إلى الساعة في معصمه وأراها لغالب وقال :

ـ تلت ساعة يعني .

وابتسم . كانت له أسنان جميلة .

رد غالب أنه ليس مسؤولاً عن التأخير ، فقد أتى قبل الموعد بربع ساعة على الأقل ، كان ينتظر طيلة هذه المدة ، هذا بالإضافة . . ثم توقف . فما زال مبهور الأنفاس .

انتفض الضابط واقفاً بمرونة ورشاقة وأخذ يزعق بالمخبر :

ـ إزاي تسيب سعادة البيه ينتظر ساعة تحت ، أنت . . !

كان اندهاشاً حقيقياً ذاك الذي انطبع على وجه المخبر . رفع يديه المسترخيتين إلى جانبه وأخذ يديرهما ببطء ، وقد سقط فكه ، وقال :

ـ ما سيادتك . . !

وصمت دون أن يبدو عليه أنه أكمل ما يريد قوله ، وأخذ يطالع الضابط بنظرة زائفة ، وفم مفتوح .

قال الضابط :

ـ إنت مش عارف البيه يا . .

ثم رأى غالب يبتسم ، فعاود الجلوس وابتسم هو الآخر ابتسامة حلوة كشفت سنه الحقيقية : مازال شاباً صغيراً .

قال الضابط وكأنه يواصل حديثاً سابقاً :

ـ وبتشرب إيه؟ .

ـ شاي .

احتج الضابط . قال إن القهوة والشاي سموم ، وطلب منه أن يسمح له أن يختار هو له . كوكا كولا ، أولاً (قال للمخبر : «ساقعه قوية ، فاهم؟») ثم ينسون

انصرف المخبر ليحضر المشروبات وأصبح الضابط كثير الكلام . واحد من أصحابه دكتور «دكتور كويس قوي ، فاتح عيادة قريب من هنا . في باب اللوق ، وأخرى في السيدة زينب ، دكتور إنسان يعني » قال له «الينسون» مفيد ، له فوائد كثيرة . ابتسم وأضاف :

ـ فوائد خاصة للمتزوجين .

ثم قال إنه يفيد الأعصاب ، خاصة للذين يمشون كثيراً .

وانتقل فجأة إلى معاتبته لتقصيره في زيارته . قال إنه هو نفسه فكر أن يزوره في بيته ـ إنهما صديقان ، إليس كذلك ؟ ـ ولكنه قدر أن هذه الزيارة قد تحرجه نظراً لأنه عازب ويسكن وحيداً . ثم نظر إليه والضحك يملأ وجهه ، ثم قهقه ، وقال :

ـ يا بختك يا عم . . نفدت بجلدك .

ثم مد يده ومررها على يد غالب . كانت أصابعه طويلة حساسة ، وملمسها حريرياً ، اقشعر جسد غالب وأبعد يده ، قال الضابط :

ـ بيني وبينك العزوبية أجمل شيء في الدنيا ، أوعى يا غالب ـ بكلمك كصديق ، يعني ـ أوعى تطب وتتجوز .

أصبح وجهه جاداً ، ثقيلاً .

ـ أوعى .

تفرس في يد الضابط ، وخطر له أن يسأله إن كان متزوجاً ، ولكن حدساً داخلياً حذره من رفع الكلفة معه . أخرج منديله وأخذ يجفف وجهه ثم أدخله تحت ياقة القميص وأخذ يدور به حول عنقه وهو يقول لنفسه : «أنا أعلم أن أحداً لم يكن يتتبعني ظهر هذا اليوم . ولكنها ثرثرة المقاهي» وقال :

ـ جو فظيع .

قال الضابط :

ـ حر .

ـ يا ريت حر بس . التراب ، التراب أشنع حاجة ، والرطوبة . .

قال الضابط :

ـ الحر طبعاً ، والناس سخنه . . .

وقهقه ثم أضاف :

ـ ما انت فاهم كل حاجه .

لقد تجاوزت تلميحات الضابط الحد المعقول . ولم يكن غالب غافلاً عن التهديدات الخفية التي تكمن وراء هذه الدعابات الفظة .

جاء المخبر بالطلبات ووضعها على المكتب وانصرف ، وهو يبتسم بغموض . قدر غالب أن المخبر أدرك اللعبة التي كان يلعبها معه الضابط وعبر المسافة الفاصلة بين المكتبين ووقف وراء غالب . أمسك بكتفيه وأخذ يضغط عليهما . كان يحس بأنفاس الضابط على مؤخرة عنقه . وأخذ الضابط يتكلم : وإنت باين مش حِمل هزار . بضحك معاك وإنت كده . . يعني . . . .

توقف عن الضغط على كتفيه ، وقال إنه ، بهذه المناسبة يود أن يسأله عن رأيه في أحداث تشيكوسلوفاكيا الأخيرة ، ولكنه سوف يؤجل ذلك إلى مرة أخرى . «باين عليك تعبان النهارده شويه . ربنا يديلك العافيه» . ثم أطلق ضحكة حاول أن يجعلها صاخبة . . على فكرة ، لماذا لا يكونان صديقين؟ بالطبع يجلسان في كازينو ، أو عنده

في البيت ؛ يعني يتحدثان فقط . . هل يعاني صعوبات مادية؟ يسأله ، يعني ، كصديق ، لا يأخذ كلامه على محمل آخر . عليه أن يعتبره كأخ . ما رأيه في أحداث تشيكوسلوفاكيا؟ آه ، نسي أنهما اتفقا على تأجيل ذلك إلى مرة قادمة . . لماذا لا يشرب الكوكا كولا ؟ .

قال له غالب :

ـ إنت مش سايبني .

ضحك الضابط وقال :

ـ بترطب .

استدار غالب نحوه بعنف وقال :

ـ كفاية يا حضرة الرائد .

توقف الضابط وبدا عليه أنه فوجئ ، وقف مستقيماً ينظر إلى غالب بصمت ، ثم سار ببطء إلى مكتبه وجلس . مرت فترة صمت شرب غالب خلالها الكوكا كولا ، ثم تناول كباية الينسون ، وقال للضابط :

ـ أنا عارف إنك حاتتكلم عن الفوائد الطبية والجنسية للينسون .

قال الضابط وهو يلقي نظرة تائهة ، وبصوت وقور ، وشبه ملول :

ـ أبداً .

ثم أحنى رأسه وأخذ يعبث بقلم حبر جاف . كان من الواضح أنه يود إنهاء المقابلة . وضع غالب كباية الينسون على الصينية قبل أن ينهيها وعاد بكرسيه إلى الخلف متأهباً للانصراف . قال له الضابط دون أن ينظر إليه :

ـ كمل الينسون .

وعندما نهض غالب ودعه ببرود وهو يقول :

ـ فرصة سعيدة .

القهر

فكّر : «عدد من كؤوس البراندي ، هو ما احتاج إليه» . في الخارج ، شارع نوبار مكان شبه مهجور . بمصابيح كهربائية مفروشة في جسد الظلمة . سار بجوار سور الوزارة . يشعر أنه ما زال في قبضتها . إحساس الكآبة والقهر ما زال كما هو .

انعطف يساراً في شارع ريحان : ظلمة مهولة تجعله أشبه بحديقة أغلقت أبوابها . حاول التخلص من إحساس الملاحقة ، أقنع نفسه بذلك ، ولكن ظهره ظل متصلباً بعبء عين تترصده ، بانتظار ضربة تأتيه دون توقع . ثم أخذ يحلم بالإسكندرية . رائحة البحر ، والنسيم البارد ، يبدأ إحساسه بهما منذ أن يصل مدينة كفر الزيات . استعاد صورة الذي يفصله الشارع عن البحر حيث رصت طرابيزات المطعم القليلة ، والبحر يمتد أمامه حتى الأفق . عند التذكر ازداد إحساسه بالاختناق ، وتحول إلى احتجاج محبط (مرسي ذاك . . يوم واحد يا بيه ، أروح اسكندرية وأرجع على طول . . يوم واحد بس . . إنه الآن يفهمه تماماً . .) .

من الظلمة الأشد كثافة الكامنة تحت أغصان الأشجار الضخمة العقيمة التي تتدلى من فوق الأسوار وتكاد تلامس أرض الرصيف ينبثق كيان محدد ، كأنه تجسيد لوهم الملاحقة . كيان محاط بالأسرار ، يتقدمه الخوف والعنف كمجال مغناطيسي . تقابل عيناه عينين تنضحان بالتوجس ، تبثان فرعاً ومفاجأة . يتقارب المجالان ، يتبادلان شحنة من العنف ، ثم ينفصلان مسرعين .

انتقل إلى الرصيف الآخر . شارع يوسف الجندي ، البيوت العتيقة حيث كان يسكن منذ أربع عشرة سنة . يحن الآن إلى حجراتها الواسعة ، وإلى النساء الشبقات اللواتي يؤجرن الحجرات المفروشة ؛ واحدة منهن يذكرها الآن . كانت إيطالية . يذكر الأثاث ذا الطراز العتيق ، ورائحة الخشب الآرو . . كل ذلك انتهى الآن انتهى . السلالم الرخامية العرضية ، والأبواب الخشبية بزخرفتها ، وحدوة الحصان ، وحزمة

الثوم المعلقتين على الباب . مسرح الفنانين المتحدين ، إعلان كبير : أربع ساعات من الضحك المتواصل ، وصورة عادل إمام يفتح فمه ، ويكشف عن أسنان كبيرة بيضاء بينها خطوط حمراء . ثم الجامعة الأمريكية ، باب قاعة إيوارث العالي مغلق ومظلم ، ثم سور الجامعة : أعمدة نحيلة ، طويلة ، مربعة من الحديد ، تكسوها وتملأ الفراغات بينها نباتات زحافة فتحجب الرؤية .

دار يميناً وأصبح فجأة في عالمه : عربدة الأضواء في ميدان التحرير ، والحركة المهتاجة ، العصبية ، والوجوه المكدودة التي تنتظر الإتوبيس . . والمقاهي المألوفة : أسترا ، قهوة البرابرة ، ايسائيفيتش ، مقهى وادي النيل ، محلات العصير والسندويتشات ، الإعلانات العملاقة المطفأة النيون بسبب حالة الحرب ، مقهى وادي النيل ، نافورة الميدان ترتفع عامودياً ثم تسقط على شكل قوس من ذرات الماء .

زالت عنه شارة الغربة ، واختفى التوجس . ولكنه قادم من رحلة طويلة ، عناؤها يمضّه .

بضعة كؤوس من البراندي وجلسة الأصدقاء بعد معاناة ألغت جميع الاعتراضات وسوف يعود إليه إحساسه المرح بالحياة ، وجعل المهانة التي تعرض لها مجرد ذكرى . . دخل شارع سليمان باشا . سجل في ذاكرته : ساعة الميدان لا تعمل ، وأضواء ذلك الجزء من الشارع الذي يتقاطع مع شارع البستان أطفئت . السائرون قلائل . تخطى شارع البستان . مكتب شركة الطيران العربية ما زال يعمل ، ولكن لا زحمة . موظفة جميلة تطالع المارة من خلف الزجاج ، وموظف مكب على شيء يكتبه وعدد قليل يجلسون على الكنبات المحاذية للجدار الزجاجي . مكتب شركة الطيران التشيكية مضاء وفتاة تجلس وحيدة تقرأ أوراقاً . توقف أمام محل العصير ، فكر أن يشرب كوباً من عصير القصب ، ثم تذكر أنه سوف يشرب براندي ، فواصل السير .

توقف أمام مقهى ريش . تيار الهواء المندفع من الحارة جاءه مثقلاً بالغبار . لا أحد يجلس في الخارج . أين ذهبوا؟ سأل نفسه . كان يشعر أن أصدقاءه هجروه في ساعة المحنة . هم الذين سوف يشكو إليهم ويستريح . دفع الباب الزجاجي ودخل إلى المطعم . المكان يكاد يكون خالياً عدا رجلين يجلسان على البار ، ورجل وامرأة يتناولان طعامهما في الداخل . اقترب منه الجرسون يوسف وقال :

ـ جايين حالاً . تفضل أقعد .

وعندما رآه ما يزال واقفاً ، أضاف :

ـ الأستاذ إبراهيم ساب كتبه هنا وقال إنه راجع . اتفضل أقعد .

شكره وانصرف .

الشارع الذي فيه الأتيليه مظلم ولكنه رأى أضواء النادي منعكسة على بابه الزجاجي . واجهته اللوحة المثبتة في مواجهة الداخل : «ناد خاص للأعضاء فقط . نادي الأدباء والفنانين التشكيليين »، ولكنه في واقع الأمر يضم أيضاً عدداً من ممثلي وممثلات المسرح ، والمخرجين ، وبعض العاملين في السينما .

الصالة الطويلة ، ذات جدران خشنة قاتمة . وما يفترض أنها أضواء غير مباشرة أعطت المكان طابع بار رخيص يستعد للإغلاق . الجو معتم بالتراب ودخان السجاير . منافذ الهواء مغلقة والحرارة لا تطاق . اتجهت نحوه العيون عندما دخل : عيون صامتة ، مستنكرة .

الفوتيلات التي على يمين الداخل يجلس عليها اثنان ، رجل وامرأة ، صامتين . مدربة الباليه تجلس وحيدة ، سمينة ، في أقصى الصالة عقدت ساعديها على بطنها ، ومستغرقة بنظرة تائهة . تحددت النظرة والتقت بعينيه فحياها بانحناءة من رأسه فردت عليها بابتسامة مكثت على فمها بعض الوقت . حسن العجاتي يجلس في الحجرة التي على يسار الداخل متمدداً على دكة ضيقة وقد استقرت قدماه على كرسي خشبي له قاعدة من القش . كان مستغرقاً في النوم وقد علا شخيره بإيقاع منتظم . أنور كامل يجلس على طرابيزة في زاوية الحجرة الداخلية يكتب ويدخن . رفع رأسه فسقطت نظارته الطبية على طرف أنفه . حنى رأسه بالتحية دون كلام . ثم تفحصه قليلاً وعاد إلى أوراقه .

جلس على الفوتيل المجاور للمرأة . حياها فردت باقتضاب ، خرج عم أحمد من المطبخ وقال :

ـ قرشين صاغ زياده .

قال غالب :

ـ بتاع إيه؟ .

ـ البراندي .

ثم طلب من عم أحمد أن يأتي له بكأسين براندي ، كل كأس لوحده . أتى عم أحمد بهما على صينية خشبية ومعهما طبق ثلج . شرب كأساً منهما دفعة واحدة ، وملأ الثاني بالثلج . دار رأسه قليلاً وأتاه إحساس بالغثيان أعقبه انتعاش فوري . قال للمرأة الجالسة بجواره والتي كانت أقرب أصدقائه إليه ، ثم فترت العلاقة بينهما لأسباب لم يحاول فهمها :

ـ إنتي النهارده مبتهجة بدرجة تفرس .

قالت دون أن تنظر إليه ، أو أن يبدو عليها أنها تخاطبه ، إنه البارحة ، على هذا الكرسي الذي يجلس عليه نفسه ، وفي الوقت نفسه ردد الفكاهة نفسها ، الكلمات نفسها .

حاول أن يتظاهر بعدم الاهتمام رغم أن الإهانة نفذت إليه وفاجأته كصفعة غير متوقعة . قسر نفسه على الضحك وسألها إن كان قد فعل فعلاً ؟ ثم أضاف : أليس هذا برهاناً على أن الأرض كروية؟ .

لم ترد . .

طال الصمت مكدساً الحواجز بينه وبين الآخرين . بدا له أن هؤلاء الجالسين ، وقد اختاروا الصمت ، فإن مضيهم فيه هو انتصار مستمر ضده . . لقد أخذ جانب أنصار استمرار الحديث وها هو يقف وحده . وجاء كلام المرأة مؤكداً لذلك ، إذ قالت :

ـ فيه واحد طلبك بالتليفون .

وأدارت وجهها . سألها عن الذي كلمه ، فقالت إنها لا تعرف ، عم أحمد هو الذي رد على التليفون . فكر : «لماذا لم ترد على التليفون؟ لقد كان يعتقد أنها صديقته» . نادى عم أحمد وهو يشك أنها تعرف المتكلم ولكنها لاتريد أن تقول .

قال عم أحمد إن ذلك حدث بالفعل وقد نسي أن يخبره . كان ذلك قبل نصف ساعة تقريباً ولكنه نسي أن يخبره ، قال له إن الأستاذ قد يأتي هذه الليلة . لا ، لم يذكر اسمه «والا باين قال ؟ مش فاكر» .

انصرف عم أحمد رغم أن غالباً لم ينته من أسئلته بعد . تبعه إلى المطبخ . طلب

كأس براندي جديداً وطبق سوداني وسأله إن كان الذي كلمه رجلاً أم امرأة . رد عم أحمد وهو يصب له البراندي في المقاس المعدني ويفرغه في الكأس إنه كان رجلاً .

عاد وهو مصمم أن يحطم حاجز الصمت . وضع الكأس أمامه وقال ، لماذا لا يجلسون في الحديقة ، فالغبار ـ وأشار بيده إلى سقف الصالة ـ موجود هنا أيضاً وبكميات أكبر من الخارج .

قالت دون أن تنظر إليه إن بإمكانه أن يجلس في الخارج إذا أراد . سألها أن ترافقه ، قالت : «لا» قاطعة .

ـ ليه؟ .

سألها . فرجته أن يكف لأنها مصابة بالصداع .

نهض واتجه إلى التليفون ، وأدار رقم صديقه الأمريكي . دق الجرس فترة طويلة قبل أن يتلقى الرد . كان الصوت الذي على الطرف الآخر غريباً ، مخشوشناً ، لاهثاً ، فقدّر أنه صحاه من النوم .

قال :

ـ هالو . . مساء الخير . . هل صحيتك من النوم؟ .

ـ على نحو ما . من؟ .

كان عصبياً . وكان غالب يعلم أن الآخر عرف صوته . فقال له :

ـ ماذا تعني بـ «على نحو ما؟» .

رد الآخر بصوت قاطع :

ـ غباؤك لا شفاء منه .

ـ آسف للإزعاج . شكراً .

ـ لا داعي للشكر .

بعد فترة صمت قصيرة تساءل الأمريكي بصوت رقيق ، شاك ، إن كان غالب هو الذي يتكلم ، ثم أضاف :

ـ كيف أمورك؟ إنني شديد الأسف ، ولكنه هذا الجو اللعين .

مرت فترة صمت أخرى ، ثم قال :

ـ دعنا نراك».

أعقبتها فترة صمت ، ثم أضاف :

ـ هالوا؟ فلنتغدى معاً غداً.

قال غالب :

ـ شكراً ، إنني مرتبط .

وأنهى الإتصال .

عاد إلى مكانه ، متحاشياً أن يلتقي بنظرات الآخرين لأنه تصور أنهم سمعوا ما قاله الأمريكي . ود أن يخرج ولكنه تصور أن ذلك معناه الهزيمة أمام جدار الصمت والرفض المحدقين به . ثم خطر له أنه من المستحيل أن يكونوا قد سمعوا ما قاله الرجل له في التليفون . جعله ذلك يستعيد تماسكه بسرعة . قال بمرح وهو يحس أنه خفيف الظل للغاية ، ودون أن يخاطب أحداً بالذات، إنه يحب هذا الحر ، رغم أنه من سكان الجبال . الغبار فقط . . هذا الغبار . . يبدو أنه مصاب بالحساسية من تراب الخماسين هذا ، يجعله يشعر بضيق التنفس وبالتهاب الحنجرة .

ابتسمت مدرسة الباليه ، فقال لها إنه ليس من مصر . . جبلي حقيقي هو . هناك الربيع ربيع .

هزت رأسها وابتسمت ، دون أن تقول شيئاً . ظل ينظر إليها متوقعاً أن تقول شيئاً في النهاية ، ولكنها أحنت وأخذت تتأمل أصابعها .

أحس أن كلماته قد أحدثت ضوضاء غير مهذبة . تولاه خجل وأخذ جسده يرشح بالعرق . أمسك كأسه ونهض . «لماذا وقفت؟» شعر بالورطة . ماذا يفعل بنفسه الآن؟ كانت العيون تتابعه فشعر أن عليه أن يحدد هدفاً لوقوفه ، أن يهزمهم بجدية هدفه . سار نحو التليفون. لم يحدث ما تتوقعه العيون : ليس الحديث بالتليفون أمر يستحق الاهتمام.

كان غاضباً حين أمسك سماعة التليفون، سيلقن ذلك الأمريكي درساً . وتشكلت الكلمات في فمه وهو ينتظر مجيء الحرارة في التليفون : «ماذا تخفي ، بحق الجحيم، يا ابن الزاني بأمه؟».

ثم ، والسماعة ما تزال في يده ، كانبثاقة الخلق عند فنان بعد أن توقف طويلاً عند

نقطة لم يستطع الانتقال منها .. مثلما جاءته صورة الحجرة ذات الضوء الداكن الأحمر ، والتي تشبه هالة احتراق . الأباجورة محاطة بغشاء أحمر ، حريري ، ترسم دائرة من الضوء الخافت في سقف الحجرة وقد تقاطعتها ظلال الأسلاك المثبتة فوق الأباجورة . ويستعيد في خياله صورة المرأة ، جالسة . خط الضوء المنبعث من الجزء الأسفل من الأباجورة يعبر ثدييها ، ويهبط إلى النصف الأسفل من الجدران الزيتية اللون ، والفوتيلات المنجدة بقطيفة بلون البن المحروق ، نحو قاعدة الشباك ، ثم أحد أبواب الحجرة الكثيرة . وهي ترتدي ذلك الروب الحريري الأزرق ، يكشف بين الحين والحين عن ساقين فخمتين ، ناصعتين، وعن ركبتين لهما بريق . ووجهها خارج دائرة الضوء يشتعل بلهب داخلي ، قد يظنه من لا يعرفها أنه حمرة الخجل . والجو يعبق برائحة عطر كثيف قديم ،كأنه صندوق عطارة ذلك الصندوق البيضاوي الشكل الذي كان يدور به بائع العطور في طرقات القرية : عندما ينكشف غطاؤه تبدو تلك الأخشاب الرقيقة في تقاطعها مكوّنة فجوات ، متساوية الحجم ، على أرضية من الخشب . وفي كل فجوة نوع مختلف من العطر . ترفع الطبقة الأولى فتلقى مثيلة لها تحتها ، وأخرى ، ورابعة وخامسة . عطور المسك والعود والعنبر والبخور بمختلف أنواعه وعطور كثيرة غيرها نسي اسمها واحتفظت ذاكرته برائحتها . . وفكر : «هكذا كانت الإسكندرية بالنسبة لمرسي هذا الصباح : عودة إلى الماضي وهجرة في الزمان والمكان».

بوضوح فائق ، على خلفية من خبال اللهفة والرغبة رأى يدها تمتد بطيئة في جوف ذلك السكون اللدن لتمسك سماعة التليفون . سمع صوتها محايداً :

ـ هالو ، مين ؟ .

ـ غالب .

ثم سمع صوتها وهو يتلوّن بالمعرفة : «أهلاً غالب!» . قالت له إنه سكران . . قال إنه حزين . . فترة صمت ، أضاف بعدها أنه حزين وخائف . . أحس بالعرفان لأنها لم تسأله عما يخيفه ، لأن لها هذا الذكاء . . قالت ، حزين فشربت . . قال : لست سكراناً ، أقسم ! . . ولكني حزين وهذا الجو الخماسيني يخنقني ، يقتلني ، يجعل التنفس مستحيلاً . . يعني ، صعباً جداً . . قالت إنها تعلم . . . قال : هذا الجو الخماسيني القاتل يجعله يشتاق للبحر ـ ولمع البحر أمام عينيه كبلّور أزرق ـ يغطس فيه .

سمع ضحكتها غنية . فاجرة ، فأدرك أنها ظنت أنه يعنيها بالبحر . على الأغلب ، أن ظنها كان في محله .

***

تلك العزلة والتأمل الطويلين ، والابتعاد عن تفاصيل الحياة اليومية في هدير الكابوسي جعلها تبتعد عن أساليب المرأة التي قتلها التخصص وعصر تقسيم العمل . امرأة من عصر مضى وعصر لم يأت بعد تحتوي في داخلها الحياة بكلياتها ، امرأة في سلام كامل مع نفسها ومع العالم . المرأة الشاملة . . بيتها عالم متكامل . لم تعد بحاجة إلى امرأة تغسل ثيابها لأنها تملك غسالة كهربية ، ولا تبعث بملابسها للمكوجي، ولا تتعامل مع الخياطة لأنها تخيط ملابسها بنفسها . . تملك كل المهارات وكل الأجهزة التي تجعل البيت مريحاً . رغم هذا فبيتها يحتفظ بطابع القصور القديمة : الكومودينو البني ، الغامق ، المطعَّم بسن الفيل ، أدوات الزينة النحاسية ، مزهريات كريستال رقيقة طويلة من صنع بوهيميا . ثيابها ذات الطراز المملوكي الموشاة بالقصب ، ذات الأكمام الواسعة . . على الجدران علقت أقنعة إفريقية من خشب الأبنوس ، رؤوس غزلان ، سيوف فضية أثيرة ، لوحات قديمة للقاهرة المملوكية . . امرأة فخمة ، فاخرة ، معجونة بقطرات الندى والعسل . . وهي المرأة الكلية : الأم والعاهرة ، الأخت والصديقة ، المتحررة وأسيرة بعض الأفكار التي لا تحيد عنها .

وفي ذلك الزحام : زحام الخارجين من دور السينما المكيَّفة الهواء ، المسرعين لاهثين إلى بيوتهم ، المتعاركين على اصطياد تاكسي يوصلهم . . زحام العاملين المربوطين بالشوارع المتربة ، التي ذاب إسفلتها من شدة الحرارة ، التي تختزن الحرارة طيلة النهار لتبثها في الليل . . زحام الواقفين على أرصفة عبور المشاة منتظرين ، متدافعين ، حتى يضاء الضوء الأخضر ليعبروا إلى الرصيف المقابل ، المهرولين خوفاً أن تتحول الإشارة إلى اللون الأحمر فيدهمهم طوفان الفولاذ الملتهب ، المتوتر ، الدموي . . وزحام الطوابير أمام شبابيك التذاكر وفي الجمعيات الاستهلاكية وفي البنوك وأمام محلات باتا لبيع الأحذية . .

في ذلك الزحام . .

كانت تجلس في حجرة من حجرات بيتها الواسعة ، تضيئها قناديل نحاسية مطعمة بالياقوت والزجاج الأخضر تقرأ في كتاب الأغاني ، أو تراجع بعض فصول

الإلياذة ، أو تجلس غارقة في التفكير ، أو تسير على كورنيش النيل تحتمي بشجرة من الأضواء التي تضايق عينيها ، أو تجلس على شرفتها الواسعة المعتمة ، تشاهد سطح النيل المسنن بلمعات الأضواء البعيدة . . النيل الأسود الجوف . قالت له مرة إنها تشعر أحياناً أن النيل حيوان مهول له جسد مبرقش ، خاصة عند الغروب . . يبدو لها بوجه حزين ، حزين . . . . كلماتها ولمساتها المقتضبة ترعش من يجالسها رغبة .

تحب ندى الليل على وجهها ، ترفع كفها تمسح الطل عن وجهها وتقول : أحب أن أشعر به على وجهي .

***

الجو الكثيف بروائح القرفة والبخور والفل ندي له ملمس التيارات الهوائية في القلاع القديمة . في أعلى الجدار الذي يفصل حجرة الجلوس عن الحجرة الأخرى شباك طويل ، أعلاه نصف دائرة ، تنساب بعد ذلك على الجانبين في استقامة حتى تبلغ نصف الجدار . الشباك مصنوع من زجاج معشق ، خائر الألوان ـ زرقاء وحمراء وخضراء وصفراء . تضيء في العادة الحجرة المجاورة فتسبح الحجرة في قوس قزح من الألوان ـ ألوان تبدو كدخان البخور هائمة ، متماوجة بلين . تنظر إلى الشباك فتتخيل وراءه حجرة النوم بقنديلها النحاسي المخرّم . ستائر الباب المؤدي إلى الشرفة نبيذية اللون ، ثقيلة تهبط حتى تصل إلى الأرض . على الجدار الذي يكوّن زاوية قائمة مع الجدار الذي فيه الشباك قناع إفريقي من الأبنوس طويل جداً ، ونحيل . الأنف يشق ، ويفصل تجويف العينين حتى ينتهي قرب أعلى الجبين ويندغم به ، ويهبط مضغوطاً ، دقيقاً ، إلى أكثر من ثلاثة أرباع طول القناع . ثم ينتهي بانفساح فتحتي الأنف حتى تصبحان بعرض الفم ، والفم بعرض القناع ، غليظ الشفتين ، حزين كحزن الأفواه الفرعونية .

يدقق في نهاية الأنف ـ دائماً يفعل هذا ـ ليرى الكرتين اللتين تكونتا لتكونان فتحتيه . فيتذكر صوراً رآها لفنانين معاصرين تقلد هذا القناع .

كانت هي جالسة قبالته على الفوتيل الكبير المنجد بقطيفة بلون البن المحروق ، على يمينها الكومودينو . تلقي رأسها باسترخاء على مسند الفوتيل وتطالعه بعينين نصف مغمضتين . شعرها الذي بلون العسل الغامق ينفرش متماوجاً ، متجاوباً مع حركة الرأس ، على المسند . ملمسه في يديه ـ اشتياقه إلى أن يتخلله بأصابعه تحوّل إلى

ملمس ـ ينزلق الروب الحريري عن ساقيها فلا تعتني برده ، يتابع غالب حركة الروب المتأنية ، الناعمة بلهفة . ثم يسقط كاشفاً عن ساقين ساطعتين ـ يفصل بينهما شق يضيق حتى يتوه في ظلمة قميص النوم القصير الذي وشيت أطرافه بالدانتيل الأزرق . اشتهى أن يغفو كطفل يضع رأسه فوق ذلك الحضن الوافر ، ويداها الكبيرتان بأناملهما الطويلة تداعبان شعره .

ويصمتان ، وعيناه معلقتان بذلك الشق المظلم الذي يختفي تحت قميص النوم . ثم يخجل من نفسه ، يعود إليه شيء من وعيه .

الجدار الذي خلفها عامر بالمنمنمات الشرقية ، وصور صينية تتخللها مساحات بيضاء ، خطوط تشكل وجوهاً مدورة كوجوه الأطفال ، عصافير ذوات ريش صارخ الألوان . . صور عربية قديمة للواسطي . . . وخارج هذا الجو ، بعيداً عن حجرتها هذه، والشرفة الفسيحة المعتمة ، والستائر الثقيلة والمسيرة تحت ظلال الأشجار . . خارج هذا لن تكون هي ذاتها ، لأن عالمها يكملها . لن يكون لديها هذا العطاء الكثيف ـ الحنو الداعر ـ ولن يكون لساقيها ذلك الشموخ وتلك الاستدارة .

سألته ماذا به ؟ ومدت ذراعها إليه فنهض وأمسك بيدها وجلس قريباً منها . ضغطت يده وقالت إنها ساخنة ، فقال لها إنه ذلك الحر اللعين .

انفرجت يدها ، واقترب وجهه ودارت اليد بالوجه مهدهدة فاجرة . قالت إنه مترب . فقال بهمس خشن ، ذلك بسبب الخماسين . أعادت يدها وظل وجهها قريباً . أغمضت عينيها واسترخت . وجهها انتظار مبهم . . شفتاها الممتلئتان تنفرجان قليلاً وتكشفان عن قطاع طولي ناصع من أسنانها . نار تشتعل تحت سطح وجهها الرقيق ، النقي الذي يشبه بشرة طفلة في العاشرة من عمرها . الروب يكشف عن أعلى النهدين وعن انفراجاتهما . . في هذا الذقن المرتفع قليلاً إلى أعلى ، والعنق الطويل الشامخ ، الحساس الذي يقدم نفسه للذبح ، وهذا النحر الذي ينساب حتى منبت الثديين ينبض برقة ، ويحمل دعوة مبهجة للشفتين ، دعوة مفهومة ومستعصية معاً . . . في استرخائها ذاك عذاب أم في حالة ولادة ، رضوخ للرجل يعلوها ويضع ثمرته في رحمها . فيه أيضاً إغواء فاجرة ـ نداء عاهرة شبقة تمنح نفسها للجميع وتظل تطلب المزيد .

مد يداً مرتعشة . بأطراف أصابعه لمس الوجنتين ـ لمسة المتعبدين لقبر الحسين ـ

برفق دار بسبابته حول فمها المكتنز . لمس الشفتين برقة فاضطرب تنفسها ، وأحس وكأن تلك اللمسات تنتقل إليه : كان يعيش فعله ورد فعلها . ثم زحفت أصابعه إلى تلك المناطق الحساسة ، المحرمة : إلى عطفي الوجه والأُذنين . . ثم الرقبة . توقفت أصابعه عند النحر يتسرب إليه نبضه ليسري في جسده كله . . . ثم فجأة وبيأس الرغبة المتاثة احتوى وجهها بين كفيه . اقترب منها ليقبلها . تنفس بعمق وانتفضت . فتحت عينيها وكانتا قريبتين من عينيه . لم يجرؤ أن يقترب . حاول أن يقرأ العينين ، توقع أن يقرأ فيهما قراراً ما ، إيحاء ما . . كان ذلك شديد التعقيد ، ومضتهما الخائفة ، الراجية تراوغ الفهم والوضوح . ظل منحنياً يسأل ويطالب ويضرع أن يجاب . ارتفع كتفاها وابتسمت له ، وعيناها كقطيفة سوداء ، تشعّان ضوءاً قاتماً ، وقالت له :

ـ بتشرب قهوة؟ .

ود أن يصرخ . تكفيه تلك الإشارة لكي يتوقف . يتصلب ثم يتراجع بساقين خشبيتين ثم يجلس على الأرض . تنهض بحيوية . يشتعل فرح أحمر باهر . تقف ، تعلوه ، شامخة ، وافرة ، صلبة . «كيف احتفظت برشاقتها ، بلدونة الجسد وطواعيته تلك المستكينة في الظلمة ، عدوة الشمس ، التي لا ترى في المدن إلا ريف العالم وأنهاره وشجره ! . . في تلك المشية المعتدة الثابتة أرى رجولتي تهدر . . اهتزاز عجيزتها الموقع ، المتصل ، المنقطع ، هو إيقاع الدم في شراييني ، نبضات قلبي . . . » .

وبدت تلك كصلاة .

ثم بدأ يركد ويأسن ويلعق جروحه .

انصرافها إلى المطبخ بدا كالهجر . فكر بقهر : لن تنتهي أبداً من صنع هذه القهوة . أعرفها . ثم وهو يصغي بجسده ، يشعر بالاشمئزاز منه ، قال لنفسه : «إن ذلك يساوي طردي من بيتها . علي أن أنصرف» .

ثم عادت ـ ذهبية ، متألقة بفرح وضحك ، إيقاع نهديها وهي تسير يعده بحنان يتخلله كنسيم منعش ـ . وكانت تحمل صينية فوقها كنكة نحاسية ذات مقبض خشبي ، وعلبتا البن والسكر ، وفنجانان . بنظرة يقظة ، جادة ، وضعت الصينية ، ومدت يدها وراء الكومودينو فاشتعل موقد كهربي صغير . نظرت بحياد وتساءلت :

ـ بتشرب ع الريحه؟ .

«ما أهمية ذلك؟» قال لنفسه . أومأ برأسه وقال :

ـ أيوه .

وضعت الكنكة على الموقد وأضافت السكر والبن وأخذت تحركهما . يراقبها وهي مستغرقة تماماً في صنع القهوة ، وهو متمدد على الأرض ، مذل بالرغبة ، ويحس بتراب الخماسين يتخلله حتى النخاع . ويرى ساقيها منفرجتين ويفكر : هنا وددت أن أظل ، أن أمتص . . . وعلم إنه سوف يظل عالقاً بأذيالها ، تحمله معها أينما سارت . . . يناديها بلا صوت ، بكل يأسه : ومعنى هذه الطقوس : صنع القهوة والاستغراق والصمت ، أليس أن أشرب القهوة وأنصرف؟ إلى أين؟ . . .

حدث نفسه : «هذا ما انتهيت إليه . أصبحت بلا أصدقاء» ، وثقل كالبكاء أو كالضحك يضغط على صدره وحلقه .

أخذ ينبح . قال لا ، منذ سنين لا يذكرها ، منذ أول تعارف لا يدري متى ، ثم ، وهذا الحب يتلفه ، يقف بينه وبين كل فتاة رغب في أن يقيم علاقة معها . وهو ، الآن ، في هذه اللحظة ، يعلن لها هزيمته . . توقف وقال لنفسه : «إنني أهين نفسي بهذا الهذيان ، يجب أن أتوقف ، يجب أن أتوقف . .» .

ولكنه مضى بذلك الصوت الصغير ، الذليل ، المستجدي . يقول إنه متعب ، حتى الموت . الرغبة والعجز ينهشانه . . ها أنا ذا أهين نفسي أمامك ، أمامك أقف بلا كرامة ، وأنت . . أنت المرأة القديمة ، الخصبة كأرض يغطيها الطمي ، الفاجرة كعاهرة لا ترتوي ، الحانية كأم . . تدعيني معلقاً في الهواء ، لا تمنعين ولا تمنحين . . جعلت كل النساء جنساً ثالثاً ، مسلوب القدرة على العطاء . . .

ومضى يهذي ويهذي ويهذي ، وهي تصغي إليه مندهشة ، حزينة ، عاجزة . فركت يديها ، تشكل فمها بالكلام ولكنها لم تنطق . انتزعت نفسها من الإستغراق وانحنت وأخذت تحرك القهوة بالملعقة . سكبت القهوة ، نهضت واقتربت منه ، ثم مالت عليه . عطر جسدها النفّاذ أدار رأسه . قبلته على جبينه وعينيه . ثم استقامت وأعطته فنجان القهوة .

قالت له وهي تقف أمامه إنها تعطيه كل شيء ، كل ما تستطيع ، هو بالنسبة إليها أعز الأصدقاء ، أعز الأخوة . . ماذا يريد بالضبط ؟ . . أنت . . قالت ـ لست طبيعياً . . ماذا حدث لك ؟ لست أنت . . ماذا أستطيع أن أفعل حتى أريحك؟ .

قال :

ـ ردي لي رجولتي . ما تفعلينه عملية إخصاء ، إخصاء ، إخصاء . . ! .

ثم توقف مخزياً بتصعيد الموقف إلى ميلودراما فجة . أخرج منديله وهو يجفف عرقه ويتمتم : إنه يهذي ، إنه الجو القاتل ، تلك الملاحقات والانتظار في وزارة الداخلية ، تلك الكؤوس من البراندي ، هؤلاء الـ . . .

«إنني أهذي . . .»

قال لنفسه وتوقف .

لـيـزا

كنت أجلس في صالون البنسيون الذي تسكن فيه ليزا . رأيتها قادمة من أقصى الممر . علت ضحكتها :

ـ أنا آسفة .

قالت وهي تقترب ، ثم أضافت :

ـ هل جعلتك تنتظر طويلاً؟ .

ثم وهي تقهقه وتصخب :

ـ ها هي الأوراق والقلم ! يا للعار . . . !

ثم جلست بجواري متحفزة ، براقة العينين ، وتغلي بالصخب وبالأسئلة . قالت :

ـ وهكذا يا غالب سوف تكتب عني شيئاً في روايتك . ثم أضافت تقول باللهجة المصرية :

ـ مش كدّ؟ .

ثم واصلت بالإنجليزية :

ـ ولكن أليس هذا رائعاً يا غالب . . سوف أكون ذات شأن .

ويضحك غالب ويقول : «طبعاً» وتضحك هي وتواصل :

ـ ولكن ماذا يمكن أن يقال عن المسكينة ليزا ؟ وبالمناسبة ، هل يكتبون الروايات هذه الأيام بأن يدوروا بأقلامهم وأوراقهم بين الناس ويطلبون إليهم أن يحكوا تاريخ حياتهم؟ أين الخيال إذن؟ يا للعار يا غالب ! عليك أن تخجل من نفسك وأنت تحمل أوراقك هكذا .

وضحكت كثيراً .

انتظرت حتى انتهت ثم قلت :

ـ «دون مزاح يا ليزا ، أنت على حق مائة في المائة . على فكرة عيناك حمراوان جداً .

ـ عيناي؟ .

داعبت جفنيها بأطراف أصابعها ، ثم قالت :

ـ «إنه نوع من الحساسية . ربما إنه هذا الجو الفظيع ـ ثم سوف تستمر هذه المسماة بالخماسية؟ ـ على أي حال أخذت موعداً مع طبيب العيون . . دعنا من عيني فأنا أنساهما حتى يذكرني بهما أحد . . كنت تتكلم عن الخيال أو شيء كهذا . . ؟ .

قلت :

ـ الخيال ؟ أي خيال؟ .

ـ الخيال والروايات .

قلت :

ـ الخيال فعلاً . كنت أقول إنك على حق . لا أعرف أين ذهب الخيال . أشياء صغيرة تتجمع ، وأنتظر أن ترتبط ، أن تصبح وحدة ذات معنى ولكن ذلك لا يحدث . أقول لنفسي : تريث ، دع الأشياء تنضج ، دع اللاوعي يقوم دوره ، ولكن كل شيء يظل كما هو منفصلاً ومستعصياً على الترابط . . تصوري مثلاً ، رجل البوليس وهو يجمع الشواهد والأدلة ولكنه يعجز عن تكوين صورة واحدة عن المجرم والجريمة .

قالت ليزا :

ـ أليس هذا مثيراً؟ .

قلت :

ـ ذلك يعتمد على الكيفية التي ترينه بها . بالنسبة لي ، فذلك يعني الاستعداد للموت .

اقترب وجه ليزا من وجهه وقالت :

ـ هل الأمور سيئة إلى هذا الحد؟ .

ـ لا أدري . قد يكون ذلك شيئاً طارئاً ويزول .

قالت ليزا بإحساس حقيقي :

ـ أرجو ذلك . أرجو ذلك .

وهي تنظر إليه بتلك العيون الراجية وتضيف :

ـ سيزول أنا أعلم أنه سيزول .

ـ لن يدوم .

في تلك اللحظة دخلت الفتاة الدانيماركية التي تسكن في البنسيون نفسه . حيتنا وجلست بحشمة الطالبات الصغيرات أمام الكبار . حاولت أن أصرف تفكير ليزا عن موضوع شكواي الذي يبدو أنه استغرقها فأخذت أفكر في شيء يضحكها ، قلت :

ـ لماذا لا ترتدين بعض الملابس لنخرج؟ .

اكفهر وجه ليزا وقالت بصوت شاك :

ـ أنت ، أنت !

تظاهرت بالانزعاج وقلت :

ـ ماذا حدث يا ليزا ؟ هل حدث شيء؟ .

قالت بصوت مرتفع :

ـ هل أنت أعمى؟ .

قالت الفتاة الدانيماركية التي كانت تجلس محنية الكتفين على كرسي خشبي مرتفع :

ـ هذا لباس المساء . آخر صيحة .

قلت :

ـ آه إنني شديد الأسف . ظننته شيئاً تنام به .

الشفقة نحو الفتاة هي التي منعت ليزا من مواصلة هذه اللعبة . رغم إنها لا تزيد عن العشرين من عمرها فقد كان لها وجه وتعابير عجوز . . إنها ماكرة . عندما تتكلم تجحظ عيناها وتأخذ في الازدراد كأنها تجاهد لابتلاع شيء ما . عند هذا تنسحب شفتاها إلى الداخل وتلقي نظرات جانبية زائفة فتبدو شديدة المكر .

كانت فريدا ـ وهذا اسمها ـ تمسك كتاباً وتضع سبابتها في داخله . قالت لها ليزا بلطف ولكن بصوت مرتفع قليلاً كالذي نستعمله للأطفال أو للأجانب عندما نكلمهم :

ـ ماذا تقرئين يا فريدا؟ .

أرتنا غلاف الكتاب . كان على الغلاف صورة امرأة متسعة العينين من الرعب وقد انفتح فمها على اتساعه ـ هوة سوداء محاطة بإطار أحمر ـ وكأنها تصرخ . قالت وهي ما تزال تعرض الكتاب لنا :

ـ «إنه كتاب . إنه بالإنجليزية . إنه عن كيف يستطيع الكائن ، أعني الناس ، الناس في هذه الأيام ، والذين حولنا ، حل مشكلاتهم النفسية دون معونة طبيب . »

تمتمت ليزا وهي تخفض عينيها وقد اصبحت جادة وحزينة :

ـ الشيء المسكين .

وأضافت :

ـ ولكن مثل هذه الكتب ، هل تناسبك يا فريدا ، وأنت . . .

وتوقفت ثم قالت :

ـ لماذا لا تخرجين لتشمين بعض الهواء النقي يا فريدا؟ .

بدت الفتاة محاصرة تنقلت عيناها الجاحظتان مذعورتين بيننا وقالت :

ـ هذا يعتمد . . !

أخذت عينا ليزا ترمشان بارتباك وحيرة وقالت :

ـ يعتمد على ماذا يا فريدا؟ .

أمسكت يد ليزا وضغطت عليها داعياً إياها إلى التوقف حين رأيت عيني فريدا تجحظان حتى لكأنهما ستنفصلان والجزء الملون منهما أخذ ينتقل من أقصى العينين إلى الطرفين الآخرين بسرعة ثم جذبت شفتيها إلى الداخل فأصبحت عجوزاً ماكرة ، قالت :

ـ على أشياء كثيرة ، أوه ، أشياء كثيرة .

ـ اه هكذا .

قالت ليزا ، وهي تحوّل عينيها عنها وتتنهد . نهضت فريدا فجأة وقالت :

ـ يجب أن أنصرف .

أحنت رأسها لي وقالت :

ـ سعدت برؤيتك . سوف أراك يا ليزا؟

ـ طبعاً.

وانصرفت مسرعة .

قالت لي ليزا بعد مرور أسبوع على هذا الحديث وهي تلمس جبينها بسبابتها عندما سألتها عن فريدا :

ـ الشيء المسكين. أخذوها إلى مستشفى الأمراض العقلية . أثارت ضجة كبيرة ولم نستطع تهدئتها. إنني أعرف كل شيء ، وسوف أقاوم ، كانت تزعق ، وأشياء كهذه . اتصلنا بسفارتها فجاؤوا ومعهم هؤلاء المرعبون الذين يعملون في ذلك المستشفى وأخذوها.

ـ مسكينة.

ـ كل النزلاء كانوا مضطربين جزعين وقد حدثت ضجة حقيقية . . الشيء اللطيف المسكين . .

بعد انصراف فريدا ، سألتني عما أريد أن أعرفه عن «ليزا المسكينة» . انتقلنا إلى كازينو مطل على النيل خافت الأضواء ، أعد خصيصاً للعشاق . قلت لها ذلك فقالت :

ـ للعشاق ؟ كم هو مثير ؛ ولكن قل لي كيف ستدافع عن نفسك؟ .

قلت :

ـ الأغلب أنني سوف أستدعي بوليس النجدة .

ـ لليزا؟ ذلك لن يفيدك في شيء عندما أصمم .

قلت :

ـ إذن فسوف أخضع . أنا رجل واقعي.

قالت : هكذا هكذا . . » وقد تاهت عيناها ثم استعادت يقظتها بسرعة وقالت

بحسم :

ـ والآن إلى العمل ماذا تريد أن تعرف؟ .

ـ كل شيء .

ـ حسناً ولدت . . أعني . .

توقفت قليلاً فقلت :

ـ هذا واضح للغاية ، وماذا بعد ؟

قهقهت ليزا ، ثم عادت إلى جديتها . كل شيء يضحكها أو يدهشها . قالت :

ـ ماذا؟ أجل الأب يوغسلافي وأمي إيطالية كلاهما مهاجران إلى أمريكا . ولدت وعشت في سان فرانسيسكو . بعد أن أنهيت السنة الجامعية الأولى تزوجت . . ماذا تريد أن تعرف أيضاً ؟ عندي ابن وابنة . . ٢٤ و ٢٠ . . ماذا أيضاً ؟ أنا في القاهرة منذ عام ١٩٥٩ . هذا كل شيء . بعد العدوان أخرجوني ، أخرجوا كل الأمريكيين من مصر . .

ـ أي عدوان؟

ـ اعني حرب ٦٧ . عشت عامين في أسطنبول ٦٧ ـ ٦٩ . . هذا كل شيء . . رجعت إلى القاهرة في عام ٦٩ ، وها أنا ذا هنا . .

احتضنت ذقنها بكفها وأخذت تنظر إلى النهر : واحدة من لحظاتها القليلة الجادة . قلت :

ـ لماذا جئت إلى مصر؟ لماذا غادرت أمريكا وهجرت زوجك وأطفالك ؟ .

ـ ماذا أقول ؟ حسناً أصغ إلي . . أن ترى الأشياء نفسها . . ليس هذا . . في حقيقة الأمر أردت أن أشاهد حضارات جديدة وأناساً لم أرهم من قبل . أردت أن أرى أشياء مختلفة .

قلت :

ـ هذا فقط؟ .

عبست وهي تجهد أن تركز :

ـ هناك ، أعني ، حسناً ، هناك في أمريكا دعنا نضع المسألة على هذا النحو . .

وتصمت . وتعبس . كانت تتحدث ببطء ، على غير عادتها ، ومن الواضح أنها تبذل مجهوداً كبيراً في تركيز أفكارها . وقد أدهشني ذلك فأنا أعلم أنها لا تبذل هذا المجهود في الحديث لأنها تحاول أن تخفي شيئاً . ليس ذلك من طبيعتها ، كما أنها صديقتي وقد تعودت أن تصارحني . ولكن الواضح أنها لم تفكر في هذه المسألة إلى حد صياغتها في فكرة منطقية متماسكة رغم أنها جوهر حياتها . كيف يمكن أن يحدث هذا؟

كانت ليزا تطالع الفراغ بنظرة تائهة فقلت :

ـ مالك تائهة؟ .

رمشت بعينيها واستعاد وجهها يقظته . قالت :

ـ إنني آسفة . كنت أفكر فيما حدث لي ؟ .

ـ ألم تفكري فيه من قبل؟ .

قالت :

ـ بالطبع كنت أفكر فيه . ولكنني الآن أفكر فيه في ضوء جديد فيبدو لي وكأنه حدث لامرأة أخرى؟ .

وتضحك وتقول :

ـ الأغلب أنني ، جننت . تصور لقد فوجئت الآن أن اسمي ليزا . . وسألت نفسي : ماذا يعني هذا الاسم الغريب ـ ليزا ـ ومن أطلقه علي . . لم يخطر ببالي قبل الآن ، أن أسأل من الذي أطلقه علي . . رغم أنني ، كما تعلم ، أحمل هذا الاسم دائماً .

وتستغرق في الضحك وتقول :

ـ يا إلهي يا إله السموات والأرض . . إنني جننت . . .

قلت :

ـ دعينا نعود إلى حديثنا .

ـ أجل كدت أنسى . ولكن قل لي ماذا يعني غالب؟ هل هو مجرد اسم لا معنى له مثل ليزا . . ؟ .

قلت :

ـ له معنى ؛ غالب ذلك الذي يغلب ، ينتصر . . ولكن دعينا من هذا ، لنعود إلى موضوعنا . لماذا غادرت أمريكا؟ .

ـ سوف أحاول .

قالت وأخذت تتأمل ظاهر يدها . كانت يداً صغيرة ، جافة وقوية . قالت :

ـ هناك حيث كنت أنا ، الجميع يندفعون مسرعين . كان يضايقني أن الوقت ـ وهو كما تعلم شيء مجرد ـ يتحكم في الناس . إنهم طيلة الوقت ينظرون إلى ساعاتهم ودائماً : أوه ، لقد تأخرت . . ويندفعون . . أترى ؟ وعندما يقابلونك في الشارع : هاي ويسرعون . . هذا أحد الأسباب ، سبب آخر ، الجميع هنالك يعيشون في دوائر ضيقة يموتون لو خرجوا منها ـ مثلما يحدث للسمك خارج الماء ـ . . وعندما يودون أن يستمتعوا فإنهم يتحدثون عن العمل . .

وتهز ليزا رأسها وتقول :

ـ بحق السماء . . لم أفكر في ذلك من قبل . .

قلت لها :

ـ هل كنت أنت كذلك؟ .

قالت بحدة :

ـ لا .

ثم توقفت وقالت برقة :

ـ كلا . أعني ، أوه أعني إنني كنت أحاول أن أكون كذلك ، أن أكون مثلهم . منذ كنت صغيرة وأنا أحاول أن أكون مختلفة . كنت طفلة قلقة . كان لي أصدقاء في الحي الصيني في سان فرانسيسكو كان هؤلاء الصينيون طيبين للغاية هادئين وودعاء وعندهم كثير من الوقت . عكس الأمريكي الذي يندفع بسرعة . كنت أستمتع بصحبتهم . وشيء آخر عندما أكون بين الصينيين أشعر أن هنالك شيئاً راسخاً ومؤكداً : هنالك آباء وأبناء . . هنالك أب وأم . . هل فهمت؟ .

ـ فهمت . .

ـ كان الكثير من أصدقائي الأمريكيين يلومونني على صحبة الصينيين ؛ كانوا يقولون : ليزا ، ماذا تجدين في هؤلاء الذين يستحيل نطق أسمائهم ؟تعلم؟ مثل تشانغ ، تسنغ . . ؟ . . ثم . . ثم . . ليس لي اهتمام كبير بالسياسة ، كما تعلم . أما هناك فقد كانوا أسوأ من ذلك كثيراً ، لا يهتمون بشيء سوى ثلاجاتهم الضخمة ، والبحث عن الأمان . . حتى الأغنياء منهم يخافون المستقبل . . هنا ، في القاهرة الناس يأخذون المسائل ببساطة وهم مرحون مسترخون ، والحياة هنا منفتحة . أليس كذلك؟ .

ـ هذه رؤيتك للقاهرة . .

قالت :

ـ أوه .

وصمتت .

قلت :

ـ ثم ماذا؟

قالت بحيوية مدهشة :

ـ قل لي ، الآن ، لماذا غادرت الأردن؟ جاء دورك لتقول .

ـ كنت أختطف الأطفال وألتهمهم .

ـ «كن جاداً . »

ـ عندما تريدين أن تكتبي رواية وتجدين أن الخيال قد تخلى عنك فسوف أحكي لك حكاية طويلة جداً .

قالت :

ـ إذن علي أن أنتظر وقتاً طويلاً جداً .

ثم صمتت وأخذت تتأمل يدها . فكرت وأنا أنظر إليها أن الزمن يسرقها . سوف تكتشف ذلك فجأة وعندها فإن القاهرة سوف تفاجئها .

قلت :

ـ هل نمت؟ .

قالت دون أن تنظر إلي :

ـ لا .

ـ هل تفكرين أفكاراً عميقة؟ .

ـ عميقة جداً .

ـ مدهش . مثلاً؟ .

أخذت تقلب يدها ، وقالت :

ـ استمع لي . هذه اليد . . أليس غريباً أن يكون لي يد؟ .

ـ ما الغريب؟ .

ـ اليد اليد . أعتقد أن هذه هي المرة الأولى التي أكتشف فيها أن لي يداً . . لماذا لا تضحك ؟ أتدري لماذا؟ لأنك فهمت ما أقول .

ـ فهمت طبعاً .

عندما وقفنا تأهباً للانصراف ، وسرنا بضعة خطوات . التصقت بي ليزا ووضعت خدها على كتفي ، وتوقفت ، فتوقفت .

قلت :

ـ تحبينني إذن!

ـ توقف عن هذا .

وكان صوتها غريباً . قلت :

ـ ما الحكاية؟ .

ـ خفت قليلاً .

وجذبت يدي وواصلنا السير . قالت ونحن سائرين في الشارع :

ـ أتعلم ؟ خطر لي أن العالم الخارجي انتهى أو تغير تغيراً جعله شيئاً آخر ، مختلفاً .

ـ الهذا خفت؟ .

ـ خفت؟ أجل خفت قليلاً . خطر لي أيضاً أننا عندما نغادر الكازينو سوف نخطو

إلى شارع من شوارع فرانسيسكو .

قلت :

ـ أنت غريبة الليلة؟ .

ـ هل تعتقد أنني جننت؟ .

***

أخذت ليزا تعرف الحاضرين ببعضهم . أشارت إلى الرجل الجالس بجواري وقالت بصوت منغم :

ـ محمد من غانا . غالب .

كنا نجلس في صالون البنسيون الذي تسكن فيه ليزا . معظم الحاضرين كانوا غير معروفين لي . كان بعضهم مصريين وكان هنالك عدد من الأفرو ـ أمريكيين (وهو الاسم الذي أصبح الأمريكيون السود يطلقونه على أنفسهم) . في مواجهتي كان يجلس شاب أمريكي أبيض صامت شارد النظرة له شعر طويل . أسرَّت لي ليزا أنه من الهيبز ، ولطيف جداً . قلت لها : هل له لسان؟ فقالت إنها تعرف كيف تجعلهم يتحدثون . هؤلاء الشبان ـ قالت ـ يعانون كثيراً .

أضافت ليزا :

ـ غالب عربي من أي بلد عربي؟ دائماً أنسى . . أوه ، تذكرت من الأردن . . هل هي الأردن ؟ ويكتب . . تكتب ماذا ؟ لم تقل لي قط . . .

قلت :

ـ أيتها السماء الطيبة . .

ضحكت ليزا وقالت :

ـ تذكرت الآن . تذكرت قصة حياتي والخيال ؟ إنه يكتب روايات . .

قلت لمحمد :

ـ هل أنت دبلوماسي؟ .

أغرق محمد بالضحك ورد باللغة العربية :

ـ طبعاً ، لا يا أخي .

تحدثنا قليلاً . كان يتكلم باللغة العربية الفصحى . كانت طريقته في لفظ بعض الحروف ، والأخطاء الغريبة في استعمال بعض الضمائر تجعلني أبذل مجهوداً خاصاً لكتم ضحكي . قال لي إنه طالب في الأزهر ، في كلية أصول اللغة . قال لي إنه اعتنق الإسلام ، أو بالأصح ، اهتدى إليه ، وإنه يحفظ المعلقات السبع ، وإن معلقة زهير ابن أبي سلمي أقربها إلى نفسه .

ـ هل قرأتها يا أخي؟ .

قال . فقلت :

ـ قرأتها بالطبع .

قال :

ـ هو شاعر حكيم .

ـ أعرف .

ثم تحول الحديث إلى السياسة ، وأصبح عاماً ، والأفرو ـ أمريكيون لا يملون حديث السياسة أبداً . تحدثوا عن أفريقيا بذلك التعالي الذي يضيفه عليه كونهم أمريكيين وكنت أكره ذلك منهم . كان محمد يصغي إليهم بانتباه وعندما وصل الحديث إلى غانا تحدثوا عن الانقلاب الذي وقع ضد نكروما . فقال محمد بالإنجليزية إن ما حدث لنكروما هو بسبب علاقة غرامية نشأت بينه وبين الملكة إليزابيث ، وسط دهشة الجميع واستنكار ليزا . إذ قالت :

ـ مستحيل .

ثم أعقبت ذلك بضحكة عالية مرحة حتى تزيل ما قد يكون علق بذهن بعضنا من أنها قالت تلك الكلمة لأسباب عنصرية ، ثم أضافت حتى تقطع كل ظل للشك :

ـ هل تظن أن نكروما كان عنده وقت لأمثال هذه الأمور؟ .

فقال محمد بانفعال :

ـ إن ذلك لا يحتاج إلى وقت كبير .

وعندما انفجر الجميع بالضحك وجم محمد وأخذ يطالع الحاضرين بذهول إذ لم يدرك إنه قال نكتة .

قال له أدي وهو أمريكي قمحي اللون ، ذو شارب أصفر ولكنه يُعتبر أسود حسب التصنيفات الأمريكية :

ـ كيف عرفت ذلك؟ .

قال محمد بحماس :

ـ بريطاني . رجل بريطاني أكد لي ذلك .

ـ الزانون بأمهاتهم هؤلاء لم يحبوا نكروما قط .

نظرت إلي ليزا نظرة ذات معنى : حدقت بي ثم خفضت عينيها ووجهها جاد للغاية .

(كان لتذكيري بما قالته لي عن أدي بعد أن رأيته عندها للمرة الأولى :

ـ إنه لطيف جداً ، وأنا أحبه كثيراً ولكنه يستعمل كلمات الجيتو .

سألتها :

ـ إية كلمات؟ .

قالت :

ـ في أحياء الزنوج ، هناك ، تعتبر كلمات عادية ولكنها رديئة رغم كل شيء .

ـ مثل ماذا؟ .

قلت . فقالت :

ـ إنني لا أستطيع حتى التلفظ بها .

وها هي تذكرني بنظرتها إن عبارة «الزانون بأمهاتهم» هي إحدى تلك العبارات التي لا تستطيع حتى التلفظ بها .

كان أدي قد أصبح صديقاً لي . وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ولكنه استطاع في هذا العمر القصير أن يتزوج ثلاث مرات وأن يدخل السجن بتهمة السطو المسلح على أربعة مخازن للأسلحة والاشتراك في قتل أحد الحراس ، وأن يهرب من السجن ويشترك هو وزوجته الأولى بخطف طائرة من أمريكا والتوجه بها إلى كوبا . ذهب بعدها إلى باريس ثم غادرها إلى القاهرة عندما وقعت الحكومة الفرنسية اتفاقاً مع امريكا يتم طبقه تبادل مختطفي الطائرات .

قال محمد لأدي :

ـ ولكنه ذلك البريطاني أكد ذلك .

فقال أدي :

ـ أيها الأخ ، تصدق ذلك .

فقالت إحدى السيدات المصريات والاشمئزاز ظاهر على وجهها :

ـ لا أعتقد أن الملكة اليزابيث تفعل ذلك . أنا متأكدة . . ولماذا مع نكروما بالذات؟ .

حدث صمت شامل احمرّ وجه ليزا فأخرجت سيجارة وأشعلتها .

(قالت لي ليزا فيما بعد عن هذه السيدة :

ـ إنها من الأغنياء . أرستقراطية أو شيء كهذا قد وضعت الحكومة أملاك عائلها تحت الحراسة ـ العهْد السابق ، الملك وما شابه ، كما تعلم ـ .

قلت :

ـ إنها غبية .

ـ تتحدث الإنجليزية بطلاقة تتكلمها باللهجة الأمريكية . لاحظت ذلك ؟ وهي تحب أن تزورني حتى تتحدث بالإنجليزية . لا أحبها كثيراً . ولكنها مثقفة .

قلت :

ـ ورغم ذلك لم تكن تملك الذكاء ولا الذوق لتدرك أنها أهانت معظم الحاضرين .

ضحكت ليزا وقالت :

ـ إنها تحب الإنجليزية .

قالت ليزا في محاولة لتلطيف الجو :

ـ الحديث في السياسة لا يكون على هذا النحو يا محمد . هنالك أسباب موضوعية لسقوط نكروما على كل حال . أنا حيوان غير سياسي .

وقهقهت . شاركها الجميع بضحكات مجاملة .

في اليوم التالي زرت ليزا فقالت :

ـ لا بد أنك أحببتني يا غالب وإلا فما معنى هذه الزيارات اليومية . ؟

قلت :

ـ سأشرب فنجان قهوة وأنصرف .

فقالت بحرارة :

ـ ولكن لماذا؟ .

ـ عندي موعد .

ـ أوه . . رجل مهم وعنده مواعيد .

بعد فترة من الصمت قلت :

ـ بحق السماء يا ليزا كيف تتعرفين على كل هؤلاء الناس وتطيقينهم ؟ هذه الأرستقراطية السمينة التي ما تزال تعتقد أن الإنجليز أنصاف آلهة ، وأنه يستحيل أن تحب امرأة إنجليزية رجلاً أسود . وهذا المحمد من غانا ، مثال آخر وتفسيراته السياسية الملهمة كيف تعرفت بهم؟

قالت ليزا بضيق :

ـ تلك المرأة ؟ إنها تعيش في زمن انتهى .

ـ ومحمد؟ .

ملأ المرح وجهها وقالت :

ـ أوه محمد ! إنه رائع . أصغ إلي . كنت أركب المصعد وإذا بمحمد يدخله . لم أنتبه له . كنت مستغرقة أفكر في شيء أو آخر وإذا به يقول : هالو! انتبهت وقلت : أوه هالو ! فقال : هل أنت أمريكية؟ قلت : بالطبع ، مؤكد أني أمريكية .

قهقهت ليزا ثم قالت ،

ـ لا أدري لماذا قلت «بالطبع» .

ـ وماذا بعد؟

ـ بعد قليل ، ونحن ما نزال في المصعد قال لي إن اسمه محمد وإنه من غانا .

صمتت قليلاً ثم قالت :

ـ وهكذا . .

ـ أصبحتما أصدقاء .

قالت :

ـ حسناً، دخلنا هنا، وتحدثنا . كان قادماً ليزور بعض مواطنيه الذين يسكنون هنا ، أو أصدقاءه ولكنه نسيهم . تحدثنا طويلاً . كان ممتعاً . وهكذا أصبحنا أصدقاء . . أصبح يزورني كثيراً .

هل حدثتك عن الطبول ؟ .

قلت مندهشاً :

ـ أية طبول؟

ـ الطبول ؟ الدكتور طبل؟ .

علا صوت ليزا مخالطته تلك البحة التي تطرأ على صوتها عندما تكون رائقة المزج ومنطلقة .

قلت :

ـ لم تحدثيني عن الطبول .

قالت :

ـ وهكذا كلما يزورني يأتيني بتلك المجلات ، مجلات عن الطبول . هل تستطيع أن تتصور ذلك ؟ حسناً ، هنالك أيضاً نواد خاصة للطبل . قال لي محمد إنها مزدحمة بالأعضاء والزوار على الدوام وفي مرة جاءني بعدد خاص من المجلة ، عنوانه (الدكتور طبل) . تصور!

وأغرقت ليزا في الضحك وهي تردد «الدكتور طبل ، الدكتور طبل» ثم أضافت :

ـ هل تصدق أنهم يستعملون الطبول في الأمراض المستعصية؟ يقول محمد ، وكذلك مكتوب في المجلة أن للطبل خواصاً علاجية . ترى في تلك المجلات صورة الساحر . أو شيئاً كهذا . رجل يرتدي ملابساً غريبة عيناه نفاذتان ، ويضع ، أنت تعرف، الريش ، ويرتدي جلد الأسد وغير ذلك . تراه يمسك بالطبل والمريض المسكين

عار تقريباً يدور ويدور . . أليس هذا رائعاً . أليس هو كذلك! .

قلت :

ـ أعتقد أنه كذلك .

ثم وكأنها تذكرت شيئاً وتود قوله قبل أن يقاطعها أحد ، أو خوفاً من أن تنساه قالت :

ـ أوه ، أجل ، وشيء آخر . كان محمد يخاف من القطة .

كانت القطة تجلس قرب المدفأة تنتظر بعينين ضيقتين رامشتين إلى ليزا فأشارت ليزا إليها وقالت :

ـ هذه القطة . عندما يراها كان يخاف . يقول محمد إن الأرواح الشريرة تقطنها . هل تصدق أنه يقول ذلك؟ تدخل القطة من الباب ، ذلك الباب فتجحظ عيناه ، ويرتسم الرعب ـ رعب حقيقي ـ على وجهه ويقول ، أوه لا أوه ، لا ، ويطلب مني أن أبعدها : أرجوك ، أرجوك يا ليزا . . يقول . فكنت أمسك بالقطة ، وأضعها في حضني وأداعبها ، وأقول له : محمد ، إنها لطيفة وطيبة ، إنها حيوان وديع . . انظر . . ولكنه يستمر في أوه ، لا ، أوه لا . . وعيناه كأنما ستخرجان . في النهاية اقتنع . . اقتنع بالتدريج . بالطبع ، إنه لا يقترب منها أو يلمسها ، لكنه عندما يراها تدخل يطالعها بحذر ، ينكمش قليلاً ، ولكن دون رعب ، ودون أوه ، لا . . أترى؟ إننا هنا نعمل بالتحليل النفسي بالإضافة إلى أشياء أخرى .

أتاني الشعور المؤلم بالمأساة ، بتوقعها . كان إحساساً بأن هذه المرأة بلغت قمة أنوثتها ونضوجها فليس أمامها الآن سوى أن تنحدر وتذبل ، وفي يوم ما سوف تكتشف أنها أصبحت عجوزاً للغاية وأن ليس وراءها أي رصيد سوى هذه الحياة ، الحياة الفارغة . وأراها عجوزاً طريفة مضحكة ، تدب في شوارع سان فرانسيسكو ، غير قادرة على إثارة شيء سوى العطف والازدراء المستور بتهذيب بارد . . وأراها عجوزاً ثرثارة تثير الضيق المغلف بعبارات : «أرجو المعذرة . علي أن أسرع . كان وقتاً ممتعاً ولكن يجب أن أذهب . . زورينا يوماً . . » .

قلت :

ـ وماذا بعد يا ليزا؟ .

فوجئت وارتبكت .

كنت أعلم أنني أبدو قاسياً لم أستطع التوقف . كانت صرخة التحذير التي أعجز عن إيقافها عند رؤية إنسان يقف على شفا هاوية مهدداً بالسقوط .

قالت وقد احمر وجهها وارتسم العناد عليه فبدت كطفلة وبّختها أمها :

ـ ماذا تعني؟ .

بقسوة عجزت عن كبحها أو التحكم فيها ، برغبة في الإيلام مبعثها الحاجة أن يشاركني أحد هذا الألم القاتل الذي ينهش قلبي قلت :

ـ وماذا بعد محمد الذي من غانا ، والحكايات المسلية ، والتفرج على الناس والدعابات المكررة ، والتعالي على الآخرين لمجرد أنهم مختلفون عنا . . وماذا بعد ذلك؟ إلى أين ستنتهي بك هذه الدوامة؟ .

قالت بلهجة طفلة تكابر رغم علمها أنها على خطأ :

ـ حسناً ، ماذا في ذلك إنني أمتع نفسي وهذا كل شيء .

ـ لماذا لاتحبين أحداً؟ .

ـ هذه شؤوني الخاصة .

وصمتنا . ما زلت مشحوناً بكلام كثير ،كلام يكاد يقفز من فمي . قالت بعد قليل :

ـ إنك تلومني فقط ، ولكنك أنت أيضاً صديق لأدي ، تستمع إليه يقول تلك الكلمات الفظيعة وتضحك ولا تقول شيئاً ، فقط تلومني .

كان علي أن أمتنع أمام هذا اللوم المضحك . إنها مجرد طفلة غير أنني واصلت . . قلت :

ـ لا تكوني طفلة . إن أدى إنسان له قضية وهو قد برهن أكثر من مرة أنه مستعد أن يموت من أجلها . وأنت تعلمين ـ على الأقل سبق وقلت لك ذلك ـ أنه يستعمل تلك الألفاظ ليؤكد أصالته وارتباطه بتلك البيئات الفقيرة التي نشأ فيها ، وهو على استعداد أن يهب حياته دفاعاً عنها .

قالت مناكفة :

ـ قلت ذلك من قبل . لكن ذلك لا يبرر استعمال كلمات الجيتو . هناك مكافحون مهذبون .

ـ مهذبون؟ .

قالت :

ـ وأنت؟ ما هي قضيتك؟ ماذا تفعل غير العمل في وكالة أنباء و . . .

وتوقفتْ . قلت :

ـ أنا . . ؟ .

ـ أنت ! .

قالت فجأة بصوت مختنق :

ـ آسفة .

ونهضت وأسرعت إلى حجرتها . كان صوتها باكياً وهي تقول :

ـ سوف أعود بعد قليل .

الفصل الثامن

المسيرة بجوار النهر وتحت الأشجار

طالعها وهي تحتسي القهوة بتلك الرقة الأنثوية التي انتهى عهدها ـ يذكرها كالحلم في جو من الرهبة والطقوس . . لا يذكر أين . . ؟ ـ قال لنفسه وهي تضع فنجان القهوة بين شفتيها وتبقيه بعض لحظات ريثما تنساب جرعة القهوة من الفنجان إلى فمها : إنها تقبّل الفنجان ، وبدأ التياثه مرة أخرى عندما تقمص ملمس الفنجان على شفتيها ، أحس بشفتيه تلسمان ذلك الفنجان . . وصوت آخر في داخله بقوله : هذا إسقاط ، «أسقط شفتيّ على شفتيها؟» ، ثم سئم من متابعة الفكرة .

كانت تجلس معتدة ، محتشمة ، وكان احتشامها يعني تلك السيطرة المرنة ، الواثقة على هذا التيار الدافق من الأنوثة الوافرة ، انضباط ذلك الشق الفاصل بين النهدين الصلبين ، وتلك اللمعة الباهرة لفخذين مستديرين ، قويين . مدت ذراعها ووضعت فنجان القهوة على الكومودينو . كانت حركة مقتصدة ، منبثقة عن سيطرة على الجسد ، واندرجت في سياق ذلك الاحتشام الفاجر . ألهبت الرغبة أحشاءه ، وتخللته كالحمى وهو يرى ذلك الذراع يمتد إلى نهايته دون أن يميل جسدها معه . رأى ذلك الجسد الفخم وأدرك إنه يخضع لسيطرة لن يفلت منها شيء . وفي تلك اللحظة تبين له أنه رضي بقدره ، قدر المتعبد . ثم فاجأه الدوار ، واختلطت المرئيات والأحاسيس أمامه وفي داخله ، وارتفعت الرؤيا أمام عينيه ، رأى نفسه ينبثق من بين هذين الفخذين ، مبللاً بسوائل ناعمة ، وكثيفة ، أحسّ بانسيابه بين الفخذين العظيمين ، وأخذ يدرج على الأرض ، ورآها هناك كبيرة ، ممتنعة ، محاطة بإبهام يصعب اختراقه ، ينبعث منها دفق محرم له ملمس ، لا يدري كيف ، ولكنه رأى نفسه مطروداً من جنتها مربوطاً إلى تلك الحركة الإيقاعية في داخل جسدها ، إلى نبضها ، ولكنه نفى أيضاً . . ثم فجأة انتهى كل شيء وأخذ يحس بحدود جسده ، وبموقعه في المكان .

وفجأة نبت هذا السؤال ، لا يعلم من أين جاء ، فكأن آخر همس له به في أذنه : متى استحققتها حتى أطلب المزيد؟ .

احتجت كبرياؤه ، فأسكت احتجاجها بعنف . إنه يرغب فيها وليذهب كل شيء إلى الجحيم. سطعت عيناها بتلك اللهبة القرمزية الحانية وتوقفت على وجهه وهي تحس به يتلوى مبهظاً ، مخنوقاً بالرغبة . نفذت تلك النظرة الجانبية إلى قلبه ، تركت وجعاً فيه ، ثم فتحت كهف الذكريات العتيقة فهرول قلبه يخفق داقاً أذنيه كالمطارق . كان مملوكاً ، ضائعاً ، ، بلا قوام «لم أقصد . . أعني أن ذلك تم بالرغم مني . . » وكلمات أخرى لامعنى لها .

قال لها من خلال المعاناة والمهانة إنه يعلم ،يعلم أنه ثقيل ، أنه ثقيل حتى على نفسه . . وأنني عندما أعتذر أزداد ثقلاً . . هل ينصرف؟ هل تريده أن ينصرف؟ فلتقل شيئاً! وهو يشعر أنه مربوط إلى الكنبة التي يجلس عليها، مغلول الإرادة، عاجز عن اتخاذ قرار . قال لنفسه : «بعد قليل سوف أنطلق في ذلك الهذيان، ولن يوقفني شيء» .

طلبت إليه ، وهي مرخية الجفنين، وكأنها تكلم نفسها ، أن يدخل ويستحم بتلك النبرة المكتومة الغائبة . تساءل «هل جنت؟ ربما تمزح . » ولكنها رفعت عينيها إليه وأشارت إلى الحمام بسبابتها :

ـ مش عارف الحمام؟ .

اتجه إلى الحمام. كان خائفاً ، يشعر أن هنالك لعبة ما وهو ضحيتها . مع خيوط الماء الأولى استعاد توازنه وشعر بالراحة . اكتشف أنها أعدت له ملابس داخلية وجورباً . بدت هذه الأشياء له حاملة دلالة ، وكأنها توجه لوماً ما له . للتو سيطر عليه الخزي . تراءى له الحمام كمصيدة أعدتها ليواجه بها نفسه . فكّر : «كيف أواجهها؟ وأنا منذ دخولي لم أكلمها إلا عن هذه الرغبة القذرة!» ثم استغرق بفرك جسده بالليفة والصابون ، يفرك بعنف وكأنه بذلك سوف ينتزع كل موجبات الندم والخزي .

عندما خرج من الحمام ـ حاول أن يؤجل تلك اللحظة قدر الإمكان لأنه كان خائفاً من المواجهة ـ وهو منتعش نظيف ، ممتلئ رغبة في الاعتذار وحسن التصرف فوجيء بها تقف في الصالة . زال خجله وهو يراها تلبس فستاناً كحلياً ، واسع الأكمام، ينسدل إلى كاحلها . كان الثوب مطرزاً بوشي من خيوط صفراء لامعة

وخضراء كابية حول الياقة الواسعة التي تكشف عن عنقها ، وجزء من متنيها ، ومثلث رأسه على شكل قوس ، ينتهي عند منبت نهديها . وكان الوشي على الياقة على شكل توريقات متصلة تنساب على زيق ، عريض محدد بخطين أصفرين . وعلى الصدر ، على شكل مربع ، صورة حديقة كثيفة ، تتزاحم أغصانها ، أشجارها بلا جذوع ـ يتخلل خضرتها فيض باهر من النوّار الأصفر . وفي نهاية الثوب ، عند الكاحل ، زيف عريض ، تتشابك متلاحقة في داخله أوراق العنب بخطوط على شكل مثلثات غير متساوية الساقين . كان شعرها مفروقاً من الوسط ينتهي بجديلتين ، بينما ينساب الجزء الخلفي من شعرها حراً ، كثيفاً ، مما أعطى وجهها طابع مادونا إيطالية .

تولاه إحساس أنه يعيش في حلم ، اختلط هذ الإحساس بدوار بدت المرئيات عبره راسخة ومنفصلة كأنها توقفت في مكانها فجأة ، متأهبة ، حابسة التنفس والحركة . إنه منذ قليل حين نفذت إليه نظرتها الجانبية ارتفعت أمام عينيه صورة جارتهم البدوية التي تنام على السطح المجاور لسطح بيتهم ، شرقية ، سابحة في فجر القرية البرّاق ، وقد نهضت تسوّي ثوبها الأسود الطويل الذي ارتدته تحت اللحاف . كانت ترتدي ثوباً ضافياً . مطرزاً بمثل هذا الوشي ، ولها مثل هذ الوجه بشعره المفروق ، والجدائل المنسابة على الكتفين .

كانت تلك الجارة ترتبط في خياله بسطح البيت المجاور ، بتلك النظرة الخاشعة المتجهة إلى السماء التي انطفأت نجومها عدا نجمة الصبح ، بطرقات القرية المبللة بالندى ، وبالعالم الذي غشاه لون رَمادي تلمح في داخله حجارة كلسية بيضاء ، وها هي الآن أمامه ، وكأنها خطَرت من وقفتها السوداء التي تتحدد فيها خطوط جسدها بضوء الفجر إلى هذه الصالة بضوئها الناعم . عاش لحظات تداعي لحظات الذكرى ، انهيار حاجزها وصندوقها .

قالت :

ـ مالك؟ .

قال : «أبداً» لا يدري . إنه أحسن حالاً . وأخذ يبحث عن كلمات يداري بها ارتباكه . . بعد قليل قال لها إنه فوجيء بها . وصمت وراح يتأملها .

كانت أكثر شباباً ، مرتبكة كأنها مراهقة في أول موعد حب . أحس أنها فقدت شيئاً خاصاً جداً ، وأثيراً لديه ، إذ بدت خجلة ، مقيدة الحركة ، وسط تلك العناية

الكلاسيكية .

لم يبهجه انتصاره ، إن كياناً كبيراً قد انهزم . فكر أنها سوف تستعيد ذلك الشيء الخاص ، بتلك الأنوثة العاتية المتسلطة وهما يسيران في العتمة بين مئات الأضواء العمشاء، الدقيقة ، التي تنمنم الرصيف المبلط تحت الأشجار ، ونبض ساعدها ينساب في راحته ، تخفف من إلحاح الكآبة عندما استعاد ذكرى أمثال هذه المسيرات على شاطئ النيل .

قالت ، وهي تسرع في الكلام إن الجو في الخارج قد انقلب . سكنت الخماسين وهبت أنسام محملة بالندى . (رآها مبرقشة بنمنمة الأضواء في عتمة الشجر ويدها تنساب على وجهها المبلل بالندى ، وهي تمد يدها وتريه راحتها المبلولة تعكس أضواء مشعة كنبتة الشوك ، وتقول إنها تحب أن تحس الندى على وجهها) .

إنها ، وعيناها تهربان من عينيه بارتباك طفولي ـ تلتقي بعينيه لمدة ثانية ثم يشتعل الخدان ـ والوجنتان وقد اكتستا بحمرة زائفة كأنها صبية ، أشعرته أنها بحاجة إلى حمايته ، وأنه رجلها وأن جميع القرارات متروكة له منذ هذه اللحظة . فكر أنه يستطيع الآن أن يفعل أي شيء ولكنه لن يفعل شيئاً ، فضعفها جعله أخلاقياً .

وهو لم يعد نفسه لهذا الموقف ولا هو أراده . ويعلم أيضاً أنه في لحظة قد ينقلب كل شيء رأساً على عقب . وفكر بشكل مبهم أنها هي التي تحدد الأدوار وعلى الجميع أن يلتزموا بها .

قالت :

ـ تشرب قهوة قبل ما نخرج ؟ .

قال :

ـ حسن جداً .

بدا له أن الخروج قراره هو . كان ذلك واضحاً من سرعة خطوها في اتجاه المطبخ .

صوت الفنجان يرتطم برفق برخامة المطبخ ، صوت إشعال الكبريت ، صوت اندفاع الماء من الحنفية يتصاعد ثم يتوقف فجأة . أصوات غامضة . تلتها فترة صمت . وهو مختنق باللهفة حتى تعود إليه قبل أن . . وتنبثق كالمعجزة حاملة الصينية عليها فنجان قهوة وحيد .

فاجأته نظرتها اليقظة . كانت مزيجاً من الخضوع والمرح . (احتلت مكان تلك النظرة الشاردة، البطيئة للتلقي والاستجابة التي كانت تجعله دائماً يشك أنها تصغي إليه . قال لنفسه مرة وهو مذل بالمهانة ، يتلوى أمامها رغبة ورجاء ، ثم وقد قرر أن يمتنع عن زيارتها : «إنها تشعر أن لي نصف وجود»، وهو يطالع تلك النظرة المصوبة إلى الداخل ، تحيطها بسياج موله، يحميها من التطفل) .

ولكنه في نهاية الأمر عاشق ـ يحبها كما لم يحب شيئاً في حياته . يحبها كما هي ـ بأي وجه بدت وأي إطار اتخذت : يحب وحدتها، والضوء الشحيح ، والعطر العتيق الذي يفعم الجو ويلفه بملمس ناعم رطب، يحب ذلك الفجور الفظ ، الجارح ، المنضبط الذي يصدر عنها كإشعاع لا إرادي ، ويحب هذه الشقة المطلة على النيل تنقله إلى صورة قديمة رسمها لنفسه عن معنى الحياة الجميلة ، صورة جعلها الواقع والتجربة مضحكة، فجة . غير أن إلحاح الصورة القديمة استمر تحت السطح رغم كل واقع أو مواصفات . فما زال يحلم بالبيت، كمكان مجتزأ من العالم ـ عالم بذاته ـ البيت الذي يمثل الداخل مقابل العالم ـ الخارج . وبدا أن تطرف ذلك الإلحاح ، وجذرية الحلم، الذي كان على نحو ما تتويجاً لرحلة الحياة الصعبة قد ولّد هذه الشقة وجعلها امتداداً وإطاراً لهذه المرأة .

ود أن يقول لها إن لها وجه المادونا ، ووجه المرأة البدوية ، ولكن ذلك كان يحتاج إلى شرح ، إلى إيقاع أكثر هوادة، وهذا وقت الخروج .

على بسطة السلم ، بتلك النظرة العابسة واقتراب الحاجبين ، وهي تغلق الباب بالمفتاح ، ثم وهي تدفع الباب لتتأكد من إغلاقه، بدت امرأة أخرى تنتمي إلى ضوء النهار والروح العملي الذي يحدد خطوات امرأة في طريقها إلى السوق لتشتري حاجيات منزلها ،وبدت لذا ، مسلحة بالثقة والقوة الضروريتين لمواجهة العالم الخارجي .

وهما يهبطان في المصعد ، يختنقان في ذلك الصندوق الحديدي ، عادت إليه كوابيس النهار : الفزع والصمت واللامبالاة والتراب . تراءت له متربصة به مجرد أن يخطو خارجاً من المصعد . أخذ جسده يرشح بالعرق ، والماء البارد الذي اغتسل به كذكرى ألم تحت جلده .

اندفعا خارجين وكأن العمارة قذفتهما قذفاً .

أنسام ثقيلة بالندى ، أضواء مصابيح الشارع محاطة بضباب لامع ، برّاق، تبدو كقطع كريستال . للهواء ملمس يتخلل الملابس فينعش الأعصاب التي أرهقها الحر ورياح الخماسين . الهواء المثقل بالماء يشعره بالعري : ينفذ بين فخذيه ، وتحت إبطيه ، يتسرب داخل القميص إلى ظهره وبطنه ، وله ملمس بارد ، ناعم ، مدغدغ كيد امرأة . فكأنه وهذا النسيم الكثيف بالندى الذي تهيم في داخله عطور حرّيفة يلتقيان دون حاجز ، عاريين يتعانقان ويتداعبان فيزيلان آثار حريق النهار . . وبنشوة مخبولة يسائل غالب نفسه :

«كيف تحس المرأة بهذا النسيم؟» ويتساءل وكأنه يتقمص النسيم : «هل تحس بالهواء وقحاً ، بذيئاً ، دنيئاً ، ممتعاً يندفع من أسفل الثوب الضافي ويصعد من الكاحلين إلى ما بين الفخذين حاملاً حلاوة بذاءته وفجوره ، يلتف حول الفخذين ويعلو إلى البطن ، إلى الظهر ، ثم إلى النهدين يحيط بهما يرشف من عرقهما ، يداعب الحلمتين، ثم ينساب كأنه لسان ليتكئ على النحر ، يحس بلمسه على شفتيه؟ .

هل تستسلم له استسلامها لحلم يقظة سوّته الرغبة وشكلته وجسدته فأخذ يسكب رحيقه في عروقها ويظل يثيرها ، ويثيرها حتى تراه حقيقة . . ؟» .

ثم هدأ كما ينطفئ الضوء . كانت أضواء الإعلانات الحمراء والزرقاء الآتية من الشاطئ الآخر للنيل تمتد بعرض النهر ، ضاربة في عمقه ، مثيرة إحساساً بالوحدة .

أخذ يشعر وهو سائر بجوارها بالانتشاء ، بتحطم قوانين اللياقة الصارمة ، ذلك الإحساس الذي تثيره الكؤوس الأولى من الخمر الجيدة ـ إحساس بأنه قادر وقوي ، وبأن عقبات العالم وهمية . ومع هذه اليقظة توهج في قلبه الحب النادر . كان ذلك أشبه بالبكاء .

كان التفاف ذراعه حول خصرها تعبيراً عن هذا الحب . . أحس بمقاومتها . قال لنفسه : ربما كان ذلك بسبب حركته المفاجئة ، أو ربما فقدت توازنها وسوف تستعيده سريعاً . ولكن مقاومتها لم تتوقف ، لم تكن حاسمة ، ولكن ذراعه لم تكن مستريحة في وضعها ذاك . تصاعد الحب ، وفي قمته اندفعت الرغبة تعوي بجنون . كل شيء يعود إلى حاله القديم ، ولكنه أصبح لا يطاق . قال لنفسه : «لقد فقدت السيطرة على الموقف ـ متى سيطرت عليه؟ ـ » . لم يكن لهذا أية أهمية الآن بالنسبة له في هذه

اللحظة . ابعد ذراعه وكان ذلك احتجاجاً .

وسادت لحظات هدوء ، موت . الصمت ووقع أقدامهما ، وكأنه مشاهد يراهما في فيلم سينمائي . إيقاع القدمين والصمت والأشجار . . يراهما من الخلف . ثم اكتشف الحقيقة : كل شيء عاد إلى حالته الأولى . . أبداً من جديد . . ويفكر : علي أن أخرج من هذه الدائرة المفرغة ، لا يمكن أن يستمر هذا ، لا يمكن . .

بعد قليل قالت :

ـ مالك ساكت؟ .

كان صوتها رائقاً ، فيه رنة عتاب . قال لها وصوته قد أخشنه التوتر إنه في لحظات السعادة الفائقة يصمت . ولكنه لم يصمت . لأنه اكتشف أن الكلام متنفس من هذا التوتر . قالت ، وفي صوتها دهشة حقيقية ، هل هو سعيد إلى هذا الحد؟ .

لا يدري كيف تاه منه القصد ، ولا كيف اندفع إلى هذا الكلام المعقد ، الطويل في ذلك ، وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل ، قال لها إن لها جمالاً منفرداً ، يعني ، عندما نقول امرأة جميلة فهناك مثال مجرد للجمال نقيسها به ، ولكن أنت مثال هبط من حيث لا أدري ، فأنت الجمال الذي يقاس به . . ومضى هكذا . ثم ، دون مقدمات ، سألها ، لماذا لا تتزوجه؟ ليس فكرة الزواج بحد ذاتها هي المطروحة ، ولكن أن تظل دائماً قريبة منه ، وممكنة ، هذا ما يريده . . وأنهى ذلك بما يشبه البكاء : متى نضع حداً ، بأية طريقة ، بأي شكل ، لهذا كله ! إنني . . ماذا أقول . . إنني أنتحر . أنت تقتلينني . . قتلاً تقتلينني . .

حاول أن يصمت ولكن الكلام يضغط عليه ، كان يختنق به ، فواصل : لماذا لم يخطر له ذلك من قبل؟ إنها تحب إنساناً آخر ، أما هو فإنها تعطف عليه . . آه ، الشفقة . . العطف . . قال ، إن ذلك يجعلها كبيرة ، يشعرها بالرضى عن نفسها . . هذا العذاب ، لقد مللت ، مللت هذا العذاب . . مللت . . فلتصغي إليه ، إنه ليس بحاجة إلى عطف ، أو شفقة . .

صمت قليلاً ، ثم قال لها إنه بحاجة إلى الحنان .

فكّر : هل يوجد فرق بينهما ـ العطف والحنان ـ؟ قرر أن يتصل في الصباح بإدوار خراط ويسأله إن كان هنالك فرق بينهما سوف يقول إدوار :

ـ دقيقة يا أستاذ غالب! .

ثم يضع سماعة التليفون على المكتب ويأتي بذلك القاموس المهول ، ويقول :

ـ اسمع يا سيدي .

ويقرأ معنى كل منهما له . سوف يكون هنالك فرق . ما دام إدوار فلا بد أن هنالك فرقاً .

تكلمت المرأة . قالت إنها قبل قليل ، عندما رأته خارجاً من الحمام ، عندما هبطا ، وخرجا إلى الشارع ، كانت قد أحبته كثيراً.

رجاها ، دون كلام ، أن تستمر «والآن؟» .

ولكنها لم تزد كلمة واحدة .

وهكذا منحته سرها ، وقدمت له وعداً . رجته أن يكون رجلاً لتحبه . ولكن عذابه الممض ، إحساسه بأن كل شيء ينهار ، بأن عليه أن يبدأ شيئاً جديداً ، طويلاً ومملاً ، أفقده كل اتزان أو سيطرة على نفسه .

سارا صامتين . وقع أقدامهما إيقاع متعمد . نقيق الضفادع يصعد من الشاطئ نحوهما حلقياً شريراً . الطيور الهاجعة فوق الأشجار تطلق ، في نومها ، صرخات قصيرة ، نعقات مختنقة ، موجزة ، تصمت . وبرازها يسقط على أرض الرصيف سائلاً أبيض ، يكوّن بقعة مستديرة تنبثق منها خطوط دقيقة . قال لنفسه : «صمت الطبيعة مليء بالضجيج كصمتي» . استعاد العبارة وجاءته مترادفاتها دون مجهود : بكت السماء ، أزبد البحر ، لا تسقني ماء الملام . . وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت . . ما أتفه ذلك . . وزيادة على ذلك فسوف تظن أنه يمهد للبدء في الشكوى مرة أخرى . «لماذا تظن وحسب؟ من المؤكد أنه سوف يبدأ» .

«أين تقضي سهرتك الليلة؟ في الأوبرج ، طبعاً. ويمتد ضوء الإعلان طويلاً ، يمتد جرحاً أحمر ، دامياً على وجه النيل .

قالت :

ـ ساكت ليه؟ .

وهل كنت أنطق بالدرر ثم توقفت؟ قال لنفسه . قال لها :

ـ بفكر .

ـ تفكر في ايه؟ .

أتاه إدراك مفاجئ أنها تسعى إلى إذلاله . تريده أن ينطلق لتسمع عواء الرغبة . وبعد ذلك سوف تلقي إحدى عباراتها القصيرة المحكمة بوجه يتخلله الاحتقار والضيق دون أن تنظر إليه . إنه متأكد الآن أن لنظرتها ذلك الاستغراق الذي يشعره انها لا تشعر بوجوده . كيف وصفه؟ إن حضوره ، بالنسبة لها ، نصف حضور؟

قال لها أنه يصغي إلى ضجيج الليل . يعني بذلك نقيق الضفادع ونعيف الطيور ، وانسياب الزواحف الهامس ، المخشخش المخيف ، ثم أخذ يلوم نفسه لأنه ردد هذه العبارة التي حكم عليها بالتفاهة منذ قليل .

وبالمناسبة ، لماذا أنا فقط الذي تستغرب وتتساءل عن صمته ؟ لو سألتني مرة أخرى لرددت عليها بالتساؤلات نفسها : وإنتي ، ساكته ليه؟ .

صمت .

فجأة أسرع خطوها . أمسك بذراعها فالتفتت إليه التفاتة سريعة ، أخافه الوجه المقطب : النظرة المستغرقة ، والفم المنفرج الشفتين بكبرياء . ها هي تنساه وترتفع إلى عالمها . تنظر إليه ولا تراه .

وألح عليه إحساس بالهجر .

أي يوم هو هذا! يوم صاخب . . صاخب؟ صمتي ومرسي لا يكف عن الكلام ، والصمت الكئيب الذي هبط على ليلى فجأة ، فوق كوبري الجامعة ، الصمت في مبنى المباحث العامة ، الصمت في الأتيلييه ، الصمت في شارع ريحان ، وهذا الكابوس ـ الصمت ، ونسميه يوم حافل . حافل؟ ما معنى حافل؟ من احتفال؟ المشكلة إن هنالك أشياء كثيرة وكل إنسان يراها على نحو مختلف ولا يوجد إلا عدد محدود من الكلمات . . والإنسان يقفز بينها كالبهلوان . . الكتابة الصادقة صعبة ، بل مستحيلة . . هل تكتب؟ أجل ، إنني أكذب . هذه نكتة سوف أرويها غداً في مقهى سوق الحميدية ، أضواء كثيرة ووجوه في العتمة وسوف أحكيها . . ولكن من يسألني؟ من ينفذ الشطر الأول من النكتة فيسألني : هل تكتب؟ . . على أية حال فالنكتة سخيفة . . لم أقصد النكتة يا أخي . ! جلال ، هات واحد شاي ، اسمه جلال ، جلال بلا جلال ، نكتة ، نضحك . . كل ما كنت أود قوله إن هنالك الشيء ،

وهنالك رؤيتنا له : الشيء والكلمة . . في البدء كانت الكلمة . . الكلمة والشيء ديالكتيك . . صراع أوسع من ذلك . صراع بين الحياة والفن . . حاضر يا بيه . . واحد جيلاتي . . وعليها ـ أحبها ـ ألا تبني كثيراً من الأوهام . سوف أغادرها ولن أعود . سوف تقول !

ـ ما شي؟ .

بمعنى : انصرف ، أسرع بالانصراف . سوف أنصرف بالطبع . هذا ما لا شك فيه ، وسوف تنتظر وتنتظر وتنتظر ، وتسأل ولكنني ـ أستطيع أن أكون حاسماً ـ لن أعود . . » .

بدا له أمراً طبيعياً أن ينكسر خط سيرهما . هبطا بضعة درجات من رصيف الكورنيش إلى الشاطئ ، ثم هبطا يميناً درجات أخرى وانتهيا إلى شاطئ النهر . كانت تمسك بيده ولكنها متقدمة عنه خطوة . سأل نفسه : إلى أين نمضي؟ هل هناك كازينو أو قهوة أو غرزة حشيش؟ .

عند نهاية السلم الأخير اتجهت به يميناً إلى دغل ، تتدلّى من أشجاره أغصان كأنها شعر طويل ، تصور أن تكون الأرض لبصة ، ولكنه ، بعد الخطوات الأولى اكتشف أنها جافة . توغلا في الدغل يشقان طريقهما بصعوبة ، ويحدثان خشخشة . توقفت تحت شجرة قصيرة ، ذات جذع غليظ خشن ، وأغصان كثيفة متشابكة . فكر غالب في تلك اللحظة أن كل شجرة تختلف عن غيرها فكيف ننقل ذلك بالكلمات ، حين نكتب! اكان ذلك أحد هموم غالب التي لا تزول .

طلبت إليه أن يجلس . كانت مبهورة الأنفاس . قال :

ـ فين؟ .

يحنق . لأن أمرها له بالجلوس وكل ما يتم بدا أشبه بمزاح ثقيل . أصبح عصبياً . رآها تجلس . أمسكت يده وجذبتها بقوة لم يتصور أنها تملكها . سقط بجوارها . اكتشف أنهما يجلسان على دكة خشبية عريضة .

كانت صامتة تلهث . فكر أن كل همسة مجازفة ، وودّ لو كان الآن جالساً في بيته . . كل شيء بدا له ككابوس . لمس ذراعها لمجرد أن يتأكد من وجودها فشهقت وانتفضت ، فابعد يده . «ما معنى هذا؟ ولماذا أتت بي إلى هذا المكان؟» . كان يردد

لنفسه دون توقف . اقتربت منه وكأنها تحتمي به ، ووضعت رأسها على صدره . لم يكن وضعاً مريحاً ولكنه ارتضاه لأنه عجز عن فعل أي شيء آخر .

ثم أخذت تفك أزرار قميصه ووجهها مضغوط على صدره . تقبله قبلات سريعة على صدره ، ثم تتوقف لتمسك بين شفتيها بعض شعرات صدره وتجذبها ، وهي خلال ذلك تئن أنيناً متقطعاً ، أشبه بأنين مكتوم . . أخذ يطالع رأسها وهو يتحرك ببطء من طرف صدره إلى الطرف الآخر ، ثم يعود . كان يراقب ذلك بحياد وكأنه يحدث لإنسان آخر ، وهو يفكر أنه وضع غيرمريح ، غير مريح على الإطلاق .

كان شعرها تحت وجهه مباشرة فأحنى وجهه وأخذ يمرغه في الشعر ، ويقبله . كان الشعر في فمه ، حياً نابضاً ، مذاقه في شفتيه وطرف لسانه حرّيفاً . قبّلها حتى لا تشعر بالإهانة وهو يقول لنفسه : «لقد كنا في البيت ، وكان مناسباً لهذا» .

ومجرد خاطر يلمح عليه أنه من الطبيعي أن يتخيّل وجود وجه يتلصص عليهما بين البوص . فكّر : «إنه الخوف» .

ثم فجأة نسي خوفه ، علّقه لحين ، وأحس بها امرأة يعانقها ، امرأة يعشقها تمنح نفسها له . بإبهامه وسبابته أمسك ذقنها ورفع وجهها إليه . كانت مغمضة العينين ، تنفسها ثقيلاً وشفتاها منفرجتين في حالة توقع . أخذ يقبلها برقة . يذوق شفتيها ، وجنتيها ، عينيها المغمضتين ، والحب يتصاعد ومعه الرغبة تعلو ، وهو يكبح نزوة مجنونة أن يأكلها أكلاً ، فقال لها وكأنه ينتحب :

ـ حبيبتي .

وردت عليه بأنة طويلة ، عميقة ، وارتفع فمها ، فإذا هو لصق فمه، وإذ لسانها حياً ، نافذاً ناعم الملمس ينساب في فمه . . وهي تلتصق به ، جسدها يتجمع ويقترب ، يموج ويتماسك حتى أصبح لصقه تماماً ، وهو يحتضنها ، يستجيب جسده لإيقاع جسدها ، ذلك الإيقاع الذي بدأ منذ تلك اللحظة ولم يتوقف . الدم الذي يجري في عروقها ، توترعضلاتها وانبساطها كان في جسده . . انفتحت عليه بشبقها ودمائها وعضلاتها وأصبحت تجري فيه ، تنفذ إليه وتتخلله ، تنغرس في لحمه وأعصابه . . وهي ، خلال ذلك ، تلهث وتتوجع وتئن . . بكماء على صليب عذاب . . وهو ، يناديها .

ـ حبيبتي . . ! .

وكانحسار الموجة ، كما تتوقف الحركة في مشهد سينمائي ، انطفأت الرغبة في داخلها . . . توقفت ، معلّقة ، مؤجلة ، وحل الخوف مكانها . .

هل حدث ذلك لأنه سمع صوتها الموجوع المستغيث في ذلك الهدوء؟ أم أن حركة ما ، خفية ، غامضة جعلته يشعر بخطر قريب يكاد ان يدهمهما؟ لا يدري . . . ولكن وضوحاً عقلانياً هبط عليه جعله يقول لنفسه : لا ، ليس هذا بالمكان المناسب ، ولا الوقت الأنسب لفعل مثل هذا! ماذا لو جاءت الشرطة . . ؟ ثم نهضت من شاطئ النهر ، من مكان غير محدد ، تلك الحجرة الطويلة الكئيبة في مبنى المباحث العامة ، والوجوه الصامتة ، المحملقة ، الخائفة ، المتوقعة ، ومشهد ذلك الوجه الأصفر وهو يرتعش ويبول على نفسه . . نهضت أمامه في لمحة ، ثم انسابت في داخله ، هبطت إلى أحشائه تستلب حبه ، ورغبته ورجولته . ثم اختفى ذلك كله ليختنق بتساؤل : «هل جنت هذه المرأة؟» خطر له أنها ربما كانت هكذا على الدوام ، ولكنه الآن فقط ، وجسدها يهاجمه بعنف ، أدرك هذه الحقيقة .

ثم أخذ يعانقها مجاملاً ، وشيئاً فشيئاً انتقلت إليه بكليتها ، سكنته : لهاثها ، توسلاتها ، أنينها وأخذت الرغبة في داخله تتصاعد . «إنه متأكد إن وجهاً بين البوص يتلصص عليهما . . إنه يراه كثيفاً يراوغ برأسه حتى لا يراه أحد ، وحتى يستطيع أن يرى كل شيء بوضوح . . . ثم قال لنفسه : هذه أوهام يخلقها الخوف» ، ولم يستطع أن يمنع نفسه أن يفكر إن كانت ليدي مكبث قد قالت عبارة كهذه لزوجها .

فكر بيأس : فليكن ما يكون . ليس هذا وقت التراجع ، وقد أدار رأسه الهواء المثقل برائحة الأشجار ، والأعشاب المتحللة ، والمياه الجارية ، وروائح العرق والندى على جسديهما . ضمها إليه وهو يتأمل وجهها : عيناه المغمضتان ، وهمسها الخشن الثقيل ، يتساءل إن كان خائفاً ، إن كان يحبها ، إن كان مستعداً أن يحبها ويحبها . . للوهلة خيّل إليه أن سره قد افتضح . . خوفه قد ظهر . . ثم تبين له أنها تهذي في نشوتها ، وأن هذه الأسئلة موجهة منها وإليها . .

قال لها :

ـ حبيبتي! .

انتفضت واقفة . خلعت ثوبها وألقته على الأرض ، وأخذت تتعرى . عندما

انتهت وقفت أمامه طويلة شامخة ، قمرية وسط الظلمة ، جسدها يبرق بلمعة فسفورية ، وهي تقف محنية الرأس ترقب كفيها وهما يمسكان بثدييها ويرفعانهما ، واستغرقت في ذلك فخيل إليه إنها سوف تقبلهما . ثم امتدت ذراعاها إلى الأمام ، ومالت نحوه ، واضعة كفيها على كتفيه ، دافعة إياه إلى الخلف ببطء ، وشعرها الكثيف يتساقط خصلة وراء خصلة على وجهه ، وأحس به ندياً ، مراوغاً ، لعوباً ، وثدياها يتجهان إليه ، يلامسان صدره ثم يبتعدان ثم يتوقفان في مسافة الملامسة والابتعاد ، يدغدغانه . . ثم . .

لا يدري كيف ، ولكنه رأى نفسه مضغوطاً بين فخذيها ، وقد أصبح جسده مجرد أداة ، مجرد استجابة ، وانبثقت في داخله رغبة مجنونة ، تحاول أن تتساومه مع ذلك الإيقاع القوي ، الجارف ، وتستسلم له . وخلال ذلك تدفقت الضراعة من فمها والتوسل ، مشحوناً بأنين طويل ، تطلب إليه أن يهلكها ويذيبها ، ان يدمرها تماماً ، أن يذلها ، وهو يجاهد كأنه يلحق بها ، أن يمتلكها ، وأصبح ملمس ذلك الجسد الصلب ، المرن ، العنيف كأنه فولاذ مصهور ، الدبق بالندى والعرق واللعاب ، بعصاراتها الكثيفة ، الثقيلة الرائحة ، كحلم يتحقق ، ولكن بطريقة نصف كابوسية .

أحس وهو يستجيب لها أنه لم يعد يملك أية سيطرة . أحس بنفسه كوظيفة لتلك المرأة ، أداة لها تستعملها بكل هذه الضراوة لتلفظها بعد قليل كشيء لم تعد بحاجة إليه ، وقَبِلَ هو ذلك ، واستسلم له . . قبل دور ذكر النحل الذي يلقح الملكة ، ليموت بعد ذلكَ في قمة اللذة والإجهاد حتى تعيش الملكة بعد ذلك . هذا ما أحسه بالفعل ووطّن نفسه عليه .

خطر له على نحو مبهم ، خاطف ، غير محدد ، أنه باستسلامه لعنفها كان يستسلم لإيقاع قدري ، لنبض الكون الكبير ، وها هو يلقى جزاءه : هذه المتعة الفائقة . إنه يقترب من ذلك السر المدهش الكامن في الكون ، لتلك الحركة الشاملة التي تعمه ، حركة التفتح والانكماش ، وصوتها اللاهث ، الأبكم ، الضارع ، الباكي . . أنينها الموجوع ، وابتهالاتها ، كان صوت اندفاع المجرات ، ملايين الكرات الهائلة ، الملتهبة عبر الفراغ الكوني الذي يستحيل تصوره .

وبعين طفل ، وبقلب ضاحك ، رأى الفجر يطلع بدائياً ، وحشياً ، يلمع على الماء : خيطاً طويلاً من الضوء الأبيض المبلول يشق عرض النهر ، قاطعاً كالسيف . .

يحيط بهما وسط هذا الفردوس الجنسي الذي يمرحان فيه خارج كل عرف أو وقار. أضواء المصابيح البعيدة، وسط هذا الضوء الفريد الذي تسرب إلى الكون، كانت كالدرر: جميلة ومشتهاة. رأى ذلك في لمحة خاطفة ثم غاب عنه في ذلك اللهاث المحموم.

تزايد إيقاع جسدها، واشتد عنفه، وبصرخة مكتومة، واندفاعة قوية توقفت، وأخذت تهبط ببطء.

اغتسل بماء النهر وارتدى ملابسه. كانت ذراعه، وعضلات الظهر والساقين تؤلمانه بقسوة. وعندما وقف أمامها، أحس أنه محدد الجسد، والطول.

* * *

عيناها ساطعتان، يقظتان بالشباب والجموح. كانت تسير صامتة، حادة النظر كأنها تتفحص شيئاً بعيداً. صمتها منذر. الرهبة تحيطها كمجال مغناطيسي. اقتحم ذلك المجال، مدافعاً خوفه، مؤملاً أن يكون سكونها المشحون المنذر بعنف غير متوقع مجرد وهم من صنع خياله.

قال إن شيئاً غريباً قد حدث. هناك، تحت، حيث كنا.. كنا معاً.. أعني تحت، تصورت، شاهدت الفجر يبزغ. ثم نظرت.. أعني بعد ذلك.. إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. وعاد الليل أسود. وفي محاولة لأن يكون طريفاً قال: بدا الليل كسائل أسود. إنه يراه دائماً هكذا.

ما تزال صامتة ذلك الصمت المنذر. منذ الكلمات الأولى أحس أن عليه أن يصمت، أن يخف حتى لايكاد يوجد، غير أن طوفان الكلام المداهن، الراجي، اندفع، وكان عاجزاً عن إيقافه.

ومضى يقول: هل كان يتصور، في الصباح، وهو مختنق بجو الخماسين، أن يشعر بكل هذه السعادة؟ والجو، هذا الجو، أجمل جو رآه في حياته.

كان يقصد مدحها وليس الجو بشكل خاص.

قال:

ـ جعانه؟.

ـ لا.

ردت بقطع وهي تسرع.

قال لنفسه: «علي أن أصمت، أن أختفي، أن أبتعد». قال لها، محاولاً التفكه، إن سؤاله يتضمن أيضاً كونه جائعاً. لم ترد.

أحس بالإهانة نافذة كنصل الخنجر: يدعو نفسه إلى بيتها وتتجاهل هي ذلك. عبر عن نفسه بالغضب وإحناء الرأس. ثم تجسدت أمام عينيه صورتهما: كانت رؤية من الخارج: المرأة تسير شامخة الرأس، كبيرة، معتزة، متعالية، وهو، مقهور بخيال الهزيمة والبؤس.. يتكلم ويتكلم، يرجو، ويداهن ولكنها لا تصغي إليه، لم تعد بحاجة إليه. وفي مباراة الصمت يكون دائماً هو الخاسر.

فكر أن ذلك حدث قبل الآن. متى؟ كيف؟ الثوب الأسود الطويل، الوجه المغضّن، والزقاق الذي يهبط من قمة التلة التي تقوم عليها الحارة الشرقية في القرية. إنه يتذكر. اجتمع عدد كبير من الصبية واغتصبوا أصغرهم. وصل الخبر إلى أمه فجاءت به. ما زال يذكر وجهه، يذكر العينين التي تحدق في الناس ببلاهة والملابس الممزقة، والصبي يسير بجوار أمه كالمنوّم.

عبس غالب فجأة، فلقد تذكر أن الصبي كان طيلة الوقت يبتسم، تلك الابتسامة المعتذرة التي لا يستطيع إيقافها.

أبعد عن خياله هذه الصورة بعنف، وقال لنفسه: «إنني أتوهم أشياء لا وجود لها. إنه مجرد بحثي عن الدراما»، وسار بجوارها مصمتاً، عاجزاً عن التفكير في أي شيء محدد، أو عن اتخاذ أي قرار.

عندما وصلا أمام باب عمارتها توقف في مواجهتها ومد يده وقال بتجهم:

ـ طيب، السلام.

لم يكن قد اتخذ قراراً كهذا، ولكنه وجد نفسه يقول ما قاله. قالت:

ـ تعالى تعشى.

ودخلت العمارة دون أن تلتفت إليه أو تتأكد من أن سوف يتبعها، فقد قالت عبارتها وكأن موقفه مجرد عِناد مثير للأعصاب، أو كأن ما قاله كان مجرد سؤال للتأكد.

لم يدر كيف يستمر في رفضه. تردد قليلاً ثم تبعها. خلال انتظار هبوط المصعد،

ثم صعودهما فيه ، ودخول الشقة حاول أن يجتذب نظرتها ولكنه فشل . لم يكن ذلك بسبب أن عينيها كانتا تهربان من عينيه ، بل لأنها كانت مستغرقة في شيء ما .

خلال إعداد الطعام وإحضاره كانت تبدو منشغلة فلم توجه إليه كلمة واحدة أو حتى مجرد نظرة . وبدا ذلك طبيعياً ، أو على الأقل ، حاول أن يقنع نفسه بذلك . لم تشاركه الطعام ، بل اكتفت بسندويتش جبنة صغير أكلته بشهية ، ثم نهضت وعادت بالشاي . أعدت الشاي بالطريقة التي تعلم أنه يحبها ، بأن تضع الشاي والسكر والنعناع الأخضر في الكباية ثم تسكب الماء المغلي عليه . وضعت الشاي أمامه وقالت له إنها لم تقلّب السكر ، ثم جلست على الكنبة . وضعت ساقاً على ساق وأدارت وجهها إلى شيش الشباك تطالعه بنظرة ثابتة . وجلس غالب في مواجهتها يشرب الشاي ببطء ، ويتأملها بخوف ورجاء .

لم تقل شيئاً ، وحاول هو أن يقنع نفسه أن لا داعي لأن تقول شيئاً ، معتمداً على وهمه القديم الذي يعلم مدى سذاجته : إنه ما دام مارس معها الجنس ، فالذي بينهما أعمق من كل الكلمات . خال ذلك ، فوضع زمن انتهائه من كباية الشاي لبدء الحديث . انتهى من شرب الشاي ولم يحدث شيء . أشعل لها سيجارة وقدمها لها وقال :

ـ سيجارة .

تناولتها دون أن تنظر إليه . كانت تدخن بطريقة مضحكة ككثير من النساء ، تجذب النفس ثم تفتح فمها على الفور فيخرج الدخان غيمة صغيرة زرقاء . قال لنفسه وكأنه يدينها : «لو تدري كم هو مضحك إصرارها على أن تدخن» . ولأول مرة في هذا المساء يشعر بتعال عليها . ولكن ذلك لم يدم إلا لحظات . انبثق في داخله حب حنون ، رقيق ، وتصاعد مع الضحك . طفا الضحك على وجهه . أطفأت السيجارة ـ في حقيقة الأمر هشمتها تهشيماً مع أنها لم تشرب إلا أقل من ربعها ـ ظلت أجزاء صغيرة ، سوداء من السجارة مشتعلة .

ثم عاد كل شيء إلى ماكان عليه .

فلقد استمرت تنظر إلى الشيش ، في لفتة هذا الوجه ، في استغراقه . . في استغراق العينين في التحديق بالنافذة ، في الجلسة المتصلبة رفض قاطع . في عطفة الوجه المتعالية ، وشموخ العنق خطر متربص أثار في داخله إعجاباً وخوفاً قديمين ، كمنا في ذاكرته منذ عهد الطفولة . . كان خوفاً من عنف مفاجئ ، وغير مبرر . تأمل

البروز الحاد للثدي الأيمن بسبب التفاتتها إلى اليسار ، والردفين القويين يملآن الكنبة فأحس إن هنالك هشاشة ما ، نقطة ضعف عجز عن تحديدها في هذا العنف الصامت ، المصمت ، أخذ يتأمل الثدي والردفين وحاول أن يقرأ فيهما شيئاً . كانت أليفة وودودة ، وخارج ذلك التعالي الغاضب . حاول أن يفهم ذلك ويحدده ، فجاءته الكلمات وكأنه في حالة سيولة وهو يكتب ، في حالة حدث ، لقد عرفها ، عرف الثدي والردفين فلا يمكن أن يخوناه . التجهم يأتي من مصدر آخر .

خطر له أنها ربما تكون تداعبه ، رغم أن لا شيء يوحي بذلك . . الأغلب أنها تداعبه . هل يقبلها؟ ولكن إرادته مشلولة . «ولكنها تفعل ذلك كثيراً معي!» قال لنفسه ، ولكن ، لا . . في تلك اللحظات يكون لها نظرة أخرى ، نظرة تائهة تجعله يشك أنها تشعر بوجوده . أما الآن ، فإن حضوره باد في عينيها الصارمتين وفي عنف التواء جسدها : حضور ملح ولكنه مرفوض . هو هكذا دائماً ـ قال لنفسه ـ يتوهم أشياء لا وجود لها . إن ذهنها مشغول بشيء ما ، أو على الأصح ، إنها متعبة . هذا كل ما في الأمر .

قال وهو ينظر إلى ساعته :

ـ ياه ، الساعة ثلاثه وعشره .

وللتو أدرك أنه لم يكن هنالك داع لهذه اللهجة الدرامية . التفتت إليه بقوة وسألته عما قال . كان في نبرتها ما بدا وكأنها تطلب منه أن يردد بذاءة قالها حتى تخزيه بها .

قال :

ـ قلت الساعة بقت ثلاثه وعشره .

لأول مرة يراها في هذه الليلة بكليتها : حضوراً عدوانياً ، بالغ الجمال والحيوية وفي لمحة خاطفة امتد أمامه عاره : لقد فشل أن يثبت رجولته أمامها . وتصور أنها أهانت نفسها لترضيه .

ود أن يعتذر . قال :

ـ أنا . .

وتاه منه الكلام .

وهي ترخي جفنيها ، وكأنها تتحداه أن يستمر ، ثم رفعت عينيها ببطء إليه

وتوقفتا عندما التقتا بعينيه . قالت إنه بالطبع سوف يكتب عما حدث الليلة . قال غالب :

ـ مش فاهم .

قالت : لقد حدث ذلك من قبل ، أليس كذلك ؟ قال إنه لا يفهم ، لايفهم شيئاً ، ما الذي تقوله؟ قالت :

ـ في روايتك .

ـ روايتي؟ .

قالت :

ـ رواية الضحك . ناديه . مع ناديه .

قال غالب لنفسه : «أي جنون هذا؟» . قال لها :

ـ إيه ، إيه الحكاية بقى؟ .

واستمرت هي تتكلم دون أن تأبه لمقاطعته ، قائلة ، إنها منذ البداية وهي تعلم أنه سوف يكتب عما حدث . في كل خطوة يخطوها كان يدبر . كان يدبر كلاماً . وهذا وحده كاف للحكم عليه أنه بلا أخلاق . . أن الحياة بالنسبة له وسيلة للاستعمال . وهو بهذا يهين نفسه ، ويهين كل إنسان له صلة به .

كان واضحاً أن الكلام يضغط عليها وأنها لا تستطيع التوقف . قالت بحدة وهي تمسك ثدييها وساقيها إنه جعل جسدها غريباً عنها ، إنها تشمئز من كل عضو فيها عندما تراه موضوعاً للتأمل ، إنها ملوثة . .

سأل غالب نفسه : «هل جنت؟» . قال لها :

ـ أنا . حاسس إني بعيش في كابوس .

قالت إنها تعلم ذلك ، وترى عينيه تحيضان بالدموع ، ولكنها لا تكترث . بكاؤه سوف يكون موضوعاً للكتابة وبهذا سوف يكون خارجه . قالت إنه لم يعد بإمكانه أن يحس ، أو ينفعل . ما دام كان بإمكانه أن يحكي كل هذه التفاصيل عن نادية ، ففي أية لحظة أحبها ، وفي أية لحظة استغرق أو نسي نفسه . . الا ينسى قبلة ، أو حركة ، أو تنهدة واحدة ؟ لقد مات الإحساس فيه ولم يبق ألا الخوف . . وبالطبع سوف ينسى أن

يذكر أنه كان يرتعش خوفاً بين فخذيها ، وأنه تحوّل إلى مجرد أداة لها . .

فكر غالب ؛ «والبذاءة أيضاً؟ أين تعلمتها؟» .

قال بصوت جعله البكاء نحيلاً :

ـ مش معقول! مش معقول! .

وهو يعلم ، في أعماقه ، أنها صادقة ، أنها وضعت إصبعها على الموت الذي تسلل إليه . لقد توقف عن الحياة فجفت ينابيع الخلق في داخله ، وأصبحت الرؤى تأتي ولا تنصهر في كيان واحد . هل يركع أمامها ويعترف؟ سوف ينال مزيداً من احتقارها ، فهي في هذه اللحظة ترتاب فيه ولا تصدقه . فكّر أنه سوف ينتهي الآن من آخر جرعة من الشاي وسوف يخرج ولن يعود أبداً ، وبهذا سوف يكون قد فقد أجمل شيء في حياته . لن يكون لشيء بعد هذا طعماً .

نهض . رأى أنها اندهشت . قالت ، متى ستراه؟ قال إنه لن يجرؤ بعد الآن أن ينظر في عينيها . . وكانت عيناها جميلتين جمالاً لا مثيل له ، مترعتين بضوء أسود ضاحك ، ذكي .

قالت :

ـ ما تمشيش وانت كده! .

ـ لازم . ،

ولم يستطع أن يستمر .

ـ نام هنا .

قالت ، ونهضت وأمسكت يده . جذب يده واتجه إلى الباب . تبعته . قالت وهي تقف في الباب المفتوح :

ـ إيه اللي عملته ، إيه اللي عملته فيك! .

التفت إليها ، وحاول أن يقول شيئاً . امتنع الكلام عليه فأدار وجهه وواصل هبوط السلم .

* * *

النيل أسود ، زيت أسود ، رؤوس الموجات الصغيرة للغاية ـ كأنها حلقات

سلسلة ـ تبث ضوءاً معتماً . أضواء الكازينوهات وأضواء الإعلانات انطفأت . .

الإعلانات تضيء حتى ـ الساعة الآن الرابعة والربع ، سبعة عشر دقيقة ـ الرابعة؟ رجل هناك يضغط على مفتاح الضوء تك يضيء تك يطفيء، ربما في الرابعة إلاربع على عادة الموظفين التزويغ ـ تزويغ من زاغ من يزوغ ـ هناك رجل في الستين من عمره عمله الوحيد أن يضيء الإعلانات ويطفئها ، أي تتويج رائع لحياة امتدت ستين عاماً، ابتدأت في الخدمة في البيوت ، كان يضاجع الخواجاية السمينة ، يا محمد تعالى هنا، ويعلوها . . يا جدعان، يقول لأصحابه ، حاجه ملبن ، حاجه قشطه ، يا جدعان احنا متجوزين خفر . . بيضاء وسمينة ، ماذا يريد أكثر من ذلك؟ ظن أنه سيد البيت «إيدك على خمسه جنيه» ظن أنها تحبه . . الخواجات دول هبل يا عم . . وتصرف على هذا الأساس . . أخرج بره يا كلب ، إنتي خدامه يا مهمد! ثم عمل بواباً ، ثم . . استحم قبل أن تلمسني . . لا تلمسني إلا عندما أريد ذلك . . . من تظن نفسك؟ في باب اللوق دون شك . . . حياة ممتعة خصبة التي نعيشها، أليس كذلك؟ فما دمت يا أم عتريس ، عتريس ؟ يرتفع حاجباها وتتسع عيناها . . . مش مهم ، عتريس، أوناسيس، خلطبيس ، ما دمت لا تعرفين كيف تطبخين ـ الرجال أمهر من النساء في الطبيخ ـ والشقة كالمزبلة «يا امرأة الكل ما مزبله» يصرخ يوسف وهبي وهو يمد ذراعه على آخره . . . ماذا كنت أقول ؟ الخواجاية السمينة؟ بعد ذلك . . بعد ذلك . . آه ، كالمزبلة لان كل هذا يحتاج إلى مهارة وذكاء ، ولكنك قادرة على الأقل على المجيء في السابعة صباحاً . . إن هذا لا يحتاج إلى مهارة . . أعلم ، أعلم أن عجلة الأوتوبيس ضربت في الإسعاف ، دائماً تضرب في الإسعاف ، في الأردن يقولون بنشر ، بنشرت السيارة، الأغلب أنها تحريف للكلمة الانجليزية Puncture ، لماذا الأغلب؟ ذلك مؤكد، أسود وسميك قاموس أوكسفورد، يحدث ثقباً في عجلة السيارة أو البسكليت . . . ماذا كنت أقول؟ السيارة. بنشرت. أعلم ، أعلم أن عجلة الأوتوبيس ضربت في الإسعاف وأنك انتظرت نصف ساعة حتى جاء أوتوبيس آخر ، وأن زوجك الرابع عشر لا يعطيك مليماً واحداً ، وأن أولادك سوف يموتون جوعاً ، ولكنني أنا نفسي سوف أموت جوعاً من طبيخك المرعب ولا داعي لأن أكرر أنك تبالغين في ثمن اللحم والخضار ، والجرجير غني بفيتامين ج ، يعطي مناعة ضد البرد ، ماذا كنت أقول؟ ماذا كنت ؟ أين علبة السجائر؟ لا بد أنها امرأة ، وماذا تفعل امرأة في

الرابعة وسبع عشرة دقيقة إلا إذا كانت مومساً ، مومساً فاضلة ، مومساً تعلم الفضيلة لأنها سوف تكون في التسعين من عمرها ، الساعة الآن ، آه ، أربعة وخمس وعشرين دقيقة . . . نسير معاً ، ماذا . . ؟ أهو أنت؟ مساء الخير يا شاويش ، أيوه معايا سيجارة ، أنت الأحسن ، الساعة ؟ أربعة ، تصبح على خير . تصبح على خيل . . نكتة رائعة! المصريون اشتهروا بالنكتة . . رجل في الستين يعود إلى بيته في الخامسة صباحاً ، تعبان يا عيني في الشغل من الخامسة مساء ، والزوجة صبية تزوجها لمجرد انه صديق لأبيها المعلم جنتيره ، إنت عارف يا معلم عايز واحدة تلمّني ، وكلام . . يرفسها بقدمه لتعد له الشاي ثم يضاجعها . . هذا النذل يعتقد أن له كل الحقوق لمجرد أنه يمد يده ويشعل الضوء . . هذا مونولوج داخلي ، مجرى الوعي يعني ، تتابع أفكار ، تداعٍ ، وغلطة جيسم جويس أنه لم يعرف أن الإنسان يفكر في أشياء متعددة في الوقت نفسه ، همنغواي يقول إن عينيه . . قطعة سوداء على عينيه . . . وبالمناسبة ، ما هي وظيفة موشيه دايان؟ يقود الجيش ، ويقول للشعراء العرب لماذا تهرّبون قصائدكم إلى الخارج؟ إننا ننشرها هنا ، فدوى طوقان تكلمه بصراحة ، ويقابل مخاتير القطاع ، ويهددهم ، وينقب عن الآثار ، ويسرق بعضها ، ويقرأ كل يوم كتابين ، ويلقي بعض النكات عن بن غوريون : مجموعته فيها رجل واحد : غولدا مائير ، نكتة ، حس الفكاهة ، بالإنجليزي Witأقولها Wet ويضحكون . تصوروا كلمات موشيه دايان مبلولة ، مبتلة ، ما الفرق ، الأغلب أن مبلولة بللها أحد ، مبتلة بللت نفسها ، في السرير بالليل ، طويلة وهبلى وتبلل نفسها بالسرير ، فتضع تحتها مفرش بلاستيك ، في هذا الصيف؟ تزيد الحرارة وتصل إلى درجة الغليان فتحدث حوادث مؤسفة على بسطة السلم وفي داخل المصعد وعلى شاطئ النهر ، ثم تلقى خطب عصماء عن الأخلاق ، وتبتل مرة أخرى ، مبتل ، لنرى . . بلل فعل بل فع اللام مشددة فعع مبتل مفتعع ، أنت ولد مفتعع . . مفعول به منصوب بالفتحة ، نائب فاعل ، نائب الملك ، كلمات كثيرة عندما أكتب تهجم علي : بدالّة تبين فجأة ، لاخلاص منها ، أكتب وأبحث عن الكلمة ولاغير بدالّة أو تبين . . . جنينة الحيوانات The zoo نمر من قربها ، يدي تحيط بخصرها وأشم رائحة نتنة ، رائحة الأسد ، لا يستحم في هذا الصيف؟ قابله الأسد وقال . ماذا قال ؟ آكلك أو أضاجعك؟ وماذ حدث بعد ذلك؟ يقول الآخر بلهفة. كأنك لا تعرف؟ لا . أكلني طبعاً . واضح؟ ليست ضاجعه ولكن كلمة أخرى تمنعها الرقابة ، الرقابة على المسائل العسكرية فقط ، ما حدث بينه وبين الأسد مسألة

عسكرية، عملية عسكرية، المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، مؤسسة بيع الملابس يباع فيها تبغ أمغورا، ماذا كنت أقول؟ آه، تذكر، موشيه دايان . . . قال موشيه دايان : مشكلتي إنني مدني أعمل بين العسكريين، الأغلب أن ذلك صحيح لأنه كان يحب امرأة اخرى طيلة الوقت، يهبطان الدرجات إلى الدكة العريضة، يخلع بندقيته، أعبدك، تقول . . لا يخاف . . بندقيته بجانبه . من؟ من؟ تذكرت، موشيه دايان، طلق زوجته وتزوج الأخرى، هذا طبيعي . ووقفت يائيل دايان مع أمها، قالت عن أبيها إنه حلف، فليكن، ولكن تلك المرأة لن تقول له : كنت ترتعش بين فخذيي . . ونظر إلى عينيها، وأنظر لأرى إن كانت تمزح . . تقوم وتعانقني . . تعانقه حين سمعت خبر تطليق زوجته؟ هل هذه حقائق أم مجرد تكهنات؟ المشكلة أن هنالك وكالة أنباء تنقل عن صحيفة، الصحيفة تنقل عن مصدر مطلع يرفض ذكر اسمه، والمصدر المطلع وثيق الصلة بالدوائر العليا، وهنالك دائماً متحدث رسمي ينفي، والصحيفة تؤكد، إننا بحاجة إلى جهاز إخباري صادق، هذا حدث وهذا لم يحدث، كفاءة إخبارية، وما دامت لا توجد كفاءة، نظفي الشقة على الأقل وتعالي في الساعة السابعة، وأنا في حقيقة الأمر لست مسؤولاً عن أولادك، أعني لا تهتمين بعملك ومعنى هذا أنك لا تهتمين بأولادك، مثل شعبي عن الذين لا يهتمون بمصدر رزقهم نسيته . الصراع من أجل لقمة العيش، الصراع العربي ـ الإسرائيلي، هذا الصراع بين موشيه دايان وايجال آلون الذي لا ينتهي ولا يحتد . .

الجزء الثاني

عندما توحّدت الرؤى الممزقة

ليزا لا تفهم شيئاً

عزيزتي ليزا

تحية حارة جداً ، جداً

مررت بك فلم أجدك أيتها المتشردة . حدث ما يلي :

ـ شرحت لي امرأة سبب افتقادي للخيال ، فاستعدت نفسي .

ـ أكتب كالمجنون . أرجو أن يسعدك ذلك .

ـ يبدو أنني في حالة غير طبيعية حتى أكتب لك كلاماً كهذا . سوف أشرح لك . تعالي إلى البيت فأنا موجود .

غالب

عندما فتحت باب الشقة وجدت ورقة مقذوفة من تحت عقب الباب . هذا نصها .

غالب ! أنت مجنون لأنني لم أفهم شيئاً من رسالتك ، وكذاب أيضاً لأنني أتيت ولم أجدك في البيت . لن أخرج الليلة من البنسيون .

مجنونة اخرى : ليزا

مرثية

أفل نجم بسيوني وهو في قمة مجده . في إحدى لحظات النشوة الفائقة التي قل أن يعرفها بشر ؛ لحظة نفذت كالسهم عبر القيم الراكدة ومواضعات من يعيشون على السفح . هبط بسيوني وهو كالنسر المحلق ، ممسك بظروف حياته ودروبها في قبضة يده . سقط المخيف القادر ، المرجو ، المرهوب . اشتعلت شرارة العبقرية طويلاً ، وقد ظن ـ يا لغرور بني آدم ـ أنها دائمة ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، وسقط بسيوني من القمة ، ولامس جبينه الشامخ القاع .

يُشاهَد الآن بسيوني يسير في الطرقات غائب النظرة ذاك الذي كانت عيناه الحادتان ـ عينان زجاجيتان ـ تنفذان إلى مكنونات الصدور وتكشفها وتسجلها في ملفات الأوانة الدائمة ـ ملفات وزارة الداخلية .

ولكننا تعجلنا في ذكر النهاية دون شرح المقدمات ، فبدونا كالشامتين به ؛ أو كأن حياته العريضة الطويلة هي مجرد تلك السقطة . ولكننا إن أخطأنا في المنهج ، فأرجو ألا نتهم بسوء النية ، أو أننا نحاول أن نحقّر شأن العظماء .

على كل حال ، فلندع هذه المناحة جانباً ، ولندخل في الموضوع مباشرة متحرين التحديد والدقة قدر الإمكان رغم ضآلة المراجع التي بين أيدينا .

قبل بداية الحرب العالمية الأولى بشهور قليلة ـ ليس بإمكاننا ، مع كل أسف ، أن نذكر اليوم والشهر بالتحديد ـ ولد بسيوني . الاسم الكامل : محمد بسيوني أبو العلا حسنين ـ كان ذلك في حجرة صغيرة في ربع كبير ، في أحد حواري حي السيدة زينب . كانت حارة ضيقة مجهولة بالنسبة لسكان الشوارع الواسعة .

حين ولد بسيوني لم تقم الأفراح ولا علقت الزينات ، بل مر هذا الحدث بأقل قدر من الضجة . لم يكن هذا بسبب التواضع ، ولكن بسيوني كان بالنسبة للأب المجهد مجرد فم آخر بحاجة إلى طعام يصعب الحصول على الكفاية منه حتى بدون وجود هذا

الطارئ الجديد .

ومثل الكثير من العظماء لم تظهر عليه دلائل النجابة المبكرة . والأغلب أن حكاية دلائل النجابة المبكرة هذه التي تظهر على العظماء في سن مبكرة هي مجرد وهم شائع مبعثه الاعتقاد أن الرجل العظيم كان عظيماً منذ اللحظة التي انحدر فيها زاعقاً من بطن أمه . ولكننا نستطيع أن نثبت بالكثير من الأمثلة أن العديد من الرجال البارزين والعظماء قد تميزوا بالغباء إلى ما قبل لمعانهم الخاطف .

وعلى أية حال فهذا ليس موضوعنا رغم أهميته . فلندع هذه المسألة جانباً ، التي ربما عدنا إليها في وقت آخر . نكتفي بالقول إن بسيوني في مرحلة طفولته لم يكن يتمتع بتميز خاص في كتّاب الشيخ محمود الذي أمضى فيه فترة قصيرة ، ولكن في هذه المرحلة عرفت عنه جرأته ، فقد روي عنه أنه ما يكاد يلمح جندياً بريطانياً يسير في الشارع حتى ينطلق خلفه كالصاروخ وهو يصيح :

ـ ون بياستر بليز يا جوني . .

كانت البدايات متعثرة ، وكان التفاهم مع العساكر الإنجليز صعباً ، فقد كان العسكري الإنجليزي يصرخ :

ـ *What, What?* .

وبسيوني يحاول أن يشرح :

ـ انا مسكت ون بياستر ، انت مسكتو واحد بنت .

غير أن بسيوني أصبح اكثر مهارة .

المهم ، إنه كان بالإمكان ملاحظة ميل خاص وقوي عند بسيوني ، في هذ الفترة المبكرة من السن ، نحو الأجانب بشكل عام . من الممكن بالطبع أن نتحدث عن العوامل الاقتصادية في هذا المجال ، ولكننا لا نعتقد أنها تستطيع أن تفسر كل شيء .

علاقته الغرامية الأولى كانت عادية للغاية : علاقة جنسية مليئة بالرعب في خرابة مهجورة ، لعبت فيها جامعة أعقاب السجاير الدور الإيجابي . ولم تنته على خير ، فهو قد وعد الفتاة أن يعطيها قرشين صاغ ، وعندما انتهيا مد قرش تعريفة وأقسم أنه كل ما يملك . أخذته الفتاة ثم أمسكت به وضربته ضرباً موجعاً . ثم لاحقته بعد ذلك إلى بيته وجعلته يدفع القرشين صاغ كاملين .

لم يذكر عن بسيوني إنه كان متحمساً للوفد ، ولم يؤيد عدلي ، ولا أنه أبدى اعتراضاً على حكم محمد محمود أو على إرهاب إسماعيل صدقي . بكلمة أخرى لم يعرف عنه أي اهتمام بالسياسة أو حتى معرفة بها إلا إذا اعتبرنا عمله كمخبر في وزارة الداخلية ابتداء من أواخر الخمسينيات ـ كعمل إضافي ـ عملاً سياسياً . وليس هذا بغريب ، فهموم بسيوني كانت من نوع مختلف تماماً .

على أننا نستطيع أن نخلص من ذلك بنتيجتين تدلان على نجابة مبكرة عند بسيوني . (ها نحن للأسف نعود إلى حكاية النجابة المبكرة عند العظماء التي أنكرنا وجودها منذ قليل . ولكن عذرنا أن للحقيقة وجوهاً متعددة وقد تكون متناقضة) .

النتيجة الأولى ، أن ميزة الرجل العظيم ـ أو العصامي بتحديد أكبر ـ هي أنه يختار هدفاً ينصرف إليه وينسى كل شيء عداه . (راجع كتاب ديفيد رايزمان ـ الجمهور المتوحد ـ في حديثه عن النمط الذي يسميه الموجه من الداخل) .

والنتيجة الثانية وهي ترتبط بالأولى وتتفرع عنها ، أن بسيوني قد اختار العلاقة الحميمة مع الأجانب مصيراً . وما دام هذا شأنه فما له ولهذه الضجة العصبية حول الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، أو إبعاد الإجانب وانسحاب جيوشهم!

على أن هنالك حادثة في حياة بسيوني المبكرة نعتقد أنها بالغة الأهمية ، رغم ما يمكن أن يبدو في الظاهر من كونها عادية جداً ، وذلك أنه قابل جندياً بريطانياً فوقف امامه بثبات وقال :

ـ عايز واحد زك زك يا جوني؟ .

انحنى الجندي البريطاني نحوه ـ وكان طويلاً جداً ـ وقال له :

ـ شفتي بنت؟ .

فانطلق بسيوني يقول في حماس :

ـ مسكتو واحد بنت يا جوني ، جود فولي جود ، كويس كثير . . .

وقاد الجندي إلى شارع كلوت بيه . اتسعت عينا بسيوني دهشة عندما نفحه البريطاني شلناً كاملاً ـ أيام كان رطل اللحمة بقرشين صاغ ـ أمسك بسيوني الشلن ، واختفى في طرفة عين . كان ذلك أمراً يصعب تصديقه ولكنه كان مؤشراً هاماً في حياة بسيوني .

إلا أنه يبدو أن علاقة بسيوني مع الأجانب قد أخذت تتوتر . فقد انخرط في عصابة كانت تسرق المعسكرات البريطانية . وفي إحدى المرات اكتشفهم الحراس فقام الجنود المرهقو الأعصاب بفتح عشرات الرشاشات عليهم وإلقاء العديد من القنابل . وأضيئت المنطقة كلها بالكشافات التي رؤي على ضوئها أربع مصفحات بريطانية وعدد كبير من سيارات الجيب المجهزة بالرشاشات تتحرك في الاتجاه الذي اختفت فيه العصابة التي لم يكن عدد أفرادها يزيد عن خمسة .

لقد رأى بسيوني الموت بعينه . كان متأكداً أن نهايته قد اقتربت وهو يتمدد بجوار الترع لساعات طويلة . ولكنه نجا من الموت بأعجوبة .

هل نستطيع أن نتحدث هنا عن التعارض الشعوري أو عن المشاعر المتناقضة نحو الأجانب؟ إن أي فرويدي يحترم نفسه سوف يرى في الأجانب رمزاً للأب ، وسوف يكتشف في موقف بسيوني المشاعر المتعارضة التي يحملها الابن نحو أبيه : الرغبة في قتل الأب والحلول محله بالنسبة للأم ، والإعجاب بالأب والرغبة في تقمصه . غير أن هذا في اعتقادنا ، يستلزم تحليلاً أعمق لعلاقة بسيوني بأبيه .

إننا لا نشك لحظة أنه بسبب المعيشة المشتركة والنوم في حجرة واحدة مع الأب والأم ، أن بسيوني قد شاهد الأم المشتهاة فرويدياً تغتصب أمام عينيه وتئن متعة وألماً أكثر من مرة . ولكن هذا معطى أولياً ينطبق على بسيوني كما ينطبق على غيره ، وبإمكانه أن يخلق مركباً فرويدياً يثبت طيلة العمر ، أو أن يجعله مؤقتاً . ولا داعي للإطالة . كل ما نستطيع قوله في هذا المجال إنه كان لبسيوني موقفاً ضد الأجانب تخلى عنه بعد ذلك .

ومن المحتمل هنا أننا نهمل عاملاً آخر وهو كون عصابة السطو على المعسكرات الإنجليزية قد غررت ببسيوني لحداثة سنه .

رغم كل شيء فإننا نستطيع أن نقول بشيء من اليقين إن هذه الحادثة كانت نقطة تحول في حياة بسيوني ، إذ بعدها انتهت هذه المجابهة الفظة والخطرة مع الأجانب ، واتجه بسيوني بعدها اتجاهاً آخر .

مرت فترة من الهدوء انصرف فيها بسيوني ، في الغالب ، إلى الاستمتاع بأسلابه من المعسكرات البريطانية فتزوج واستأجر شقة مكونة من حجرتين وصالة في العباسية ثم اشتغل بعد ذلك طباخاً عند كولونيل أمريكي . بدأ يعمل عنده قبل أن تبدأ الحرب

العالمية الثانية واستمر يعمل خلالها وبعد انتهائها بسنتين .

هذا الكولونيل اعتبر بسيوني منحة من السماء . (بإمكاننا في هذا المجال أن نتحدث عما يمكن أن نسميه تكنيك بسيوني : يبدأ باكتساب الثقة من خلال ادعاء الاستقامة على نحو عصبي حاد ، ضيق الأفق ، يصبح التعامل معه تعاملاً مع مجردات على جميع العلاقات الإنسانية أن تتوافق معها . كما يجعل المتعامل معه يلتزم حالة دفاعية . تتلو ذلك عملية استنزاف للخواجة بشكل بارع لا يلفت النظر إليه . وإيراد مثال واحد قد يوضح ما نعنيه بتكنيك بسيوني .

كان الكولونيل يغيب أحياناً شهوراً متتالية عن الفيلا ثم يعود إليها . وبمجرد أن يقدم يسلمه بسيوني قائمة بمحتويات الفيلا ويطلب أن يطمئن إلى أن شيئاً لم يفقد ، وفاتورة المصروفات التي أنفقهاخلال غياب الكولونيل . ولو أن هذا الكولونيل دقق النظر في القائمة وفي الفاتورة لشاب شعر رأسه . ولكنه لا يفعل وبسيوني يعرف ذلك تماماً .

يبتسم الكولونيل ويقول :

ـ فيما بعد ، فيما بعد ، إنني واثق بك .

ولكن بسيوني يلح فيقول الكولونيل :

ـ باسيوني ، تفقدها أنت بدلاً مني .

فيحتد بسيوني ويثور :

ـ اسمع يا خواجة ، أنا مسكت واحد فيلا ، وأنت لازم شوف ، شوف ـ علشان ماتقولشي بعد كده بسيوني كليفتي . كده والا السلام عليكم .

يضحك الكولونيل ويقول :

ـ انت نيرفس قوي ، باسيوني! .

ويخضع الكولونيل لنزوات بسيوني ويتفقد محتويات الفيلا دون إمعان ـ لمجرد إرضاء ورع بسيوني الذي لايعرف هوادة) .

وتشعبت دروب الحياة ببسيوني إلى أن اشتغل مع الخواجات الألمان . (بالنسبة لأحوال بسيوني العائلية أنجب خمسة من الصبيان وأربع من البنات . ولكن شأنه شأن

الكثيرين ممن ارتفعوا فوق حياة القطيع لم تكن حياته الزوجية تشغل من تفكيره أو وقته إلا القليل . كان يزور زوجته مرة واحدة في الأسبوع ، يلقي بذرته بتقوى وتقزز ويهرب . ويحدث التناسل . وبالنسبة لعلاقاته النسائية فقد كان في حياته نساء كثيرات أجناس مختلفة وأعمار متفاوتة : أجنبيات متقدمات في السن ، خادمات لم يبلغن العشرين وأخريات ناضجات ، فراشة في مدرسة ، مومسات يردن الوصول إلى الكولونيل ، خادمات يبحثن عن عمل . . الخ . .) .

قلنا إنه عمل مع الخواجات الألمان ، وكان ذلك قمة مجده ، كما سوف يجيء ذكره فيما بعد . والألمان أناس يعبدون النظام والعمل . رأوا في بسيوني انضباطاً حديدياً ، وإرادة من فولاذ فأعجبوا به . رأوا فيه ـ على نحو غير واع طبعاً ـ تجسيداً لصفات الزعيم المبهمة التي تعرف أنها صفات الزعيم ولكنك لاتستطيع أن تحددها تحديداً قاطعاً . ويكفي أن نذكر هنا ما قاله أحد الألمان العاملين في وكالة الأنباء التي عمل فيها بسيوني وفيها لقي مصيره التعس :

ـ مستر بسيوني أحسن من عرفت . اكثر من عرفت أمانة وصدقاً ودأباً على العمل . لا أستثني من ذلك أحداً من العاملين هنا . يكاد يكون ألمانياً .

وقد خرج بسيوني من تجاربه باقتناع عميق لا يتزعزع وهو : إن كان الخواجات هم صفوة البشر فإن الأمريكان هم صفوة الخواجات . وعندما يتحدث عن الخواجات فإنه يعني الأمريكان والإنجليز والفرنسيين والألمان . كان يقول :

ـ الأمريكان دول أولاد بلد صحيح ! .

وإذا سألته عن الإيطاليين يعلو الاشمئزاز وجهه ويقول بحدة :

ـ همه الطلاينة خواجات؟ دول مصريين .

أما اليونانيون والقبارصة والمالطيون فهم ، في رأيه ، حتى أقل من المصريين .

وعندما نحاول أن نتعرف على الأسباب التي ولّدت هذا الاقتناع بالتفوق الأمريكي فإننا نقع في حيرة شديدة . إذا كان الرجل ابن بلد صحيح وجدع فهو قادر على استغفال كل خواجه على وجه البسيطة . ولم يثبت قط أن الأمريكان أقل قابلية للاستغفال من غيرهم . كما أنهم لم يبرهنوا ـ بالنسبة لبسيوني ـ على كرم عجز عنه غيرهم .

هل السبب صداقة ما؟ .

الواقع أن تكنيك بسيوني قد طبق على الجميع دون استثناء وقد أثبت هذا التكنيك نجاحه دائماً في اكتساب الثقة والصداقة وفي استنزاف الخواجه الموجه إليه هذا التكنيك .

وإذا حاولنا أن نرد ذلك إلى تشابه في التكوين النفسي والسمات الخلقية فإن الألمان بولعهم الشديد بالنظام ، والعمل ، والإنجليز بصرامتهم ودقتهم كانوا أقرب تكوين لبسيوني الأسبارطي .

هل كان اقتناع بسيوني نابعاً من دراسة متأنية للظروف السياسية والاقتصادية التي تلت الحرب العالمية الثانية؟ بالطبع لا . فبسيوني ، شأن كثيرمن الزعماء البارزين في العالم الثالث يكنّ احتقاراً عميقاً للثقافة . مثال ذلك عندما أصر أحد أبنائه على دخول الجامعة ، رد عليه بعنف :

ـ حا تعمل إيه في الجامعه يا خايب؟ ما همه بتوع الجامعه عندنا العشرة بقرش .

وكان يشير بذلك إلى المترجمين في الوكالة الذي يبلغ دخل الواحد منهم ربع دخل بسيوني ، لأنهم عاجزون عن استغفال الخواجات . إن بسيوني يعتقد أن سبب ذلك هو هذه الكتب التي لا يكفون عن مطالعتها باستغراق يبدو له مضحكاً ومثيراً للرثاء .

لم يبق أمامنا من احتمال مع كل أسف لتفسير ذلك الإعجاب بالأمريكان سوى اللجوء إلى هذه النظرية العتيقة المبهمة عن الإلهام والحدس اللذين يتميز بهما الزعيم .

يوم في حياة بسيوني

في السابعة صباحاً يصحو ، ينتزعه الصحو انتزاعاً عنيفاً ، رغم علمه أن عمله يبدأ في الواحدة بعد الظهر . تلك اليقظة تعاسة متكررة يواجهها كل صباح . وكأن بؤس العالم ، وعبثية الوجود والرعب ا الذي لا مصدر له ، تقف مترصدة ، محيطة به ، تنتظر اللحظة التي يصحو فيها لتهجم عليه . في تلك اللحظة يبدو الموت قريباً جداً ، وحقيقياً .

هذا الوجه ، عاره المختفي ، الحكم المؤكد بالنهاية القريبة ، يبدو له الآن في حقيقته المأساوية : العينان الكابيتان اللبصتان ، الشعر الأبيض الخشن النابت في الوجه ، طاقم الأسنان الصناعية في كأس زجاجية ممتلئة بالماء . . . ثم هذا الإجهاد الثقيل الذي يجعل كل حركة معاناة مؤلمة : ألم المفاصل وطقطقة العظام ، والرغبة المستحيلة التحقيق في الذهاب إلى دورة المياه .

لو كان يملك القوة الكافية لبكى نفسه حياً .

لم يكن مستمتعاً بهذا الحذر ، قانعاً بأنه يعلم أنه عجوز ؛ ويملك ، في الوقت ذاته ، اليقين أنه يستطيع أن يتجاوز هذ الركود ـ الموت ، ويستعيد شبابه عندما يصمم على ذلك . في تلك اللحظات يشعر بجسده كآلة تالفة ، تحتاج لكي تستمر إلى مراعاة ومداراة ، ولكنه يشعر في الوقت نفسه أن ذلك الجسد هو مجرد قشرة خارجية لروح متوقدة ، لعنف له صلابة ونفاذ الفولاذ : يحس بجسده خارجه . ومن خلال هذا الانفصام بينه وبين جسده تبدأ الخطوة الأولى لمواجهة بؤس العالم الذي هجم عليه مباغتاً ، لا يرحم .

تماس ساقيه تحت الجلابية ممتع كأنه يلامس جسداً آخر ، يرافق هذا حلم يقظة بدا في تلك اللحظة المتأرجحة بين الصحو واليقظة شبه متحقق ، لا يحتاج إلا أن يطرد هذا الحذر حتى يتجسد : امرأة تستلقي بجواره ، تمنح لدونتها للغطاء الذي يحيط بجسده .

ويعطيها الغطاء ذلك التوافق والاستسلام المطلقين .

يستلقي هكذا يسغرق في لذة خالصة ، مستمتعاً بشلله دقائق قليلة ، ثم يدهمه الخوف صاعقاً ، سريعاً كلدغة النحلة يتجسد إحساساً بخطر مبهم غامض ملح ، يرافقه غثيان ورغبة في التقيوء يسببهما تجمع الغازات في أسفل البطن . يخطرله ، دون سياق واضح ، يشبه ذلك حال المرأة الحامل ، ويحس بالجنين في داخله على شكل ورم ، على شكل كتلة منفصلة عنه ، تقع تحت جلده ، في أسفل البطن . . ووراء ذلك كله يكمن خطر الاكتشاف :

اكتشاف حقيقة الرجل الذي اقترب من الستين (يبدو ذلك مخيفاً حين ينكشف لنمط معين من النساء اللاتي يترددن على حجرته ؛ ذلك النمط الفاجر ، الوقح ، الذي يصعب توقع ردود فعله) ، اكتشاف كحة مدمن الأفيون القصيرة ، الخشنة ، المتلاحقة ، اكتشاف رعشة اليد والإنهاك السريع .

يمد يده ، باذلاً كل ما يملك من عزم كأنه يجاهد للوصول إلى حبل النجاة الذي سوف ينقذه من الاختناق . يمسك بالكنكة المليئة بالشاي الأسود ، المغلي من البارحة ، ويضعها على السخان الكهربائي الصغير ، الموضوع على الأرض قرب السرير : «يكفي هذا ، سوف أموت» . ينتقل إلى الجانب الآخر من السرير ، يتدلى منتصفه الأعلى ويوصل الفيشة بمصدر الكهرباء ، ثم يعود للاستلقاء على السرير مجهداً ، مبهور الأنفاس .

يغشاه النوم كإغماء . يحلم لثوان ، في عتمة لينة ، مشحونة بخطر بدائي . . يكاد يختنق في داخلها ، يرى العينين ضاحكتين بشر منذر . كان ذلك الشر ماكراً للغاية وبشرياً . يحاول أن يتحرك ، يبتعد وينجو من ذلك الشيء المتحفز ، المستكن في عتمة الحجرة ، ولكنه مشلول تماماً ، عاجز حتى عن تحريك أصبعه ، يتبادل النظرات مع ذلك الكائن ، فيرى أنه مدوّر كالكرة ، كثيف الشعر ، يتجمع مستعداً للانطلاق كالسهم ، يراه وكأنه يبتسم ، يحاول بسيوني أن يتودد إليه فيبتسم ، ولكنه يعلم أن لا فائدة على الإطلاق .

يستغيث بسيوني ولكنه صوته محتبس . هاتان العينان الناضجتان بضوء أسود ، مرح ، معروفتان لديه . يحاول أن يبحث عن وجه لهما فتجهده المحاولة . يرى ذلك الحيوان يعود برأسه إلى الوراء وينتفش شعره . فيصبح كالقنفذ ، ثم يقفز فيصطدم

اصطداماً عنيفاً بأسفل بطنه . يخترق الألم جسده كحد السكين . غارقاً في عرقه ، ويسمع نفسه يئن متوجعاً . يسمع الشاي يغلي في الكنكة .

عبارة طفت على سطح وعيه . لم يقلها ، ولكنها تسللت إلى لسانه فهمس بها : «ليه كده يا سعادة البيه !» .

المجهود المؤلم الذي يبذله يتخلله الإحساس المقبل بالتوهج . يسكب الشاي في الكوب ، يضع قطعة الأفيون الصغيرة على لسانه ، يضغطها بلحم اللثة العاري ويعيدها إلى لسانه . ثم يشرب الشاي برشفات كبيرة . ينتشي بلسعه وانسيابه في حلقه مثقلاً بطعم مر ، لاذع .

انتهى من شرب الشاي . تحسس قطعة الأفيون فاكتشف أنها ذابت ، وبقي في موضعها طعم شديد المرارة . يضع كوب الشاي على الطرابيزة المستديرة ،العارية ، قرب كأس الماء الذي يضع فيه أسنانه الصناعية . يعاوده الإنهاك ويشعر أنه عاجز عن الحركة تماماً . يسترخي ، فيسمع حركة الغازات في أمعائه محدثة صخباً خافتاً كخرير الماء ، يتابعها في تحركها ثم يغشاه النوم .

في هذه الغفوة يخوض نقاشاً عصبياً مع كائن غريب . يجلس هذا الكائن على السرير بجوار جسد بسيوني ، ويغرس كوعه الحاد في بطن بسيوني . خلال ذلك يطالع هذا الكائن بسيوني بعينين واسعتين ، أموميتين ، ويبتسم بوداعة وخجل . تزداد العينان رقة فتصبحان حانيتين وحزينتين جداً ؛ عينان تشحذان الشفقة والحب . لا يستطيع الإنسان أن يجرح كائناً كهذا . يبدي بسيوني ضيقه بهذه العشرة المقيتة ،يعلن أنه تحمل طويلاً ولم يعد يطيق . للحظة تبدو العينان كعينيّ زوجته ، فيتحول إلى شكوى غاضبة : هذا الكوع النافذ في أحشائه أشبه بالخنجر ، وهو قد مل هذه العشرة ، وعزم أن ينهيها . يرفع يده بموس الحلاقة ويهدد ببتر أنف ذلك الكائن الذي ترتفع ذراعه ببطء عن بطن بسيوني . العينان تعكسان انكساراً وذلة . يزول الألم تدريجياً ولكن موضع الكوع يظل كالدمل .

يمد ذلك الكائن ذراعه بين ساقي بسيوني ويأخذ بتدليكه تدليكاً ناعماً ، رقيقاً . تقتحم الرغبة بسيوني صافية ، حلوة ، كما في الأحلام . يصحو من النوم واليد ماضية في المداعبة وبسيوني يكركر بالضحك الذي يؤدي به إلى نوبة من السعال الجاف ، وهو خلال ضحكه يردد : «يخرب عقلك يا شيخه . . !» .

. تمطى بسيوني وتثاءب . كان الضحك يقطع تثاؤبه . طالع الحجرة حوله ، فدفعته الحجرة إلى الاحتماء بالسرير ، فاستكن تحت الغطاء . ردد لنفسه : «لو كانت هنا . لو كانت هنا» . كان مشتاقاً لمجرد الملامسة ، لرأسها مختبئة في صدره ، لم يكن في ذهنه امرأة بالذات ، ولكنه كان يستعدي حضوراً حميماً ، طيعاً . أصبح بعض جسده موضوعاً لبعض جسده الآخر ، فأخذ يتلوى ، ويمتد وينكمش ، ومع تصاعد النشوة كان يحس للمرأة نصف وجود .

فجأة أحس بجسده يتوتر ، بعضلاته تنقبض ، ويفيض منه الحماس للحياة . فنهض واقفاً .

* * *

اجتاز بسيوني شارع البرازيل ، في الزمالك . ريح الخماسين تعصف ، خاثرة بالتراب والأوراق ، بأوراق الشجر التي تنتزع انتزاعاً من الأشجار الراقصة ، المصلصلة ، بقطرات ماء يقذفها مصرف أحد الشرفات . كان بسيوني يشعر أن الريح تلاعبه . دخل المطعم وجلس بجوار الواجهة الزجاجية يراقب الشارع . رأى امرأة تسير على الرصيف وقد غطت عينيها بيديها لتحميهما من التراب . نفذت الريح بين ساقيها فتضخم فستانها واهتاج واستدار حتى أصبح كبالون كبير ، ثم ارتفع إلى أعلى على شكل رغيف هائل الحجم وتعرى ساقاها فبدت كراقصة باليه . بركت المرأة على الأرض وهي تشد أطراف الفستان ، وعيناها مغمضتان .

قهقه بسيوني وأمسك يد الجرسون ، وأشار بأصبع اليد الأخرى إلى المرأة وقال :

ـ بص! .

ومضى يقهقه ويشهق . لم يلتفت إليه الجرسون الذي أفلت يده من قبضة بسيوني وأخذ يدور بسرعة بين الطرابيزات يتلقى الطلبات ويسرع بتنفيذها .

يقترب منه الجرسون فيشكو له بسيوني أن هذا هو اليوم الثالث الذي تهب فيه هذه الريح دون توقف . بمجرد أن انتهى بسيوني من إلقاء جملته انصرف الجرسون مسرعاً ، حانقاً ناداه بسيوني :

ـ الفطار زي كل يوم .

يتكوّن إفطار بسيوني ،كالعادة ، من طبق فول غارق بزيت الذرة ، ستة أقراص

طعمية ، ثلاث بيضات ، طبقين من سلاطة القوطة مع الشطة ، طبق طرشي وثلاثة أرغفة . يأكل بنهم ولكنه لا يحس بطعم الأكل ،ولا بالشبع ، إلا أنه يعلم أن عليه أن يتوقف .

في الخارج ، وسط دوامات الخماسين وعصفها ، كان يشعر أنه قوي . في مواجهة الريح التي تكاد تحمله وتلقي به بعيداً كانت كل خطوة انتصاراً . ذلك كان مصدر قوته : كل خطوة انتصار . كان كل طرف (وزارة الداخلية ، مدير الوكالة ، العمال ، المترجمين) يعتقد أن بسيوني يخبره وحده بالحقيقة كلها . ولكنه كان دائماً يخفي جزءاً منها في الوقت نفسه الذي يعرف فيه كل شيء عن الآخرين .

كان يملك تلك القدرة الفذة على المناورة التي تميز عظماء الرجال . فهو يتحدث بحرارة وإخلاص ، ويتظاهر أن إخلاصه يدفعه دائماً أن يقول أكثر مما ينبغي . وعندما كانت بعض الجهات تندهش لوفرة معلوماته عن الوكالة كانت تجهل أن مدير وكالة الأنباء ذاته هو الذي يزوده بهذه المعلومات ، لأن بسيوني أقنعه ، أن تلك خير وسيلة لتجنب المتاعب . ولم يكن مدير الوكالة غراً أو ساذجاً ولكنه كان يقول : ليس عندنا ما نخفيه ، فليعرفوا كل شيء إذا أرادوا . وهو ـ أي بسيوني ـ عندما يكتشف سرقات العمال الآخرين الصغيرة ، فلقد كان يهدف إلى اكتساب الثقة حتى يغطي على سرقاته الكبيرة .

كانت القوة هي مطلبه . جميع أفعاله يحركها نهمه الذي لا يكل لامتلاك السيطرة على الآخرين . عندما كان يضاجع بعض خادمات العمارة التي توجد بها الوكالة ، لم يكن الجنس هدفه الوحيد ، بل لم يكن للجنس عنده متعة إن لم يقترن بالسيطرة على الخادمة والنفاذ من خلالها إلى البيت الذي تعمل فيه . وبهذا أصبحت علاقاته وثيقة بسكان العمرة وسيطرته على الخادمات شبه مطلقة .

ولقد اكتشف بسيوني أن هؤلاء المرفهين من سكان الزمالك يمكن استغفالهم كما تستغفل خواجه حقيقي ، مع بعض التعديل في التكنيك .

حاول مرة أن يعانق خادمة صغيرة ـ تكاد تكون طفلة ـ وهما في المصعد . صرخت واستنجدت ، وجاءت شرطة النجدة . ولكن ما حدث لها كان عبرة للأخريات . الشرطة اقتنعت أن الطفلة تكذب ، إذ قد أتى بسيوني بشاهدات أكدن أنه لم يكن في العمارة أصلاً ساعة المحاولة . وفي اليوم التالي جاء والدها مذعوراً وأخذ

ابنته واختفى . ولم يعرف أحد السبب إلا بسيوني .

ولكن ذلك الوجه لاحقه كثيراً : الوجه الصبوح المندهش بغمازتيه على الخدين ! العينان الحالكتا السواد برموشهما الكثة الطويلة ، والضحكة التي تشيع في الوجه كله فتشعله بحمرة نقية ، الأسنان الناصعة البياض . لأول مرة يسترجع ذكرى امرأة كتفاصيل! تفاصيل تنبت فجأة ، دون تمهيد ، وفي أوقات غريبة ، فتنسل إلى قلبه كالخنجر . أما الاخريات فقد كان يسترجعهن كحالات .

كانت هذه الفتاة هي المرأة الوحيدة التي أصبح امتلاكها هدفاً بذاته . وكان ذلك الوجه ـ وجهها الضاحك ، المشتعل ، اليقظ ـ هو عذابه الخفي .

وفي قلب تلك الحلة الهائلة من الغبار المهتاج ، المعربد ، تراءت له تلك الطفلة تنظر إليه بوجه مندهش ، تراءى له ثدياها الصغيران يدفعان الثوب الرقيق . اختنق باللهفة . استمر ذلك لحظات ثم اختفت الصورة مخلفة وراءها بسيوني مرهقاً حتى الإعياء .

عاد إلى حجرته الصغيرة ـ الحجرة التي منحتها له الوكالة ـ وارتمى على السرير دون أن يخلع ملابسه . كان رجلاً يتعذب . ود لو يستطيع أن يبكي .

ثم نام .

* * *

حلقه جاف . هل نام؟ ينظر إلى ساعته . تشير إلى العاشرة . من المؤكد أنه نام . يتردد قليلاً ، ثم يقرر أن يخرج ويشرب الشاي . يقرر أن يصعد إلى الوكالة بدلاً من المقهى ، فهنالك يستطيع أن يشرب الشاي دون مقابل ، ويحتمي بها من هذا الغبار .

عندما وقف وأخذ يسوّي ملابسه هاجمته صورة الخادمة ـ الطفلة كاللطمة ، خذلته قدماه لحظات . قاوم إغراء العودة إلى السرير ، وتماسك .

عندما دخل الوكالة تظاهر عباس الذي يطبع النشرة بأنه فوجيء . رسم على وجهه تعبير ذهول وأخذ يحدق ببسيوني بعدم تصديق وقال :

ـ يا نهار أبوك أسود! .

وفتح عباس فمه وأخذ يحدق ببسيوني كأنه قد ألقى سؤالاً ، وها هو ينتظر الإجابة عليه . كان وجه بسيوني ينضح بالكراهية والتعالي . لم يكن وجهاً محبباً على

أية حال .

أضاف عباس :

ـ قل لي يا راجل إنت . . إنت عفريت؟ .

قال بسيوني :

ـ عفريت ياخدك .

واصل عباس :

ـ عايزك تفهمني حاجه واحده بس ، بتخش إزاي من غير ما حد يحس بيك! بتطلع من تحت الأرض؟ .

استدار بسيوني بحركة عنيفة ودخل المطبخ . وضع كنكة الشاي على البوتاجاز ، وهو خلال ذلك يفكر بالانتقام . سمع في الخارج صوت عباس يحدث المترجمين والفتاة التي تعمل على الآلة الكاتبة .

ـ الراجل ده ، ابن اللئيمه ، حايجنني . أكون قاعد في حال بالي ، ألاقيه طلع لي . دخل إزاي؟ طلع من فين؟ ما اعرف .

انتهى بسيوني من صنع الشاي ، فحمل الكباية وجلس على كرسي موضوع قرب الموقد . فجأة صعدت أمامه صورة الطفلة . اكتشف أن عباس يناديه :

ـ خد يا بسيوني! .

خرج من المطبخ ، وجهه عابس ، مشمئز . يتساءل بنفاد صبر :

ـ عايز إيه يا أخي؟ .

يقول له عباس :

ـ قرب أقول لك .

ـ يقول له عباس إن الخواجه المدير غاضب منه) .

قال بسيوني :

ـ يزعل ، يزعل .

ولكنه ظل واقفاً .

قال عباس إن المدير قال منذ قليل ، وبإمكان بسيوني أن يسأل الأستاذ فؤاد

والأستاذ غالب :

«هو بسيوني فاكرني كروديا! قلت له : ليه ياخواجه؟ قال ، سي بسيوني حسب عليا علبة البوتاس بخسمه وعشرين قرش وهيه ثمنها قرشين صاغ . . . حرام عليك يا رجل ، علبة البوتاس تحسبها بربع جنيه! » .

تدور عينا بسيوني بعصبية ، ثم يستدير ليعود إلى المطبخ . يتردد قليلاً ، ثم يخاطب عباس بقوله :

ـ اهتم بشغلك ، وما لكشي دعوة بحد تاني .

ولكن عباس يعلم أن بسيوني قد أخذ يضطرب ، فقال له إنه قال للخواجه إنه ربما قرأ الفاتورة خطأ وإن بسيوني يقصد أن ثمن علبة البوتاس قرشان ونصف . قال بسيوني وهو يضع كباية الشاي على الطرابيزة التي يجلس عليها عباس ، إن ثمن علبة البوتاس قرشان ونصف بالفعل .

عند ذاك قهقه عباس وأدرك بسيوني بعد فوات الأوان أن عباس كان يسخر منه . انصرف بسيوني غاضباً إلى المطبخ وضحكات عباس تشيعه ، وهو يقول :

ـ الراجل ابن اللئيمه وقع! .

ثم ناداه :

ـ الشاي يا بسيوني ، نسيت الشاي .

تمتم بسيوني :

ـ يلعن أبوك على أبو الشاي .

* * *

حواري بولاق أبو العلا تمتد طويلة ، دون نهاية ، مثل كوابيس مدمن الأفيون . شارع رئيسي يمتد باستقامة ، وعنه تتفرع الحواري الضيقة ، وتلتف وتدور ، وتلتف وتدور حتى لتفاجأ بأنك دخلت أحد البيوت بينما تظن نفسك أنك ما زلت في الشارع . ويدور بسيوني مع تلك الحواري ، ويتوه ، ويكتشف طريقه مرة اخرى ، ثم يتوه مرة أخرى .

خلال تجواله في تلك المتاهة يلمح بسيوني جزءاً من سرير نحاسي هائل الحجم ، تجلله ملاءات بيضاء مطرزة بورود حمراء وخضراء . ينقبض قلبه بذكرى غائمة ، بعيدة

وحميمة لا يستطيع تحديد زمانها ومكانها . الوجه الصبوح يطفو أمامه ، ولكن تعديلاً جذرياً قد حدث . اختفت تلك الضحكة الدائمة من الوجه ، وأصبح الذي يطالعه الآن عينان حزينتان .

الأطفال يمرقون بين ساقيه ، حولهما ، أمامه ، خلفه كالوهم . . يبدون ويختفون . يتعلقون ببنطلونه وهم يمرقون مسرعين بجواره ، يلعبون لعبة غامضة ، بلا اسم . ينشهم ولكنهم يعودون بعد قليل . فلتخسف هذه الحواري مع سكانها ، لو كانوا يدرون عذابه ؛ عذاب مدمن الأفيون الذي أشرف على موعد الجرعة ولكنه لا يجدها .

يواصل بسيوني سيره ، وقد ثقل تنفسه ، وعذابه الخفي : الوجه ، يلاحقه دون توقف .

نساء صامتات ، متشحات بالسواد ، بوجوه عجوزة فقدت كل حسن يبركن على عتبات بلا سبب ، أو عمل . نظراتهن ثقلية راكدة ، ترى ولا ترى ، كالعيون في كوابيس يرى الإنسان نفسه فيها يسيرعارياً ، أو بلباس غير محتشم .

عينان مشعتان ، تحملان حلاوة الوهم ، تطالعانه من وراء زجاج فترينة مغبش ، تنفذان إلى عالم بسيوني القاتم ، فتحركان شوقه الملتهب ، الذي لا يهدأ : هاتان العينان ، تطاردنه أينما توجه ، وأي السبل يسلك ، تسدان عليه جميع المسالك فينتهيان به إلى المتاهة .

هل فقد الاتجاه؟ يداهمه غم ثقيل . ترتعش ركبتاه . لقد سار طويلاً ـ سار دهراً ـ دون أن يصل إلى ذلك المقهى الذي جاءه قبل الآن مئات المرات . ولكنه ، الآن ، لا يدري ان كان يسير نحوه ، أو يبتعد عنه . يقترب من إحدى النساء الكابوسيات ، الصامتات ، يجاهد حتى يخرج الصوت من فمه ، ويسألها عن الحارة التي فيها المقهى . ترى المرأة عينيه البراقتين ، وشفتيه اليابستين فتفهم ، وتدله على الطريق .

يسمعها تتنهد وتقول :

ـ الراجل الغلبان .

يضغط بسيوني على أسنانه وتتوارد كلمات : «الكلاب ، الكلاب ، سوف أسحقهم » . ها هو الوجه يعود إليه من جديد يظهر ويختفي .

يدخل حواري تؤدي به إلى حواري ، تقوده إلى عطفة مسدودة فيعود أدراجه . يقاد إلى شوارع مزدحمة ، مفتوحة على الريح ، الوجوه الكالحة بالمعاناة والغبار ، العرق ينساب عليها مكوّناً أخاديد سوداء ، والعيون محاصرة برموش معفرة بالتراب ، بدت كعيون العاملين في الأفران وهم ينقلون الدقيق : عيون ، داخل تلك الرموش حمراء ، غاضبة ، ، منذرة بالعنف . صرخات نسائية هستيرية تنطلق من النوافذ الضيقة ، شعر طويل مبلول ، يد تسرحه ، ونحر ساطع . يقف مذهولاً وهو يطالعها ، يكاد يندفع نحوها . «الكلاب سوف أسحقهم» . لم يكن حديثه موجهاً إلى شخص بالذات .

ينتزع نفسه انتزاعاً ويواصل السير . أسنانه تصطك ، وغشاوة ثقيلة تراوغ عينيه . أحس بيديه كبيرتين ، كبيرتين ، وثقيلتين تتمددان إلى جواره ، عبء لا يعرف كيف يتخلص منه . قلبه ينبض بجنون ، ومعدته تغلي بسائل حارق .

بغتة ودون توقع يجد المقهى قريباً ، ولكن عبء الخطوات القليلة التي تفصله عن المقهى بدت له متاهة أخرى سوف تجتذبه إلى دروبها التي لا تنتهي .

أحلام بسيوني في مقهى صغير

يدلف بسيوني إلى داخل المقهى ويهجع على أقرب طرابيزة في الداخل يلفه ضباب الدخان والماء المغلي والصهد الراكد . ضوء شحيح يتسرب إلى المكان من شباك مرتفع .

جاءه الجرسون، قال له مداعباً .

ـ إزيك يا حاج بسيوني .

ـ شاي .

قال الجرسون :

ـ مالك مقروف كده؟ .

يقول بسيوني :

ـ المعلم حسن ما جاش؟ .

ـ ما جاشي .

ويقهقه الجرسون ، يقول بسيوني :

ـ هات لي شاي تقيل .

ـ حاتشيله إزاي؟ .

يضحك الجرسون لنكتته وينصرف .

عندما عادا لجرسون بالشاي لقي بسيوني مستغرقاً في النوم ،قد وضع وجهه على ذراعه المنبسطة على سطح الطرابيزة الرخامية . يضع الجرسون كباية الشاي على طرف الطرابيزة ويشهد الزبائن وهو يشير إلى فم بسيوني المفتوح الذي يسيل اللعاب من طرفه ويقول :

«شايفين الراجل الأفيونجي موعد الهبابه جه» .

ينهره أحد الزبائن ويطلب إليه أن يرأف بالرجل العجوز . يقول آخر : «ماذا لو سمعك أحد من الشعبة؟» . يخفي الجرسون حرجه بنداءات متتالية يوجهها إلى الرجل الذي يقف خلف النصبة ويعد القهوة والشاي . ثم يسير ويجلس في طرف المقهى منتظراً إعداد الطلبات .

المكان يسبح في ضوء بلّوري ، ناعم ، كذلك الضوء الذي يثري في الأماكن المكشوفة من الجوامع التي لا يسقط فيها ضوء الشمس مباشرة ، أو كضوء الغروب عندما تراه منعكساً على مئذنة في خلفيتها ، على وجه السماء، هلال تتوسطه نجمة . بسيوني يجلس في حجر امرأة كبيرة، يعلم ، بشكل ما ، أنها أمه . لقد كانت المرأة جميلة وضخمة يفوح منها عطر كذلك العطر الذي تشمه عندما تغادر امرأة أنيقة المصعد ، ولا يدري كيف تكون أماً ولكنها أمه، فأخذ يستغل ذلك الظرف ويعانقها بلهفة ومتعة العناق تتصاعد في داخله . تنظر المرأة إلى بنطلون بيجامته فيدهمه الخوف ويفكّر : «لقد انكشف امري». تمسك المرأة بيدها الكبيرة بعض مواضع من البنطلون كأنما لترى إن كا ن مبلولاً أم لا . تمتعه الملامسة وتخيفه ، ويستغرب هو خلال ذلك كيف لم تكتشف سره . تهمس له المرأة أنه كالعادة ، لا يحافظ على نظافة ملابسه . تضحك وتضيف أن ذلك بسبب ملاحقته للبنات الصغيرات، وتستمر وهي تقول ذلك في تلمس بنطلون بيجامته . لم تعد تلك الملامسة بريئة تماماً ، خاصة وأنها تبتسم له تلك الابتسامة الغريبة ثم تغمز له بعينها .

يدخل حسن عنيفاً ، ضخماً، يملأ المكان . تدفعه المرأة برفق عنها وتقول له :

ـ أبوك .

يحاول أن يصحح معلومات أمه ولكنها ترفع وجهاً ضاحكاً إلى حسن ولا ترى غيره في تلك اللحظة . يقف بسيوني وحيداً ، مهجوراً ، يشد بنطلون بيجامته إلى أعلى . يلتفت إليه حسن، فيتوقع بسيوني شراً . يمد حسن يده ويقول :

ـ خذ يا وله! .

ويضع في يده شيئاً ملفوفاً بورقة سوليفان . يقول بسيوني لنفسه إنها قطعة الأفيون . يتناولها ويزيل بمجهود السوليفان عنها . يكتشف أنها قطعة من الكراميلة مربعة ، أنيقة تبرز على سطحها قطع الفستق الحلبي خضراء وطازجة . كان لتلك القطعة من الكراميلة جمال أخاذ ، جمال انتفى من الأشياء في عالم الكبار ولم يعد

بالإمكان أن يراه أو يحسه إلا طفل يضع القطعة في فمه تذوب ببطء ، ويمتلئ فمه بطعم حلو لذيذ ، يشيع في كيانه كله انتشاء ولذة ثم يأخذ بمضغ قطع الفستق الحلبي ، التي كانت دسمة في فمه ، تستمد حلاوة إضافية من حلاوة الكراميلة .

ينظر بسيوني إلى المرأة التي كانت منصرفة عنه تماماً إلى حسن ، وجهها قريب من وجهه ، ووجهها مليء بالضحك والغواية . يندفع بسيوني بهوج ويلف ذراعيه الصغيرتين حول ساقي المرأة . لم يكن طوله يسمح بأكثر من ذلك . تدفعه المرأة عنها فيجد نفسه واقفاً وحيداً ، والرجل والمرأة ينظران إليه بغضب . لم يعد ذلك الرجل الضخم هو حسن ـ بل أصبح أباه ـ ليس أباه بالضبط ولكنه رجل قاتم متجهم ضخم ، فظ يفترض أن يكون أباه .

يقول الرجل :

ـ قرب يا وله ! .

كان بسيوني خائفاً . يحاول أن يبتعد ولكن مجال الهرب مسدود فليس وراءه إلا الجدار . يقول :

ـ أيوه يا به .

ـ قرب ، قرب ! .

يشير الرجل بيده إليه أن يقترب . ويدرك بسيوني فجأة أن أباه سوف يمازحه ذلك المزاح الرهيب عندما يجذب بنطلون بيجامته إلى أسفل ويهدد بأن يقطع حمامته . ولكن وجه الرجل متجهم ، كبير ، لا أثر للمزاح فيه . ووجه المرأة جاد وكبير وعيناها كبيرتان ، بيضاوان ترمقانه بحياد . يمد الرجل يده ويجذب بنطلون البيجامة إلى أسفل ، في اليد الأخرى كان يحمل موسى حادة . ترتفع اليد بالموسى ، فيغمض بسيوني عينيه ، يشعر بلذعة الألم بين ساقيه . ينفذ الألم حاداً إلى أحشائه .

يلهث بسيوني في نومه ، تخرج من فمه صرخة خافتة مختنقة . ثم يصحو من نومه .

يرى الشاي على الطرابيزة أمامه . يحيط الكوب بيده فيكتشف أنه برد ، فيشربه على ثلاث جرعات . يضع الكوب ويقاوم النوم ، ولكنه يدهمه . يعاود الحلم .

ما يزال يحس بالألم بين ساقيه . يرفع عينيه إلى أعلى ، فيرى الصورة معلقة على

الجدار : رجل بعين واحدة تطالعه بحدة ، وعلى العين الأخرى شريط أسود . يحاول أن يصل إلى الصورة ولكنه يفشل . ينتهي ذلك ويجد نفسه جالساً في الممر الصغير الذي يؤدي إلى حجرة المطبعة .

الشخص الذي يجلس أمامه هو عباس . لا يبدو أنه يشعر بوجود بسيوني ، أو هو يتظاهر بذلك . من انتفاخ أنفه وتعبير الضيق الذي على فمه يتأكد بسوني أنه يتظاهر فقط . كان عباس يمسك بالمقص الكبير الموضوع دائماً على الطرابيزة بجوار جهاز الرونيو . يحاول عباس أن يقص أظافره ولكن رأس المقص المدبب يكاد يلامس عيني بسيوني . يحاول أن يتفاداه ولكن الجدار خلفه . يحاصره المقص الذي كان يقترب رغم كل محاولاته للابتعاد .

ثم حدث نوع من الإظلام . يكتشف بسيوني أنه يركب المصعد في طريقه إلى المكتب . المصعد ينطلق بسرعة خارقة فيستولي عليه الرعب . يحاول إيقافه بفتح الباب الخشبي فيواصل صعوده الأهوج ، يضغط على الزرار الأحمر المكتوب عليه : قف . غير أن المصعد يستجيب استجابة عكسية فيزيد من سرعته محدثاً دوياً . يشله الخوف فيغمض عينيه ، ويستسلم منتظراً النهاية . .

يبدو أن المصعد أوصله إلى الدور الذي يقع فيه المكتب دون أن يحدث له شيء ، لأنه رأى نفسه يسير داخل المكتب . كانت الأرض قلقة تحت قدميه ، فيقول بسيوني لنفسه دون اكتراث : «إنها الهزة الأرضية مرة أخرى» . عباس يجلس أمام حجرة المطبعة لا يبدو أنه يهتم بوجوده . ما زال ممسكاً بالمقص الكبير يقلم أظافره . يقرر بسيوني أن يطلب إليه إبعاد هذا المقص فهو لا يصلح لتقليم الأظافر .

يفقد بسيوني السيطرة على حركته ، فيجد نفسه منزلقاً حتى يتوقف أمام عباس . يتوقع أن يبدأ عباس في مشاغبته فيتظاهر بأنه فوجئ به ويبدأ اللعبة المعروفة . ولكن عباس يرفع رأسه وعلى وجهه ابتسامةحلوة ويكلمه بمودة يقول له :

ـ إزيك يا عم بسيوني ؟ .

ثم يشير إلى الحجرة التي يجلس فيها غالب ويقول له :

ـ هناك .

أربكت بسيوني هذه المودة غير المتوقعة . يلتفت خلفه فيرى المدير خارجاً من

حجرته . يحول المدير عينيه بعيداً عن بسيوني وهو يكتم ضحكة . فيعلم بسيوني أن المدير يداعبه . قبل أن يدخل المدير الحجرة التي تعمل فيها زوجته ينظر إلى بسيوني ويشير بسبابته إلى الحجرة التي يجلس فيها غالب ، المترجم .

تتكشف الحقيقة لبسيوني فجأة ، فيدرك سبب هذا الجو الودود المحيط به ، وهذه الإشارات إلى الحجرة : إنها هناك في حجرة المترجمين . يعدو نحوها ويفتح الباب . يراها منكبة على مجلة مصورة ـ جاءت تبحث عنه ، وها هي جالسة تنتظر .

ـ إزيك يا بهيه؟ .

تنظر إليه نظرة جادة ، مؤدبة ، وتقول :

ـ كويسه .

ما تزال طفلة ، ولكن أية حلاوة وطعامة . تنظر إليه ثم تعود إلى المجلة وكأنها لا تشعر بوجوده . يكتشف فجأة أنه لايرتدي بنطلوناً أو سراويل . يحاول أن يخفي عضوه التناسلي بكفيه ، يحاول الهرب من وجه الصبية التي لا يبدو أنها تراه ، وهو خلال ذلك يفكر : إن عباس هو السبب ، بذلك المقص الكبير الذي لا يصلح لتقليم الأظافر يقرر أن يقترب من المكتب الذي تجلس عليه الفتاة ويلتصق بحافته فيخفي جزءه الأسفل .

ولكن الفتاة تنظر إليه وتبتسم تلك الإبتسامة الجميلة التي تدير الرأس . يخفي عضوه التناسيلي بكفيه ويقهقه . تقول :

ـ مالك مكسوف كده؟ .

فيقول :

ـ مالي؟ .

ـ فيها إيه يعني؟ ما انت كده جاهز! .

وتنهض وتقترب منه .

يصحو من غفوته المرهقة . يطالع الجالسين بعينين حمراوين ، مشحونتين بالعنف . يرفعهما فيرى عيني الجرسون مسلطتين عليه . كأن بهما إلحاح يطالبه بيقظة تحجز عنه النوم . (كان خلال ذلك يريد أن يخلو لنفسه ليعالج هذ السؤال الذي طرأ عليه : ماذ لو دخل المدير أوعباس عليه وهو في تلك الحالة مع الطفلة؟) قال له

الجرسون إن المعلم حسن جاء فلقيه نائماً ، فغضب وانصرف . أدرك بسيوني بشكل غامض أن الجرسون يهزأ منه وأحس بأنه موضع سخرية الآخرين ، وأن رواد المقهى قد كشفوا سره . رأى نفسه مطالباً أن يفعل شيئاً يرد به اعتبار نفسه أمامهم ، ولكن النوم يلح عليه .

قال للجرسون :

ـ قول لحسن أنا قاعد مستنيه .

قال الجرسون :

ـ المعلم حسن زعل . . .

وقبل أن يكمل قال أحد الزبائن :

ـ انت قاعد مستنيه وإلا نايم مستنيه؟ .

وارتفعت الضحكات . رأى بسيوني فماً مفتوحاً فوقه ، يكشف عن أسنان بيضاء ، لها جذور مسودة . أرهقت تلك الصورة عينيه فأخذتا تدمعان ، وعذّبه ذلك الحضور المطالب باليقظة والمناورة والفعل الحاسم ، فعاد إلى النوم ، وصورة ذلك الفم تتراءى ثابتة أمام عينيه .

* * *

صحا بسيوني بمجرد دخول المعلم حسن إلى المقهى . أخذ يطالعه بعينين كجذوتين من نار . حيا المعلم الجميع ثم اتجه إلى بسيوني . قال له وهو يضع قطعة الأفيون في يده ، دون أن يحاول إخفاءها :

ـ إنت كبرت يا عم بسيوني .

بذلك الصوت العريض المحايد .

وضع بسيوني كمية مضاعفة من الأفيون فوق لسانه . العبارة التي قالها حسن جعلته يتوتر . لم يستطع التحكم فيه . شرب الشاي بنهم مستمتعاً بلذعه ومرارته . طلب آخر وشربه أيضاً . عليه أن يشرب أكواباً كثيرة قبل أن يذيب هذه القطعة الكبيرة من الأفيون التي فوق لسانه .

بعد قليل انزاحت تلك الغشاوة التي تراوغ عينيه وتجعل كل شيء يبدو مضبباً ،

وأخذت الألوان والأشكال تتمايز بوضوح شديد .

خرج من المقهى . كانت الحواري أليفة ودودة . أخذ يفتش بعينيه عن ذلك الشباك الذي رأى من خلاله شعر المرأة المبلول ونحرها الساطع . يكاد يحس ملمسها الرطب بالماء على شفتيه . تخيلها في وقفتها تلك ، وأنها سوف تظل كذلك إلى أن يراها مرة أخرى . نتف من حواره مع حسن تتوارد على ذهنه : (تأخرت يامعلم؟ الولد عيان أخذته للدكتور . . أنا تعبان . . يقول والمعلم حسن يسير بجواره كبيراً قوياً . . يقول : والنبي يا معلم بسيوني إنت صعبان عليا . . إنت خلاص كبرت ، والأفيون جامد عليك . . أدخل مصحة . .) بدا له المعلم حسن في هالة من الصفاء والوداعة . (غداً الخميس . سيتناول جوزة الطيب المدقوقة مخلوطة مع السمن البلدي والعسل الأبيض . . يأكلها بعد العشاء ثم قطعة الأفيون مع الشاي ـ وإلا كيف يطيق الإنسان الاقتراب من مثل زوجته ـ واد بتاع بوكس ، جمل ، من بتوع نادي الجزيرة خد معلقة صغيرة من الخلطة ، قام وقع . بطوله رجاله ورق . يحيا الجدعان) .

عندما خرج من تلك الحواري واجهه عصف ريح الخماسين . لم يضق به . أنعشته الريح الرطبة المندفعة من النهر وهو يسير فوق كوبري أبو العلا . جففت عرقه . دخل الزمالك فاجتاز الشارع وشرب شاياً في مقهى الخيام .

حين دخل الوكالة كان مرحاً للغاية .

شهادات

تصف كيف انتهى ذلك اليوم نهايته الفاجعة

كان كارل شميدت يقف بباب حجرتي ، يداه تمسكان بجانبي الباب ورأسه يكاد يبلغ نهايته . قال :

ـ صباح الخير يا مسترغالب . من فضلك ، هل أنت مشغول الآن؟ .

كان ذلك في الثامنة والنصف صباحاً ، وأنا أجلس أمام الآلة الكاتبة أسجل عناوين الأخبار والتعليقات الهامة في الصحف والمجلات حتى أترجمها إلى الإنجليزية . كان علي أن أنتهي من ذلك قبل الساعة العاشرة والنصف ، موعد المكالمة الخارجية الصباحية ، حيث تتصل برلين بفرع الوكالة ، فينقل إليها المدير الأخبار على التليفون .

قلت له إنه يعلم أنني مشغول .

قال :

ـ بالطبع . لن آخد من وقتك طويلاً ، خمسة دقائق فقط .

قلت :

ـ كما تريد .

قال وهو يدخل حجرتي ويجذب كرسياً ويجلس قرب مكتبي إن المسألة مهمة ، وغريبة . أخرج علبة سجاير المارلبورو ، قدم لي سيجارة ووضع أخرى في فمه وأشعل الاثنتين بولاعته الرونسون . جذب نفساً عميقاً وقال :

ـ الأمر يتعلق بمستر بسيوني .

قلت لنفسي : «ليذهب هذا المحتال ، اللص إلى الجحيم ، فإن مشاكله وأكاذيبه لا تنتهي» .

كانت عينا شميدت حزينتين . قلت أستعجله :

ـ ماذا حدث؟ .

قال :

ـ شيء مروّع .

(عندما دخلت الوكالة في الساعة الثامنة هذا الصباح كانت الزوجة جالسة في حجرتها تصحح الأخبار الواردة على التيكرز ، ووجهها كعادته في مثل هذه الساعة كان غاضباً . رفعت رأسها وعندما رأتني قالت :

ـ لا بد أنك علمت بماحدث؟ .

قلت :

ـ لا . ماذا؟ .

قالت وهي تضحك :

ـ لا تعرف؟ الذي عمله بسيوني الخميس بالليل؟ ألم تسمع بماحدث؟ .

كنا في صباح السبت . قلت :

ـ لا . ماذا حدث؟ .

قالت :

ـ لقد قام بعرض ستربتيز ! .

قالت ذلك وهي تقهقه بطريقتها الغريبة التي تمتزج بحيوية غاضبة ، ثم أضافت :

ـ بسيوني ذاك .

قدرت أن هذا العجوز المأفون قد تناول كمية كبيرة من الأفيون ، وأنه قد استظرف وأخذ يرقص بطريقة أزعجت الشخصية الألمانية الجادة .

قلت :

ـ فليذهب إلى الجحيم .

واستدرت لأنصرف . فقالت :

ـ زوجي سوف يخبرك) .

قلت لكارل شميدت :

ـ أنا أعلم أنه يفقد عقله أحياناً .

قال شميدت :

ـ أجل . أفيون أكثر مما يجب .

أطفأ سيجارته ثم أضاف :

ـ جاء بسيوني في الواحدة والنصف ، ثم غادر الوكالة في الرابعة ليأتي بالأخبار من وكالة أنباء الشرق الأوسط . تأخر كثيراً ـ جاء في حوالي السابعة .

ـ كل هذا الوقت؟ .

ـ تأخر كثيراً . ولم يعتذر عن تأخره ولم أسأله لأنني كنت مشغولاً للغاية ، أعد التقرير الإخباري بانتظار مكالمة برلين المسائية . كان في حالة غير طبيعية . عيناه كانتا غريبتين ، وكان مرحاً جداً .

قلت :

ـ مرح؟ .

قال :

ـ أنت تعلم ما أعنيه ؛ يضحك كثيراً بلا سبب ، أحياناً يضحك وحده وأشياء كهذه . . .

ـ آه .

أضاف شميدت :

ـ في السابعة والنصف ، قبل ذلك بقليل ، جاءت مكالمة برلين المسائية وانشغلت بها أنا وزوجتي . ابنتي كلارا كانت تجلس هنا . (وأشار إلى المكتب الصغير الذي وضعت فوقه الآلة الكاتبة) . وقف بسيوني هناك بباب حجرة المطبعة ونادى الطفلة بإشارات من يده ورأسه . ولكنها لم تعره أي انتباه . ألح بمناداتها ، فتجاهلته . أتى إلى حيث تجلس وأمرها أن تبتعد عن المكتب لأنه يريد أن ينظف تحته . لم يكن بحاجة إلى ذلك لأنه نظف الحجرة في الثانية ظهراً . رفضت ابنتي أن تطيعه . بعد قليل وقف بسيوني مديراً ظهره إلى شباك الحجرة ووجهه إلى الطفلة ، واخذ يفك أزرار بنطلونه ، وأخرج عضوه التناسلي وأخذ يلعب به أمامها . . . .

قلت :

ـ ماذا؟ .

قال :

ـ هذا ماحدث . أخرجه وأخذ يلعب به . لم يلمسها أو يفعل شيئاً كهذا ، لا أعتقد أنه كان يريد الاعتداء عليها ، بل الغالب أنه كان يمارس العادة السرية أمامها . . .

قلت :

ـ في مثل هذ السن . .

ثم توقفت لأدعه يكمل .

قال :

ـ إن كلارا مجرد طفلة كما تعلم ، فلم تخبرنا ، أمها وأنا ، بل أخبرت أخاها هيرمان . فاختبأ تحت مكتبك . بعد قليل دخل بسيوني مرة ثانية وأعاد الفعلة مرة أخرى ، فخرج له هيرمان من تحت المكتب فأخفى بسيوني الشيء . أخبرني الطفلان بعد أن انتهت المكالمة . غضبت للغاية . ناديت بسيوني وسألته فقال إن الفتاة تكذب ، ولكنه اعترف أنه فعل ذلك في المرة الثانية عندما خرج له هيرمان من تحت المكتب . قال لي إنه اعتقد أنه في الحمام .

قلت :

ـ تبرير مقنع بالفعل ! .

قال شميدت :

ـ كنت غاضباً جداً ، فقلت له باللغة العربية : مش كويس بسيوني ، مش ممكن . . قلت ذلك لأنني كنت غاضباً . فأخذ بسيوني يقول : أنا ، أنا ، ما فيش مخ يا مستر شميدت ، ما فيش مخ . . . أخذت مفاتيح الوكالة منه ، ومفتاح الحجرة التي في العمارة هنا ، وطلبت منه أن يعود يوم السبت ، يعني اليوم ليأخذ حسابه ، ويمضي .

شهادة الطفلة أمام ضابط البوليس :

ـ أوه ، بسيوني . . إنه وقف في تلك الحجرة حيث يعمل عباس . ناداني بإشارة من يده فلم أرد ، وواصلت الدق على الآلة الكاتبة . . . بيده ، تعالي أوه ، تعالي . .

لم ألتفت إليه وواصلت الدق على الآلة الكاتبة ، ثم دخل ووقف قرب التليفون حيث يجلس مستر غالب ، وفعل ذلك الشيء .

قال لها ضابط البوليس :

ـ اشربي الكوكا كولا .

عندما انتهت من شربها ، سألها وهو يبتسم :

ـ ما هو ذلك الشيء؟ .

كان يكتب خلال ذلك .

قالت :

ـ أوه ، ذلك الشيء ، فك أزرار بنطلونه ، ثم ذلك الشيء . ثم جاء هيرمان . جاء بعد أن خرج بسيوني ، قلت له فلم يصدقني . قلت له : اختبئ تحت مكتب مستر غالب وسوف ترى بعينك .

قاطعها الضابط وطلب مني أن أسألها إن كان الولد بسيوني (حاولت أن أصحح معلوماته وأخبره أن بسيوني يناهز الستين ، ثم عدلت عن ذلك) قد لمسها ، أو اقترب منها حتى لامسها . ترجمت السؤال الذي ترجمه أبوها لها ، فقالت :

ـ لا . ولكنه كان يلعب بذلك الشيء . نظرت إليه ، ثم عدت إلى الآلة الكاتبة . قلت إنه مجنون ولا شيء غير ذلك . واستمر يفعل ذلك الشيء ، ثم جاء هيرمان ، فحكيت له ، فلم يصدقني ، فقلت له اختبيء تحت مكتب مستر غالب الذي يترجم ، فجاء بسيوني وفعل ذلك الشيء ، فخرج هيرمان . . .

شهادة هيرمان :

ـ عندي عشرة سنين وشهر وثلاثة أيام ، بينما تبلغ كلارا سبعة سنين فقط .

قاطعته الطفلة :

ـ بعد أسبوع سوف أبلغ الثامنة .

فقال لها أبوها بحزم :

ـ لا تقاطعي أخاك . دعيه يكمل كلامه .

استمر هيرمان :

ـ هي هكذا دائماً . . . على أية حال ، كانت تدق على الآلة الكاتبة . دخلت ، قالت لي إن بسيوني فعل ذلك الشيء .

قال الضابط :

ـ هل لمس بسيوني أختك أو اقترب منها حتى لامسها؟ .

قال هيرمان :

ـ لا . لأنني خرجت من تحت المكتب ، وعندما رآني أخفى عضوه وقال شيئاً باللغة العربية وخرج .

قال الضابط :

ـ هل تعرف ماذا قال؟ .

ـ لا أعرف . ضرب رأسه ، وقال شيئاً لنفسه وليس لنا ثم خرج .

قالت الطفلة كلارا :

ـ كان يضحك . . بسيوني هذا . . طيلة الوقت يضحك بلا توقف وهو يفعل ذلك الشيء . . يضحك ، ويضحك ، ولكنه عندما كلمه بابا لم يكن يضحك . كان يضرب وجهه بيديه كثيراً .

قال هيرمان وهو يحاول أن يقلد حركة الوجه والجبين :

ـ كان يقول : أنا ما فيش مخ . . هنا ، هنا . . .

شهادات اخرى :

بعد الحادث ، وبعد المواجهة مع المدير غادر بسيوني الوكالة ، وذهب إلى مركز الشرطة في الزمالك (قسم الجزيرة) وحرر محضراً قال فيه إنه خائف على نفسه ، إذ أن مدير الوكالة التي يعمل فيها والمدعو كارل شميدت ينظر إليه نظرات غريبة . وبينما هو ـ بسيوني ـ جالس هجم عليه المدير فجأة واختطف مفاتيح الوكالة والحجرة التي ينام فيها . ثم أخذ يرغي ويزبد ويهدد بسيوني بالقتل .

أضاف بسيوني في بلاغه أن الخواجه المذكور غيرمتعود على جو مصروخاصة الخماسين ، ولا بد أن شيئاً قد حدث في عقله من أثر الجو فأقدم على هذا التصرف

الغريب .

وفي نهاية البلاغ طلب بسيوني حمايته من هذا المدير العجيب ، خاصة وأنه أجنبي وقد يتبلى عليه باشياء أو أعمال لم يقم بها .

قال عباس إنه بعد ظهر يوم السبت ، في الثانية والنصف ، جاء بسيوني وجلس على الدكة التي أمام باب العمارة التي فيها الوكالة . في حوالي الثالثة جاء المخبر لإلقاء القبض عليه ، فقال له بسيوني :

ـ إنت مش عارف أنا مين؟ .

ولكن المخبر كان من النوع الذي لايميل إلى تبادل الأحاديث الطويلة ، أو ممن يهتم بمقامات الرجال ، إذ مد ذراعه وجذب بسيوني بقوة . ، وقال :

ـ قوم ، بلاش جليطه .

فنهض بسيوني وقال بعنف :

ـ يلا بينا ، بس حاتندم! .

ثم يروي عباس الحكاية التالية ويقول إنه شاهدها بعينيه :

ـ حصلت حاجه غريبة . على رأس شارع البرازيل ، وقفت ست لابسه بلدي ، بس ست محترمه ، مش بتاعة بهدله . لما شافت بسيوني رفعت ايديها للسما وقالت :

ـ يا ما انت كريم وجبار يا رب! إلهي يا بسيوني ، يخرب بيتك وييتم ولادك .

يقول عباس : إن وجه بسيوني اصفرّ ، وارتعش ، أخذ يقسم للمخبر أنه لم يرها قط في حياته .

ليلى في قلب ميدان الدقي

ميدان الدقي الذي كان يبدو لليلى في ساعات همود الحركة فيه مجرد ميدان لمدينة ريفية رأته الآن واسعاً ، في وقت الظهيرة ، يعيش صخب وعنف وسط البلد .

في ساعات سكون الحركة يجتاح شارع التحرير ، قادماً من كوبري الجلاد ، باتساعه وشجره وخلّوه من العربات والمارة ميدان الدقي فيعتصره في داخله كمجرد شذوذ يواصل بعده اكتساحه الشاسع نحو بولاق الدكرور . تتأكد حركة الاجتياح بالنسبة لليلى عندما ترى أعمدة النور المغروسة في الرصيف الأوسط للشارع ، مادة ذراعيها على الجانبين ، كقطار قادم من بعيد يتضخم جزؤه الأمامي في اندفاعه وتتصاغر العربات الخلفية حتى تبدو نهايته كزاوية في رأس مثلث .

كان صخب الميدان ، في هذه الساعة ، مختلفاً عن صخب وسط المدينة المتأنق ، (في هذا الوقت يبدو شارع سليمان كمعرض كبير للأزياء ، إذ يزدحم بالموظفات الخارجات من أماكن عملهن وقد أخفين وجوههن المرهقة خلف قناع الزينة) بعساكر المرور في كل مكان ، وإشارات المرور ، وأماكن عبور المشاة محددة بخطوط بيضاء نظيفة .

أما صخب هذا الميدان فقد كان عنيفاً ، متربا رثاً وعدوانياً . كان عنفاً مجازفاً ، خطراً بهذا النهر البشري يتلوى بين السيارات المزمجرة الخانقة : فتيات يحملن أطباق الفول الغارقة بالزيت ، وعلى أكتافهن أطفال يسيل من أنوفهم مادة لزجة سمراء ، خادمات يحملن أكياس نايلون تكاد تنفجر بحمولتها ، رجال يعدون حاملين لفائف غامضة ، تجار الفواكه الصعايدة بعيون شبه مغمضة يحاولون أن يبدوا رجالاً ذوي فظاظة ودهاء ، ثدي أسمر ، كبير ، مشرع ، يتلقفه في فمه طفل نائم ، مسطحات من عروق النحل متقاطعة مكوّنة مربعات ومستطيلات عليها أكوام من الخبز الساخن ، الطري ، سيل لا ينقطع من الناس يجوب شارع سليمان جوهر ، يعبر الميدان في اتجاه

بولاق ثم يدخل داير الناحية حيث تمتصه بيوت الدقي القديم التي تشبه خلايا النحل .

وليلى تخوض هذ الزحام المترب ، في جوف حلة من تراب الخماسين الذي يتعلق بحواجبها ورموشها . . وودت لو تموت وينتهي كل شيء أو يتوقف هذ الزحام المجنون ، هذا العصف الترابي المجنون .

كان التراب الأبيض ، الرملي ، الدقيق في عينيها ، تحت الجفنين ، يجرحها ويجرحها كلما أغمضت عينيها أو فتحتهما . تحس به في الأنف ورماً جافاً يمنع التنفس ، وفي الحلق تحس به كحاجز ملوّث تحاذر أن ينساب اللعاب من فوقه إلى معدتها . وكان لسانها جافاً ، تخيلته مغطى بطبقة بيضاء من بقايا الطعام ومن التراب . التراب في ظهرها وتحت إبطيها ، وتشعر بالعرق وهو ينساب قطرات بطيئة عبر عامودها الفقري ، تحس به بارد الملمس فاجراً يداعب جسدها ببطء وإلحاح . بدا لها كعملية اغتصاب كتلك التي تحدث في أحلامها الكابوسية .

حاولت أن توقف التنفس : مزيد من التنفس يعني مزيداً من التراب يعبر إلى الداخل . وكانت مسيرتها زلقة لأن قدميها كانتا عرقانتين في الحذاء .

عندما توقفت أمام العمارة التي يسكن فيها غالب تراءى لها ما هي مطالبة به من تبادل الحديث والمناقشات ، ومن إلحاحه أن تتناول معه طعاماً يمر عبرحلقها المسدود بالتراب ، فعزفت عن الصعود . وما غاب عنها ، أي ما عجزت أن تضعه في كلمات هو أنها لم تحب أن يراها غالب وهي مهانة : كانت مذلة بالعرق البارد الذي ينزلق على جسدها كيد ، ينساب على عامودها الفقري بطيئاً وملحاً كحشرة تزحف داخل ملابسها تتحسس جسدها بوعي محايد فتراه مثيراً للاشمئزاز .

عادت إلى موقف الأوتوبيس ووقفت تنتظر . كانت تترقب انسياب العرق بين لوحي الكتفين إلى منخفض العامود الفقري ، ينبت تحت الإبطين ويسيل فيمتصه مشد الصدر ، ينبت تحت الذقن فيسيح على الرقبة و ينساب بين النهدين ، ينبت في البطن وينتشر . . كان العرق مثل أياد قذرة دبقة تجوب جسدها بلا خجل .

وبعد قليل جاء الأوتوبيس ، مندفعاً بهوج أخرق ، مجنحاً ، مغلفاً بزوبعة من الأوراق والتراب ، ووقف مائلاً بثقل الراكبين على السلم والباب . تلا ذلك الاندفاع المستميت على ركوبه رغم أن الركاب يتدلون من الباب ومن الشبابيك ويجلسون على سقفه . . رأت ذلك ، اختنقت بالحنق لحظة ، ثم أدركها اليأس «أينما اتجهت وإلى أي

مكان التجأت فلسوف تنفذ إلي وتتخللني هذه العاصفة الترابية بصفاقة دؤوبة، ملحة، وما علي إلا أن أخضع». قالت لنفسها وإن لم يكن بهذه الكلمات نفسها ولا بالوضوح نفسه.

كان يأساً مريحاً.

وتذكرت بحكمة مَن قرر التلاؤم مع الواقع هذه الحماقة التي ارتكبتها منذ يومين. كان يوم إجازة، الشبابيك مغلقة لتصد الغبار، وهي تجلس بقميص النوم تتنقل دون هدف بين الحجرات. من خلف الزجاج كانت تستطيع أن ترى العاصفة الخماسينية خاثرة بالتراب الأسمر. دون أي هدف واضح ارتدت ملابسها، فعلت ذلك بسرعة ودون عناية، ثم غادرت البيت وذهبت إلى بيت عمها الذي يقع على بعد قليل. كان عمها العجوز يجلس وحيداً، يعاني السأم والضيق. فرح بزيارتها ودعاها للجلوس فقالت:

ـ شايف الزفت التراب دا يا عمي؟.

فشاركها الشكوى، ثم استدارت لتنصرف. خرجت إليها بنت عمها وألحت عليها أن تجلس، ولكنها قالت باهتياج إنها لن تستطيع أن تجلس دقيقة واحدة، وانصرفت. وهي تسائل نفسها عن السبب الذي جعلها تفعل ذلك فلا تدري. «الأغلب أنني جننت» تقول لنفسها. ومن يستطيع أن يحتفظ بعقله سليماً في مثل هذا الجو؟.

على شرفة في الجهة المقابلة من الشارع رأت الفتاة، وبعيني الفتاة رأت نفسها ـ كانت الفتاة خارجة من الحمام وقد لفت رأسها بفوطة كبيرة مزركشة وارتدت روباً، أحمر، فضفاضاً، ووقفت على الشرفة تنشر بعض قطع الغسيل ـ تذكرت بحنين، وكأن ذلك حدث منذ زمن بعيد، قطع الملابس الداخلية التي تغسل بعد الاستحمام وتنشر. بهاتين العينين رأت ليلى نفسها مثيرة لتقزز، مهجورة طعنتها في العمق تلك النظرة الندية، المتفحصة الشبيهة بقطيفة سوداء. وكان رد الفعل فورياً، إذ رأت نفسها كمشروع، ليلى التي سوف تكون، ليلى المخرجة أو الممثلة المشهورة بسيارتها الفاخرة ـ في تلك اللحظة أضافت جهاز تكييف إلى السيارة ـ هي التي واجهت تلك النظرة وحاولت أن تتحداها وتنتصر عليها. ولكن تلك النظرة نفذت إليها واستقرت في داخلها وراحت تتضخم وتلح، وتضخم إحساسها بالهزيمة والعار الذي يبلل

جسدها.

وأتى ذلك الانفجار الصاخب، أتى سيلاً متدفقاً من الغضب، كأن ذلك رداً على موقف منتظر:

(غالب وقد ارتسمت على وجهه الفرحة والدهشة المعتادتين عندما يراها. مرحباً يدعوها إلى الداخل، ثم مواسياً.

ـ شوية تراب يعملوا فيكي كده!.

ثم زجاجة الكوكاكولا المثلجة وفنجان القهوة. يعرض أن يأتيها بحبة أسبرين. ربما طلب إليها أن تبتسم ـ أن تزيل هذه العقدة التي بين حاجبيها ـ أو ربما قال لها.. ولكنها تنفجر:

ـ اسمع، أنا قاعده خمس دقائق وماشيه، خمس دقائق يعني خمس دقائق، مش عايزة نصايحك، ولا آراءك، أنا حره في نفسي أعمل اللي أنا عايزاه. مش عايزه أذاكر، مش عايزه أحب، مش عايزه أي حاجه في الدنيا...

ـ طيب تغدي وامشي..!.

ـ مش عايزه قلت ألف مره مش عايزه..).

ولكن غالب كان ينضح بالعرق، يتنفس بصعوبة، عيناه حمراوان. قال وهو يلهث:

ـ أهلاً ليلى.

ثم أضاف بعد أن دخلت:

ـ عامله إيه في الجو الفظيع دا!.

دون أن يكون مبالغاً في مودته.

خذلها غالب، وها هي خجلة من نفسها تود أن تعتذر. كانت قد أعدت نفسها لموقف مختلف تماماً.

أخذت تتكلم بسرعة وارتباك، وبين الحين والحين يمتقع وجهها خجلاً دون سبب ظاهر. وكان غالب قليل الاستجابة، يزيل العرق عن وجه بمنديل في يده ويجذب أنفاساً عميقة من الهواء ويقول إنه سيختنق. بدا لها في استغراقه بهذه الأفعال الصغيرة

ممتنعاً ، وكأن لاشيء سوف يرضيه .

قالت وهي تعلم أن ذلك سوف يسعده أنها جائعة . نادى الخادمة وطلب إليها ان تعد الغداء . فتحت الخادمة عينيها على سعتهما وابتسمت :

- إزيك يا ست ليلى؟ .

- إزيك يا ام قدريه؟ .

لم تكن أم قدرية متحمسة كالعادة لرؤيتها .

قالت ليلى :

- إنت تضايقت علشان قلت حا اتغدى هنا! .

قال غالب :

- انتي مجنونه! .

ولم يزد . أربكها الصمت . قالت إن أحد طلبة المعهد اعترف لها بحبه ، وإنها قالت له : لنبقَ أصدقاء .

أخذت تعبث بشعرها ، قالت إنه مترب . صمتت . بعد قليل قالت :

- كنت عايزه أسألك ، إيه هو الفرق بين الوجوديه والماركسيه؟» .

ما بعد الرواية

شباك على الرعب

في الليل . عتمة رخوة وأضواء كابية . النسيم مشبع برذاذ البحر الذي أحس به على وجهي وذراعي وصدري . الأمواج ، زبد أبيض يعدو من بعيد . تلتحم الموجات البيضاء التي تومض في الظلمة ، تكوّن خطاً طويلاً ، ضيقاً ، أبيض ، ثم تصدم بخرق صخور الشاطئ محدثة دوياً .

أحس بالحنين إلى هذا الجو وأنا فيه ، عندما أتذكر حر القاهرة الرطب الخانق .

هذا الجزء من كورنيش الاسكندرية الممتد من شاطئ جليم حتى شاطئ مصطفى كامل مهجور في هذه الساعة المبكرة من الليل . القلائل ، المعتمون ، الذين يجلسون على الدكك الخشبية أو على سور الكورنيش صامتون ، صمتاً منذراً بالشر .

أسير مخدراً ، تبهظني أشواق مستحيلة . أرى المدينة عبر وعي مسجون بتداعيات أحلام اليقظة ، واستعادة الماضي ليصبح حاضراً ، و اقعاً ، ممكن التحقيق : تنبعث المرأة وتتجسد أمامي شامخة ، مهيبة وسط عتمة تذوب فيها ألوان الطيف القادمة من شباك مكسور القوس في منتصف الجدار الذي على يمين الداخل . الأثاث ، والأقنعة المعلقة على الجدران ، والمنمنمات تبدو شبحية وسط تلك الألوان والإضاءات السابحة في ذلك الفراغ الأسمر . بلوعة أسترجع ذكرى فخذيها الساطعين ، والنهدين العاليين ، الصلبين ، والفم الدسم ، المفتوح قليلاً على شبه ابتسامة ، شبه اندهاش ، بدعوة إلى التقبيل . بهذا الوقر من الرغبة المستحيلة التحقق أطالع هذه المدينة ، أطوف وأتغلغل عبر هذه الغرابة ، أجعل حواسي مصيدة لكل صوت أو رائحة أو مشهد حتى أقتنص ألفة هذه المدينة المراوغة .

أسير وأسير مفتوناً باستدارات الكورنيش اللينة الخطوط ، بالتلال الصخرية التي ترتفع على يساري تنحدر منها دروب ضيقة ، ملتوية ، كلسية ، بيضاء وسط الصخور المتربة ، الرمادية . . . أطوف مبهوراً بالبيوت المبنية فوقها ، الشبيهة بالأبراج ، وكأنها

تجسيد لحلم . . وأرى المرأة . . . وكأنني أرى كل هذا وأحسه وأسجله في ذاكرتي من أجلها . . أرى وجهها مندهشاً بالقلق ، حاجباها قد اقتربا ، وثدياها مشرعان ، الحلمتان سمراوان ، مرتفعتان : يكاد الثديان يتماسان . ثم أستعيدهما بالمشد ، مضمومين مقسورين على التجاور . إنني ، أقف فوقها ، أنحني لأقبل العينين ، فأرى سرداباً ، ضيقاً ، مظلماً ، بين النهدين . . . ها أنا ذا أحس ملمس يدها وهي تداعب وجهي ، يدها تحيطان بوجهي ، ملمس راحتيها على خدي ، وشفتاها تلمسان شفتي مجرد لمس ، أحس نعومة بشرتها على جسدي فأجن شوقاً وعجزاً ، أكاد أبكي . . .

تنحسر حدة هذه المشاعر ببطء ، وتبتعد ، ولكنها تظل معلقة في الهواء حولي كضمير النادم . . . وأنا أغوص في جوف تلك العتمة الهلامية ، المشبعة بروائح الطحالب المتحللة ، والملح ، والصخور العتيقة التي ترتع البكتيريا المتعفنة في تلافيفها المتحجبة عن الشمس ، والأسماك الميتة ، والقواقع . . . أشم تلك الرائحة الدسمة ، العطنة ، الطازجة ، للبحر وللمدينة . . . خلال ذلك أفكر في الرواية التي بدأت كتابتها في جو الخماسين عنه ، قلبُها تلك المرأة الشامخة ، وليلى التي تكاد تكون أحد تفصيلاتها الصغيرة ، أفكر في الرواية لأنني أفكر في المرأة ، ولأن رغبتي في ملامستها ، في الإحاطة بجسدها قد تصاعدت واحتدت حتى أصبحت لا تطاق . . . وأتذكر أنني توقفت عند نقطة في هذه الرؤيا لم أعد بعدها أستطيع أن أضيف كلمة واحدة ، عشت عدة أسابيع بعد ذلك تحت وطأة الإحساس بموت القدرة على الخلق .

لقد قلت لنفسي ، لو أنني عدت إلى تلك المرأة ، لو أنني تحدثت إليها وسمعت صوتها لزالت عني هذه العنانة . لم أجرؤ أن أزورها أو أتصل بها بالتليفون ، فأمضيت ساعات طويلة أدور حول بيتها ، أتوقف أمام باب عمارتها ، أصعد أحياناً بالمصعد إلى باب بيتها دون أن أدق الجرس ، وأنا آمل أن تراني وتدعوني ، أن تلتقيني مصادفة فتكلمني ، ولكن ذلك لم يحدث . وأعود حزيناً وقلبي ثقيل ، راغباً في الموت . فأشتري زجاجة الويسكي وأصعد إلى السيدة التي تقطن معي في العمارة نفسها . نشرب ، ونشكو الحياة ، ونمارس الجنس بكثرة ، فنزداد حزناً وشكوى . . ثم أعود في الساعات الأولى من الصباح إلى شقتي . . ومعي رائحة المرأة ، رائحة فمها الثقيلة بالويسكي والتبغ . . وأقرر ألا أعود إليها مرة أخرى ، ولكني أعود بعد أن أنهي طقس الدوران حول بيت الأخرى التي ألقت في قلبي بذرة العنانة .

وتظل الرواية أمامي ، في حالة سيولة ، تلح علي أن تتم . فتبدأ الدورة اللعينة من جديد .

ولكنني ، رغم هذا ، احتفظت بجو الخماسين في داخلي ، بإحساس المهانة والإرهاق اللذين يعانيهما من يعيش في قلبه . كنت أعايشه في ركود الجو ، عندما يهبط صهد الظهيرة على الشارع ، ويظللنا عادم السيارات الكثيف برائحة البنزين المحترق ، مستعصياً على الرؤية ، ولكنني أرى ظله الشفاف ينساب على الأرض البيضاء الملتهبة كالوهم ، أحسه ساماً ، خانقاً يملأ رئتي ويلسع عيني . . . أعايشه في العرق الذي يبلل بيجامتي عندما أصحو من النوم ، في محاولة إدارة حديث جو المثقفين المتوتر ، حيث يستحيل أن يتم أحدهم جملة بدأها دون أن يقاطعه آخر ، في حبوب البيرجازول التي أمصها لإزالة احتقان الزور والتي أحسها تهبط في معدتي ، تغلي كماء النار ، في حبوب الكالوز المضادة للحموضة والتي تغلف حلقي ببقاياها فتجعلني أشعر وكأنني ابتلعت طناً من الغبار ، والتي تصبح السيجارة بعدها مؤلمة للحلق ، بلا طعم ، وكأنني أدخن تراباً . . . أعيش جو الخماسين بتصريحات موشيه دايان الاستفزازية التي أنطلق بعدها في أحلام يقظة دموية ، أنتهي منها بدعوة نفسي إلى التعقل .

ولكنني أخرج الآن من أسر ذلك الاختناق وأشم الهواء مغسولاً . لقد قالوا لي في الفندق الذي أنزل فيه : لا تَخَفْ هواء الإسكندرية ، إنه هواء حنون لا يسبب لك أذى ، وليس كبرد القاهرة الذي ينفذ إلى العظم . وها أنا ذا أشهد ذلك الآن ، أحس بمذاقه يسري في عروقي نشوة . يرافق ذلك بوادر يقظة وانفتاح للعالم .

وتولاني يقين أن الركود الذي سيطر علي طيلة شهرين ينتهي الآن ، وأنني لو أمسكت القلم لواصلت الكتابة دون توقف حتى أكمل الرواية . كانت تلك لحظة انبعاث . على الفور أخذ العالم المحيط بي يكتسب طابعه المزدوج : كونه واقعة عينية ، وكونه رمزاً ومادة للفن . ثم أخذ هذا الطابع المزدوج يتوحد ، ويندرج في سياق تلك الرواية التي توقفت عن كتابتها .

أخذت فعالية خاصة ، وعي ويقظة من نوع خاص لا سيطرة لي على مسارها ، تنشط ، تختار ، وتحذف ، وتدقق فيما يمكن استيعابه بهدف التعبير عنه . أصبح العالم موضوعاً لي ، أشكله كيف أشاء . ودخلت ذلك العالم الماثل دائماً والشديد

الاستعصاء ، عالم الأشكال الفنية ، حيث يصبح المشهد الحاضر ماضياً يستعاد بالكلمات . . . وبدأ ذلك الصراع المؤلم ، المجهد ، لوضع ما هو مشاهد وما هو محسوس في كلمات ، كلمات تموت على الفور إن لم تلمس وتراً داخلياً ، أو تجسد حدساً صادقاً .

وكانت تلك اللحظة الفريدة ، بالإضافة إلى هذا ، تجربة إحباط ، حيث يصبح العالم إمكانيات لا تتحقق ، وعد مؤجل بالنشوة : تتفجر كل إمكانياته مثيراً عنف الرغبة في كل ما يقدمه ، ولكنه لا يقدم شيئاً إلا كونه موضوعاً للكتابة ، فتتحول رغباتي وأشواقي إلى أدوات تحدد صياغتي للعالم . ومن هنا يتولد ذلك الإحساس بالزيف ، بأن ما أعبر عنه ليس هو الواقع كما أراه ، بل هو إضفاء فعاليتي الخاصة على الأشياء . . إنه ليس الواقع المحايد المبذول للجميع ، بل واقعي الخاص جداً . . . عالم خام ، ميت أمامي أمنحه صورته أنا ، ولهذا فأنا في حقيقة الأمر لا أكتب إلا عن نفسي .

هذه الحقيقة تؤلمني على الدوام وتمنعني من مواصلة الكتابة . وأتوه ، وأنسى نفسي .

من جديد تمليت استدارات الكورنيش ، انسيابه الأفعواني اللدن ، أرى لمحات من بهرجة الأضواء التي تبدو في بعض منحنياته ، اتملى البيوت المبنية على حافة الهضبة ، تطل من أعلى علي كأنها قدمت عَدْواً من مكان مجهول ثم توقفت قليلاً قبل أن تجازف بالهبوط إلى الكورنيش . . ثم فجأة تبينت الوحدة التي تتخلل هذه المدينة ، اكتشفت بحدس مباغت ما تجاهد هذه المدينة للإفصاح عنه : اكتشفت أنها امرأة ـ تلك المرأة الشامخة الكبيرة ، المعطاءة الضنينة ـ بتلك الاستدارات اللينة المتتالية ، بذلك التمهل الذي تطل به بيوتها من فوق الهضبة ـ محجبة باغتها مرأى الرجال يطالعونها بعيون وقحة ـ بذلك الهواء الناعم ، المداعب ، المعطر ، الذي يحتويني بملمس حان .

كانت تلك لحظة نادرة لا تجيء إلا في مكان غريب تجعلني غرابته أنفلتُ من الغرق في اللحظة اليومية المكرورة ، فأقتنص اللحظات والمشاهد والعالم ككليات ذات شمول ، كماض يستعاد .

ثم شق تلك المجاهَدَة ـ لوضع تجربة غريبة في كلمات ـ وعي شرس ، محتج ، يرفض الاسترسال في تلك الكشوف الكسولة ، مبتكرات الدرجة الثانية . قلت

لنفسي : «إنني أشهد لحظة التحام الرؤى المفككة ، المنفصلة ، التي مضى عليها زمن وهي ترفض أن ترتبط . . . إنها البداية . . . » ولكن تلك المجازفة الخرقاء ـ الإسكندرية امرأة ـ وذلك التعميم الرومانسي جعلاني أشعر بالاشمئزاز من نفسي ، ومن الكتابة .

تلا ذلك لحظة من فراغ الذهن ، لم أعد أفكر بشيء ، فأخذت أراقب خطواتي بسأم . ثم نفذت إلي صورتها ، عندما قالت : «إيه اللي عملته فيك؟» وحزنها يمتد على جانبي الأنف ويهبط إلى زاويتي الفم : حزن التماثيل الفرعونية الأمومي .

أعقب ذلك التياث الرغبة الذي حط علي ككابوس .

* * *

سئمت السير على تلك الشواطيء المهجورة ، سئمت تلك الغرابة وذلك الجمال الذي لا يصلح إلا أن يشاهَد ، واشتقت للناس ، لردود فعل متوقعة ، لإمكانية العطاء . فأخذت أبحث عن صحبة .

على يميني رأيت يافطة بيضاء مكتوب عليها (كازينو رشدي) ، وفكرت أنه بلاج رشدي إذن ، وأنه خلف هذا المرتفع الصخري حيث يمر الترام سوف تكون محطة رشدي ، وأنه على امتداد هذا العمق سوف يكون حي رشدي الذي يرتبط على نحو ما برشدي باشا السمين . ترددت قليلاً أمام باب الكازينو ثم قررت الدخول . وأنا أهبط درجات السلم تبين لي بلاهة فهمي السياحة للمدينة ، أدركت أن صورة الاسكندرية في ذهني ـ شأن أي سائح أو مصطاف ـ إنها مجرد بلاجات ، أو هي بلاجات في الأصل ، ثم أتي الناس ونشأت الأحياء كملاحق لهذه البلاجات .

دخلت الكازينو ، وأنا أعبر الصالة الواسعة جداً ، عايشت خيبة الأمل التي يجسدها بؤس المكان . مرة أخرى أعيش الفارق بين صورة كازينوهات الإسكندرية التي في خيالي وبين صورتها الواقعية .

كان الرواد قلائل وقدرت أنهم من أهل الإسكندرية بسبب جلوسهم بعيداً عن الشرفة المطلة على البحر . لا يمكن لمصطاف ، خاصة إذا كان قاهرياً ، أن يفعل ذلك . اجتزت الباب المؤدي إلى الشرفة . على يميني رأيت رجلاً وزوجته وأطفالهما الثلاثة ، أمامهم خمس زجاجات سباتس لم يلمسها أحد بعد .

جلست قريباً منهم في مواجهة البحر . أصبح الجلوس قريباً جداً من البحر واجباً بالنسبة لي . لم يكن الرجل وزوجته يتحدثان . كل ما كانا يفعلانه هو أن ينهرا الأطفال باستمرار . وفكرت أنه لولا الأطفال لما كان هنالك ما يقولانه لبعضهما ، ولكنهما ليسا من النمط الذي ينفصل لهذا السبب . تقمصت الزوج ، وللحظات حطت علي التعاسة . مسكينة هذه الزوجة ، إنها تعلم تماماً أنه لا يطيق أن يلمسها ، ومع هذا فعليها أن تتظاهر بالسعادة : «صيّفنا في إسكندرية» وتمضي هكذا معطية انطباعاً مختلفاً تماماً عن الواقع .

انصرفت وأخذت أنظر للبحر وقلت لنفسي ـ كأن ذلك لزام علي ـ إن البحر أسود وكبير . كانت مياهه تندغم بالظلمة ، وكنت أستطيع فقط أن أرى الزبد الأبيض يسير في اتجاهي كأنه منفصل عن الكتلة السوداء الماثلة أمامي . على خيط الأفق كانت أضواء سفن تلمع باردة ، منعزلة . وقد سألت عن كل السفن في الصباح ـ لماذا تقف هكذا دون حركة؟ ـ فتلقيت إجابات متضاربة .

عندما التفتُّ إلى الداخل رأيت الجرسون قادماً . توقف مستنداً إلى إطار الباب المؤدي إلى الشرفة . كان يرتدي جلابية ذات أرضية بيضاء ، تتخللها من الكتف إلى القدم خطوط زرقاء ، عريضة . كان شعره ثائراً ، أشيب .

وهو في وقفته قال :

ـ بيره؟ مش كده؟ .

أزعجني سلوكه فأدرت وجهي إلى البحر منتظراً اقترابه .

التفتُّ إليه عندما أصبح بجواري . قال :

ـ قلت بيره؟ .

قلت :

ـ شاي .

رغم أنني كنت أنوي أن أطلب بيره .

قال :

ـ باللبن؟ .

ـ سادة .

قال :

ـ إشرب الشاي وسيب اللبن .

وانصرف .

قلت لنفسي : «إذن ، ما الذي دعاه لأن يشاورني!» . بعد قليل أقبل مهتاجاً ، يتدفق بالشتائم . وضع الشاي أمامي بعصبية وأخذ يزعق :

ـ ابن الكلب! ابن الكلب! تمتاشر ألف جينه يا ابن الكلب! دا انا لو كان معايا مش تمتاشر ، ألف بس كنت عشت ملك . . .

وبعد العديد من الجمل المبتورة ، غير المترابطة والشتائم فهمت أنه يتحدث عن خبر نشرته الصحف في هذا الصباح : اكتشف البوليس ـ أظن أن ذلك بعد وفاته ـ أنه كان يخبئ ثمانية عشر ألف جنيه في أسماله .

أخذت أتأمل وجه الرجل . كان وجهاً عجوزاً مليئاً بالغضون : كان الوجه رسالة من حواري القاهرة وأحيائها الشعبية .

ثم أخذت أفكر في سعاد . كنت أعلم أن ذلك يملؤني بالضيق ، كما هي الحال دائماً ، وخاصة أنني أعيش في هذه المدينة بعيداً عن أية علاقة حميمة بالمرأة وأكاد أكون بلا أصدقاء ، وأختنق بالعجز واللهفة وأنا أرى مئات النساء شبه عرايا على البلاج ، قريبات للغاية ، واعدات على الدوام ومستحيلات .

أذكر أنني دخلت البيت فلقيتها جالسة على كرسي في المطبخ . قالت لي الخادمة إنها من حتتهم ، جاءت لتزور أقارب لها في منطقة الدقي فلم تجدهم ، فدعتها للانتظار هنا . علمت من الخادمة أنها مطلقة ، طلقها زوجها بضغط من أمه لانها لا تنجب . انجذبت إلى حديثها الهادىء الرزين ، وهي تحرك كفيها الكبيرتين بأصابعهما الطويلة ، تلك الحركة الأنثوية العريقة ، إذ تبدو وكأنها تجفف يديها .

قالت لي الخادمة إن أقاربها ـ كما قال الجيران ـ سوف يعودون العصر . فقلت لها ان بإمكانها هي أن تنصرف وتدع المرأة تنتظر .

أدركت سعاد إنني فتنت بها فسهلت البداية دون افتعال . تحدثنا طويلاً . وعندما جاء موعد انصرافها طلبت إليها ان تنسى أقاربها ، فلم تعترض . وعندما اقتربت منها

تصرفت بشكل تلقائي للغاية . جلست بجوارها وأحطت كتفيها بذراعي فمالت وجعلت وجهها يلامس وجهي . كانت تتحدث فصمتت . ثم أدارت وجهها وقبلتني على جبيني . كان ذلك حلواً رغم أنه أصابني بخيبة الأمل . فلقد كان وضع ذراعي حول كتفيها بداية خطة طويلة معقدة للإيقاع بها . غير أن كل شيء تم ببساطة ويسر . قلت لها فيما بعد إن كل شيء تم بسهولة في المرة الأولى . قالت إننا ما دمنا قد اختلينا معاً . وما دامت قد قررت أن تمتنع عن زيارة أقاربها فمن المفهوم أن ذلك سوف يتم ، فلمَ نطيل عذابنا .

أذكر أنها عندما قبلتني ترددت قليلاً : هل تعتبر ما تمَّ شيئاً عابراً ، أم هو البداية الحقيقية لما لا بد ان يحدث؟ حاولت أن تقول شيئاً ، ولكنها صمتت عندما لاحظت أن صوتي قد تحشرج وخشن بالتوتر ، وأخذت بكفها الكبيرة تداعب شعري تاركة لي اتخاذ القرار في البدء .

أذكر الآن صورتها وهي تتأهب للانصراف . أكون متمدداً في السرير وأنا أشعر بلذة الاسترخاء ، وهي ترتدي ملابسها بحركات مقتصدة واثقة . تتوقف أمام السرير وقد ارتدت ثوبها الأسود الطويل ، وضعت طرحتها فوق رأسها وقد اختفى كل ما يجعلها جميلة ـ جمالها لي وحدي ـ شعرها وصدرها وخطوط جسدها . . . عدا عينيها السوداوين ، المشعتين بحزن هادئ . تنحني علي ، وتقبل جبيني وخدي وتمرر أصابعها على وجهي ، ثم تستقيم ، وتستدير ، وتلتفت خلفها ، تنظرإلي بعض الوقت وتقول :

ـ فتك بعافية .

وتلك المرة الأخيرة . قررت أن أنهي كل شيء وكنت أتعذب . وأحاول أن أتماسك . وقفت أمام السرير ولكنني أدرت لها ظهري . وقفت بعض الوقت وقالت :

ـ أمشي؟ .

قلت :

ـ عايز أنام .

بعد فترة صمت ، ربما طالت ، قالت : .

ـ فتك بعافية .

كان صوتها بعيداً ، محايداً . وأعلم أنه صوت البكاء . سمعت خطواتها تتجه نحو الباب فجن جنوني : إنها النهاية .

ناديتها :

ـ تعالي! .

وظللنا طيلة الليل ساهرين نعذب أنفسنا . لكم أتعذب الآن حين أسترجع صورتها وهي تقف أمام السرير وقورة بعيدة . وتودعني بذلك الصوت الهامس ، الخالي من التعبير .

كانت علاقتنا قد بدأت بفهم خاطئ من جانبي (هل كان مجرد فهم خاطئ ، أم كان ذلك استجابة لذلك الجنون الذي في داخلي : الرغبة في تعذيب الذات ، وجعل العلاقة دائمة التوتر ، مشحونة حتى الاختناق بالغيرة والمشاحنات؟ كنت أود أن أهرب؟ أن أنسى حقيقة أن ملكة الخلق تموت في داخلي ، وأنني وقد تخليت عن المطامح جعلتها مطمحي الوحيد ، فبموتها كنت أواجه موتي؟) . قالت لي إن زوجها طلقها لأنها لا تنجب . فدفعني سوء الظن أن أعتقد أنها تخطط أن تحمل مني ثم تورطني . كانت تقابل زوجها كثيراً وكان يريد أن يعيدها ولكن أهله يضغطون عليه . طلبت منها أن تمتنع عن لقائه . استجابت في النهاية فاعتقدت أنها فعلت ذلك لتكسب أرضاً جديدة في علاقتها بي .

كل ما كانت تفعله من أجلي كنت أفسره بالتآمر من جانبها .

رسمت صورة لامرأة الأحياء الشعبية أنها تحب الرجل لأنه يرضيها جسدياً . فلجأت إلى تلك الوسائل الاصطناعية التي تطيل مدة الجماع ، وإلى المداعبات الفظة لأرضيها . لدهشتي رأيت أن ذلك يجرجها إلى درجة البكاء الصامت .

ثم أخذت أشك أن لها علاقة برجل آخر من الأحياء الشعبية . وتخيلته عنيفاً ، فظاً ، وجامحاً في السرير . وبذا تحولت لقاءاتنا إلى تحقيقات مستمرة ، وكل تناقض في إجاباتها كان يدفعني إلى ثورة أختنق بانفعالاتها .

كان سبب القطيعة النهائية بيننا الحادثة التالية : كنت أجلس في بيت محمود ، وهو رجل شعبي اعتقدت أنه صديقي . وكانت زوجته منصرفة إلى إعداد الغداء لنا . ثم أقبل ثلاثة رجال وأخذوا يحدثونه عن موضوع اعتداء شقيق أحدهم على شقيق

صديقي . قال المتحدث إن أخاه اعتقد أن المعتدى عليه شخص آخر ، واكتشف خطأه فيما بعد . ثم حكى حكاية طويلة يتخللها أسماء العديد من الأشخاص والأماكن التي أجهلها ففقدت اهتمامي بالموضوع .

وكان صديقي خلال ذلك ، يجلس محني الرأس ، جامد الملامح . لأول مرة أكتشف مساحة صلعاء ، مستديرة في قمة رأسه . وكانت زوجته تدير لنا ظهرها ولم تحاول أن تلتفت إلينا مرة واحدة .

عندما انتهى الرجل من حديثه أخرج صديقي علبة سجائره ومدها إلينا . كان الصمت الذي تلا ذلك ثقيلاً ، وكان وجه صديقي وقوراً ، قاتماً ، ثم أخذ يتحدث . كانت بداية حديثه أقرب إلى الهمس ، ولم يكن ينظر إلى أحد وهو يتحدث ، ثم أخذ صوته يعلو بالتدريج ، وكانت قمة الكريشندو أن كشف لنا الجزء الأعلى من جسده وأرانا جرحاً أسود ، بارزاً بعرض بطنه . ثم أدار لنا ظهره وهو يشير إلى عدة جروح غائرة ، بنية اللون ، ثم توجه إلى الرجال الثلاثة وقال : هل يعتقدون أنه طالب جامعة أو أفندي؟ هل يظنون أنه من النوع الذي يصفع على قفاه فلا يرد الصفعة .

وكان ذلك بالنسبة لي ، كأفندي ، يشبه أن يتحدث عنك مجموعة من الناس في حضورك بصيغة الغائب . عندما حكيت هذه الحادثة لسعاد ـ وكانت تعرف صديقي ـ كنت أريدها أن تتضامن معي وتقف ضد ذلك التهجم على طلبة الجامعة والأفندية . ولكن الواضح انها لم تلتفت إلى هذا الجزء من الحكاية ، ولم يخطر لها مقدار الألم الذي سببه لي ، إذ قالت عن صديقي :

ـ راجل! .

وأضافت أن جميع أهل الحتة يحترمونه .

كنت أتمدد بجوارها وأنا أختنق بإحساس مضن بالهجر . وبعد ذلك كنت أرفض أن أفتح لها الباب عندما تأتي . كانت تقف طويلاً ، تدق الجرس دقة خفيفة وتنتظر ، ثم تعاود الدق ، وتنتظر طويلاً حتى يخيل إلي أنها انصرفت ويستمر ذلك زمناً ثم أسمع خطواتها ثقيلة تهبط السلم . وخلال ذلك كانت تتراءى لي حزينة ، حزينة مشتهاة . أرى عينيها السوداوين ، الواسعتين وقد تقلصتا وأصبحت نظرتها مختنقة بالألم والخضوع ، شبيهة بنظرة قصار النظر . إن مجرد استرجاع تلك النظرة يجعل قلبي يفيض بالحنو ، ويرافق ذلك رغبة في الاحتواء والبكاء .

قابلتها بعد ذلك بمدة ، في الشارع صافحتها بعدم اهتمام محاولاً إفهامها أنني من طبقة أعلى . وعندما غادرتني انخلع قلبي شوقاً .

استولى علي شعور ثقيل بالتعاسة . ضجرت من هذه المدنية التي لا أكاد أعرف فيها أحداً . نهضت ودفعت الحساب وانصرفت . فكرت أن أحاول التخلص من الألم الذي تسببه لي ذكرى علاقتي بسعاد بأن اكتب هذه الحكاية . بدأت الكتابة بالفعل عندما عدت إلى الفندق ، ولكن ذلك لم يستمر . أسترجع ذكرى ذلك الجسد الفتي ، ورأسها مدفونة في صدري ، قبلاتها ناعمة عليه ، مختلطة بأنفاسها ، وكفي تجوب ظهرها . فيكون لتلك الذكرى ملمس ، وما بي من القهر كان ثقيلاً كالاختناق .

يجب أن اكتب عن ذلك ، ولكن ليس الآن . ويخطر لي أن أكتب عن ذلك الرجل الذي لقيته في المصعد . بدا لي أنه تحت تأثير مخدر ما . قال لي ، دون أن أسأله ، وهو يشير إلى بعض الصناديق الخشبية الصغيرة المرصوصة إلى جانبه إنه يحمل هذه الأشياء إلى خواجات فرنسيين يسكنون في الدور العاشر . قال لي ذلك وهو يغالب الضحك . كان يكشف عن أسنان عريضة بلون البن ، وله ابتسامة رخوة ، على فم رخو . . ابتسامة كبيرة تملأ وجهه كله . وكان الضحك يشيع في وجهه ويتماوج كالدخان .

أضاف بعد أن تأملني وعلى وجهه تعبير تساؤل ، إن لم يكن ذلك خيراً من الجلوس على المقهى طيلة النهار وطلب السيجارة من هذا أو ذاك ؟ .

وافقته على ذلك .

ثم أحنى رأسه وأخذ يهزه باتجاه اليمين واليسار ويضحك بخجل كأنه يعتذر عن فعل أحمق قام به وقال :

ـ والله يا أخي أنا من عيلة كبيرة ، يا سلام من عيلة كبيرة والله .

قلت له :

ـ انت من أسوان؟ .

فرد على الفور :

ـ من النوبة .

وهو ينظر إلي بدهشة وفمه مفتوح كأنه على أهبة الانخراط في البكاء .

* * *

متى رأيت هذ الوجه لأول مرة؟ هل كان ذلك منذ أيام قليلة ، ساعة العصر؟ أنا متأكد أنني رأيته قبل ذلك بكثير ، ولكنه اختلط في ذهني بوجوه العديد من النزيلات . وقد أكون رأيته في مكان ما قبل مجيئي للإسكندرية . أما عصر البارحة فقد ارتسمت صورتها في خيالي بقوة عندما تبادلنا النظرات ولمحت في عينيها بسمة تعرف . وكغريب في هذه المدينة فقد كان هذا شبه علاقة ، أو ربما بداية علاقة حقيقية .

كنت أجلس في صالة الفندق الواسعة ، بجوار شباك مطل على البحر . وكان الملل يقتلني ويجعلني أفكر في العودة إلى القاهرة فيمنعني تذكر حرها . ثم تبادلنا النظرات أنا وتلك المرأة فأضاء التعرف وجهها ، وانبثقت ابتسامة في العينين . وما أعنيه بابتسامة التعرف هو تعبير في العينين أشبه بالمفاجأة ، يتلو ذلك تحديق مندهش : ها هو ذا! وابتسامة تنبثق من قرار العينين وتطفو على مسطحهما . يرافق ذلك حركة طفيفة في الفم قد تكون مشروع ابتسامة .

أذكر أنه عندما التقت عينانا أنني ارتبكت كأنما اكتشفت في وحدتي عيناً تراقبني من أحد المنافذ المظلمة . كان ذلك مقترناً بخوف من فضيحة مترقبة . ولكن عيني ظلتا مقيدتين بعينيها ، لا أستطيع انتزاعهما .

لم يستمر ذلك طويلاً . تظاهرت أنها كانت تنظر إلى صورة فوتوغرافية معلقة على الجدار الذي خلفي ، ثم انتقلت عيناها ببطء من الصورة ، وتجاوزتني بنظرة رصينة فيها شيء من اللوم لا يكاد يلحظ ، ثم أخذت تحدق في البحر . كنت متأكداً أنها لا تراه ، ولكنها تطالعه بمنطق : «أليس ذلك من حقي؟ ألم أجيء إلى الإسكندرية للاستمتاع بالبحر؟ وها أنا ذا أستمتع ، كما ترى!» .

كان في ذلك العناد الذي تحدق فيه إلى البحر دعاء غامض .

وأنا؟ كيف أصف ذلك! شعرت أنني مغبون . فها هي تنظر إلى البحر ، شبه غاضبة ، لأنها تستنكر موقفاً ما المفروض أنني به تجاوزت حدود اللياقة . في حين أنها هي التي بدأت الآن ، وفي ما قبل ذلك أيضاً .

قبل ذلك بأسبوع كنت قادماً من كازينو رشدي . كنت شديد الضيق وأنا أفكر في

سعاد ، أحاول صياغة كل ما حدث بحيث ينتهي اللقاء بيننا . سوف أقول لها إنني كنت مخطئاً يا سعاد ، فلننسَ كل شيء ولنبدأ من جديد . توقفت عند سور الشاطئ ، في نهاية طرف لسان جليم الممتد في البحر . نظرت عبر الميدان الذي يفصلني عن الفندق الذي أنزل فيه ، فرأيت ذلك الوجه وقلت لنفسي إنها هي وكان ذلك يعني أنها سوف تكون المرأة التي تتركز حولها أحلام يقظتي ، في أن تكون صديقة ، ثم عشيقة .

لقد بدأ بيننا شيء ما ، فعندما تراني تتجمد لحظة ، وتبادلني نظرة ، ثم تعود إلى ما كانت فيه . . . رأيتها وأنا واقف على الشاطئ قادمة من عمق الصالة متجهة إلى الشبابيك المطلة على الميدان . (أتاني وهم ـ حلم ـ شوق أنها تتجه نحوي . . أن شيئاً خارقاً سوف يحدث ، فتهبط إلى الميدان وتتجه نحوي ، تضع رأسها على كتفي وتقول : «فلتنسَ سعاد ، أنا لك» . ويتحول ذلك إلى حلم يقظة ، ثم يتوقف بسبب مراقبتي لها) .

كان لها جسد رشيق ، صغير ، متماسك ـ تحس تماسكه من تحت الثوب وعلى هذا البعد ، تتحرك بالثقة التي تمتلكها امرأة تحكم السيطرة على حركاتها ، امرأة جميلة وتعرف ذلك .

كان في وقفتي على الشاطئ المظلم وهي تجلس على طرابيزة قرب الشباك شيء من منظر الشرفة في مسرحية روميو وجولييت ـ روميو في الحديقة وجولييت تقف على الشرفة ـ .

وفيها أيضاً عذاب شاعر عذري يرى حبيبته للحظات قليلة تكفي فقط لإشعال عذابه : الحبيبة التي تبتعد لتتملأ عليه المكان وتسد عليه كل الطرقات . . وفيها ذلك الموقف الذي يتكرر كثيراً في الروايات والأفلام الرومانسية : العاشق ، الممزق الثياب ، الفقير ، المرهق ، يدور حول بيت حبيبته ، وهي في الداخل تلبس أجمل الملابس وتسهر مع نجوم المجتمع . . ولكنها تحبه . .

(عشت تلك الأحاسيس المستعارة فأصبحت عاشقاً) .

ثم رأيت المرأة تجلس إلى جوار الشباك وتنظر إلي مباشرة . لم يكن بإمكانها أن تميزني ولكن قلبي كان يدق بجنون وأنا أبادلها النظرات . عندما أستعيد ذلك الآن فإنني أصبح متأكداً أنها ميزتني في ذلك الشبح ، تلك الكتلة السوداء الواقفة على الشاطئ .

اجتزت الميدان ودخلت الفندق. صعدت السلالم القليلة التي تؤدي إلى بسطة السلم الأولى. توقفت أمام المرآة التي ينعكس فيها قطاع كبير من الصالة. رأيت وجه المرأة منعكساً في عمقها وهي تجلس مع مجموعة من الرجال والنساء. لاحظت أنها مركز الجلسة (أم أنني تخيلت ذلك فقط؟). كانت تبدو منفصلة عن الجميع رغم أنهم كانوا يوجهون الحديث إليها. كان في وجهها ذلك التعبير المتناقض: التركيز عندما تصغي ولكن مجرد نظرة جانبية منها تشعرك أنها مستغرقة تماماً في عالمها الخاص، البعيد عنك تماماً وتدرك أن ذلك التركيز في الإصغاء لك كان مجرد مجهود عصبي.

تظاهرت أنني منصرف تماماً إلى تأمل ما أحدثته الشمس والبحر في وجهي، وحتى أؤكد ذلك أخذت أتلمس وجهي وأدقق في بعض مواضعه. التقت عينانا في المرآة: لم ينطل عليها تأمل وجهي في المرآة، كانت تعلم أنني أراقبها. غصت بشبق في عينيها الفاجرتين وتوقف الزمن، وثبتت النظرتان المتبادلتان. استمر ذلك كثيراً؟ لست أدري، ولكنها أبعدت عينيها عن عيني وعلى فمها شبه ابتسامة. عند ذاك فقط استعدت إحساسي بجسدي وتنفست بعمق لأنني تبينت أنني توقفت عن التنفس.

استدرت وصعدت الدرجات القليلة الباقية ودخلت الصالة، جسدي يغرق بالعرق، ورجلاي سائبتان لا تكادان تحملاني. كانت هي فوق رؤوس الجميع تنتظرني. عيناها على أقصى اتساعهما تتابعاني بتساؤل مهذب، محايد.

(أقول أليست هذ المرأة من ذلك النمط العصابي الذي يمتلك حساسية مرضية تجعل صاحبها يلتفت مذعوراً، مستنكراً ومستجيباً في الوقت نفسه إلى كل عين تراقبه، وكأن صاحب العين على أهبة اغتصابها، حتى ولو كان ينظر إليها خفية؟).

(الفتاة المصرية تملك مثل هذه الحساسية في العادة. تكون سائرة أمامك، يجتذبك جسدها: اهتزاز العجيزة ربما، شموخ العنق أو تلك الحيوية التي تمنح مشيتها انطلاقاً وخفة، فتطالعها من الخلف بشبق أو برغبة، فتجدها فجأة قد استدارت والتفتت إليك تكاد تقول:

ـ أفندم؟.

وكأنك ناديتها.

ولكن هذه المرة كانت حالة استثنائية مبالغ فيها).

جلست على طرابيزة قريبة وأصبحت في مواجهتها. لم تكن من النوع الذي إذا شاهدته بهرك جمالها. بل من قرب، هكذا، لا تكاد تكون جميلة. تبدو أنها قاربت الأربعين أو وصلتها ولكن لها هذا الحضور الذي يشد دائماً عين الداخل. الابتسام المتكرر جعل تقاطيع الوجه طيعة، مخاتلة. بدا لي ذلك الوجه في حالة جريان وتحول دائمين: جديدين، ومفاجئ في كل مرة تطاله. كانت الابتسامة تستمر وهي تتحدث وعندما تصغي تظل الابتسامة تطوف في وجهها وقد ارتفعت شفتها العليا قليلاً كاشفة عن أسنان لامعة البياض متناسقة. وجهها يقول للمتحدث: هذا بالضبط ما كنت أود أن أقوله ولكنني لا أملك ذكاءك ولا فصاحتك في التعبير. وهنالك بين كل حين وآخر نظرة سريعة مخصصة لي كأنها تقول لي: «ألم أقل لك؟». أنا وحدي الذي كنت أعرف أنها نظرة زانية متواطئة ـ فعل خيانة لقيم الجماعة التي تجلس معها وللزوج الأبيض السمين ـ ثم أراها فجأة قد توقفت عن الإصغاء. شملت المكان بنظرة سريعة تتوقف عندي قليلاً، ثم تلتفت إلى البحر. وعلى الفور يكتسب وجهها طابع انخراط في المشاهدة كأنما كانت تراقب البحر لساعات ممتدة.

بعد قليل هبطت سيدة متقدمة في السن يرافقها شاب وفتاة من السلم الذي يؤدي إلى الأدوار العليا. لم أرهم من قبل في الفندق. جلسوا على الطرابيزة التي تفصل بيني وبين المرأة. على التو قدم من السلم المؤدي إلى الشارع امرأة جميلة للغاية، ذات تبرج وأناقة صارختين. أثارت نفوري بمجرد أن وقع نظري عليها. كان يرافق المتبرجة رجل عجوز ـ عرفت من خلال الحديث أنه زوجها ـ عابس، ضئيل يضع نظارة طبية على عينيه، وقد التصق شعره الأبيض بجمجمته التصاقاً شديداً. كان يرتدي بنطلوناً واسعاً جداً شده بحزام على بطنه شداً جعل الرجل يبدو ذا كرش. دخلت المرأة بضجة من الضحك والترحيب بالضيوف، تبادلت القبل مع السيدة المتقدمة في السن وقبلت الفتاة على خديها وهي تعلن أن الفتاة كبرت وأصبحت عروسة جميلة ثم صافحت الشاب بحرارة وقالت له:

ـ والنبي لو شفتك في الشارع ما كنت عرفتك.

الرجل سلم عليهم وكأن ذلك يؤلمه أشد الألم.

كنت مستغرقاً في أحد أحلام اليقظة بينما السيدة العجوز تجيب عن أسئلتهم عن موعد الوصول وتعب الطريق والمصاعب التي واجهتها حتى استطاعت أن تتصل

بهما . قالت المرأة الجميلة إنهما وجدا لهم شقة مناسبة حجرة واحدة وصالة ومطبخ وحمام ، هي قريبة من البحر ، كما أنها رخيصة .

بعد قليل اتخذ الحديث طابعاً غير مفهوم بالنسبة لي فانصرفت عنهم . ثم انتبهت إلى لعبة غريبة تلعبها المرأة المتبرجة . . قالت :

ـ وتسكنوا وحديكم ليه؟ والله ، والله ، لو كنتو بتحبونا بصحيح كنتو تسكنوا معانا .

وأعقبت ذلك بضحك صاخب . احمرّ وجه الفتى وراحت تفاحة آدم تعلو وتهبط في عنقه الطويل وقال :

ـ شقتكو ضيقه .

فقالت المرأة وهي تنظر إليه بتساؤل والضحك يملأ وجهها :

ـ وما له؟ فيها إيه يعني؟ المكان الضيق يوسع ألف محب .

ثم أغرقت في الضحك .

كان لصوتها ذلك الجرس المرتفع ، الحلقي ، الذي يستعمله الشخص الذي تتوقف معه أمام باب عمارته ويدعوك للمشاركة في الغداء ، فتعلم أنه مرهق وضجر ويريدك أن تغادره بأسرع ما يمكن . تزايد ارتباك الفتى وهو يقول :

ـ حاتضايقونا . . يعني . . يعني حاتضايقكو . . » .

فجأة أصبح وجه المرأة بريئاً للغاية وتساءلت بهدوء :

ـ حاتضايقونا في إيه؟ .

وأخذت تنظر إليه بجدية تنتظر إجابته . تأتأ الفتى :

ـ لا . . يعني ، يعني ، شقتكوا فاضيه ، يعني ، ضيقه . . .

قالت المرأة بحسم :

ـ لا . انتو ما بتحبوناش .

التفتت المرأة إلى زوجها وقالت بعصبية :

ـ إنت حاتقعد هنا للصبح؟ قوم ، سيبهم يرتاحوا .

نهض الزوج وقالت السيدة المتقدمة في السن والتي كانت طيلة الحديث بين السيدة والشاب صامتة صمتاً مستنكراً :

ـ اقعدوا شويه ، ما احنا ارتحنا خلاص .

قالت المرأة :

ـ لا . نسيبكوا ترتاحوا وبكره الصبح بدري نمر عليكو .

حدثت ضجة عامة والجميع ينهضون ويدفعون الكراسي إلى الخلف . استدار الزوج لينصرف فأمسكت المرأة بذراعه ، قالت :

ـ رايح فين؟ مش تسلم عليهم الأول! .

كانت المرأة تمد يدها للسيدة والسيدة ، تجاهد للنهوض ، والمرأة تقسم عليها أن تظل جالسة ، ولكن السيدة نهضت رغم أنه من الواضح أن ذلك يؤلمها . وفجأة رأيت الرجل يمد يده ويصافح زوجته . انطلقت المرأة في ضحك حقيقي اهتز له جسدها وهي تقول :

ـ إنت بتسلم عليا انا ليه؟ .

ثم أخذت تهز ذراعه علواً وهبوطاً ، وجسد الرجل ينحني خلال ذلك من قوة جذبها وهي تقهقه دون توقف وتقول له :

ـ إزيك ، إزاي الصحة ، ازاي الحال؟ .

ومن خلفهم رأيت المرأة التي أحب ، رأيت ذلك الوجه الرقيق الحساس وقد فاض منه الإشراق وأطلت منه عينان خائفتان يرتعش جفناهما كأنما تتوقع لطمة مباغتة وهي تراقب المرأة المتبرجة . بعد أن غادر الجالسون الطرابيزة التي تفصل بيني وبينها رأيتها تحتضن وجهها بكفيها ، وتقطب حاجبيها وتركز النظر في فنجان الشاي الذي أمامها .

* * *

مرت أيام كثيرة وأنا أراقب المرأة ، وأتبعها أينما جلست ، وقد فاض قلبي بعشقها . وكان هذا نمطاً جديداً من الهوى لم أعرفه منذ زمن . ففي القاهرة تكون المسافة بين الفتاة التي أحب وبين التواصل معها قصيرة ، أو أن التواصل والتعرف

يوجدان أولاً ثم يوجد الحب بعدهما .

أما هذا الحب فقد أصبح هوساً ، لم أكن أفكر في شيء عداها . كانت ضربات قلبي تتزايد ، وترتعش يداي ، وأختنق عندما أسمع وقع خطواتها وهي تهبط السلم هابطة من الأدوار العليا . كنت أعرف أنها خطواتها . (وحتى عندما انتهى كل شيء بيننا فلقد كان قلبي يخفق لهفة كلما سمعت وقع خطوات متمهلة حذرة تهبط السلم) .

أسمع خطواتها وهي تهبط . تتجه عيناي إلى الباب الذي سوف تأتي منه فأراها في حاجز الظلمة حزمة مبهمة من اللذائذ والحلاوة ، ثم تتمخض عنها الظلمة وقد امتصت السجادة التي فرشت بها الأرض صوت خطواتها ، ينمو تألقها كلما اقتربت ثم وقع خطواتها الأربع على البلاط الذي يفصل بين طرف السجادة وبين الطرابيزة التي تجلس عليها في العادة .

وأرى هذه المرأة تزداد في كل يوم حلاوة وشباباً، وحبي لها يزداد . أراها تنظر عبر النافذة إلى البحر تتنفس بعمق ويمتلئ وجهها بحيوية حمراء . تعود بنظرتها إلى المكان تطالعني ، تلتقي نظراتنا ، تتأملني نظرتها ذات الملمس ، وتستقر على وجهي معابثة ، (تقول : أعرف ما تريد . انتظر قليلاً وسوف ترى) ، لعوباً ثم تعاود النظر إلى البحر ، وبقايا ابتسامة عارفة ماكرة تظل مرتسمة على وجهها وأحس انها تلعب معي ، تتفاداني لمجرد أن تعبث بي قليلاً ، ولكنها سوف تعود .

أظل مشدوداً إليها ، حواسي كلها مركزة عليها ، أجلس فاقداً إحساسي بجسدي عاجزاً عن متابعة الحديث أو الانتهاء من شرب فنجان الشاي الذي أمامي ، أو الذهاب إلى حجرتي حتى أستعد للذهاب إلى البلاج .

***

وكانت هنالك ظلمة سمراء في نهاية السلم المؤدي إلى الأدوار العليا ، وكنت داخلاً بيني وبين الدرجة الأولى من السلم خطوتان أو ربما ثلاث خطوات . ضوء قادم من الشباك التي يعلو بسطة السلم الأولى حدّدا إطارَها وهي تهبط إلى العتمة التي تحيطني . . ارتبكت ... هل أصعد أم أبقى . . ؟ ثم عزمت على الصعود ، ودون أن أدري كيف حدث ذلك كان كتفها الناعم ، اللدن يستقر مفاجئاً عنيفاًعلى فجوة كتفي اليمنى ، وكنت بحركة لا إراديةوأنا أحاول أن أتحاشى الاصطدام أمسك بكتفها الآخر الذي كان حياً ، نابضاً في يدي . . وكان ذلك التماس ، بالنسبة لي ، يكاد يكون

مستقلاً عن اصطدام غير مقصود بين غريبين . . وفوجئنا كلانا بهذا الوضع فتجمدنا لحظات ، كأننا انترعنا من سياق الظروف والملابسات تحركنا رغبات جامحة لا سبيل إلى مقاومتها . . وفي ارتباكنا ولحمتنا ، يبدو أننا أضعنا الاتجاهات والأصول المرعية فبدلاً من أن نبتعد أو أن يتخلى أحدنا عن الطريق الآخر ، حاولنا أن نواصل طريقنا فإذا بنا ملتصقين متعانقين أو نكاد، أحس لصق جسدي تلك الحركات العنيفة للعضلات ، والعظام . . ننسى كلمات الاعتذار ، ونتبادل نظرات بيضاء ، غريبة قريبة في الظلمة وأنفاسنا مبهورة . . وأنا أتلقى تلك الكتلة اللدنة ، المرنة ، المتوترة على صدري ، مقدمة هاربة ، معانقة ، مستنكرة . . ثم تنفصل عني ، وأنفصل عنها ، وتقول وهي تسوي ملابسها وتلهث :

ـ مش معقول .

وتسير مبتعدة وأتوقف عند طرف السلم بلا مشاعر . . بلا أفكار . . بلا شيء .

وأصعد إلى حجرتي فلا أتذكر لماذا جئت ، ولا أستطيع أن أبقى فيها . دخلت الشرفة المطلة على البحر ولسبب غير مفهوم كنت أرغب في أن يراني أحدهم على الشرفة وأنا أتأمل البحر ويقول لنفسه : ها هو مصطاف يستمتع بالبحر . ثم سئمت ذلك . كانت رغبتي في رؤية المرأة لا تقاوم .

هبطت إلى الصالة وجلست قبالتها . كانت تغطي وجهها بكفيها ، وقد أحنت رأسها وقد تهدل شعرها فحجب الوجه والكفين . رغبتي في ملامستها كرغبة المختنق أن يأخذ نفس عميق وأنا خلال ذلك أستعيد ذلك التصادم ـ العناق الذي لم أستطع استيعاب متعته ودلالته حتى تلك اللحظة . استرجع : ثدياها ضغطا على صدري حين رفعت وجهها إلي فأرى عينيها واسعتين ، بيضاوتين ، خائفتين ، قريبتين . . عن هذا القرب بدتا وكأن بهما حولا . . ولكن كيف استكنت ونظرت ، وأنا أتصورها طيلة الوقت تحاول التملص مني؟ .

أحاول أن أتذكر ما حدث . . هل . . ؟ لم يكن ما حدث بالنسبة لنا مصادفة . لم نكن بريئين . . وأتذكر كتفها في فجوة كتفي ، وهي تنظر إلي نظرة بيضاء . ثم وهي ترفع وجهها إلي بعينيها اللتين بدتا وكأن بهما حولا . . ثم أتحول إلى حلم اليقظة :

أنحني وأقبل . . العينين تغمضهما فأعيد التقبيل . . أنقل المكان من أسفل السلم إلى حجرتي . . أحيطها بذراعي ونهبط على السرير . . ثم يرهقني ذلك . أريد أن

أرى وجهها .

وأحدث صوتاً بكوب الماء وأنا أراقبها . انحنى الرأس بحدة أكثر ، ولم تنظر إلي . الحظ أن كتفيها يهتزان بانتظام . . هل تبكي . . أم تضحك . . ؟ .

ثم يدهمني الخجل ، وأقول لنفسي : «ها هي تبكي . . !» . فأنهض وأخرج إلى الشارع .

أقف أمام البحر . لا أستمتع . لا أراه !

***

في كل صباح ـ أنتظر الصباح من أجل هذا ـ أجلس في مواجهتها نتبادل النظرات ثم أعود إلى كتاب لا أقرأ فيه شيئاً ، ثم أرفع عيني فجأة عنه وكأن ذلك مصادفة فأجد عينيها مسلطتين علي ، ترتعش عيناها وتأخذ في تأمل أصابعها ، ثم فجأة تنظر إلى البحر .

كان التثبيت عند هذا الموقف ، وعدم قدرتي أو انعدام رغبتي في أن ازداد اقتراباً يجعل هذا اللقاء عذاباً متصلاً ، أختنق بعنانة هذه المسافة الفاصلة بيننا . أحس بها لصق جسدي . يتصاعد حنان اللسمات الرقيقة : أقبل العينين ، الوجنتين ، ألمس الشفتين بشفتي ، ثم أراني أعتصرها بين يدي ، أشدها إلي بقوة . أحطم مقاومتها المترددة ، ونهبط معاً على السرير . تستثار هي وتبادلني العناق ، . . . ثم فجأة أكتشف انفصالنا ، فأسقط في ركود ، مضن ، يائس ، وأقول : «لا يخلصني من هذا الإحساس إلا خطوة جريئة» . . وأخطط ، وأرسم خططاً . . لأعاود من جديد حلم يقظة الالتحام والاحتواء .

وخلال ذلك وعلى نحو غير واضح ، وغير صريح ، أعرف اللعبة التي ألعبها . . الداء الذي يشل قدرتي على الخلق : هذه المرأة مصنوعة من أوهامي ورغباتي ، إنها تفقد واقعيتها المعقدة وتأخذ موضعها في إطار عالم الأشكال الفنية . وهذا الاندفاع الأهوج في تكييف العالم . للفن قد حدد استجابات المرأة وردود فعلها فأصبحت تعيش قصة وعذاب حب عذري وهي المرأة التي في قمة نضوجها وأنوثتها ، حيث الحب يمتزج بالرغبات الجسدية وحيث تكون العلاقة تتغذى من ذاتها ، ولا تطمح إلى مشروعات تفيض عنها .

ولكن كلينا كان يعلم بحدس الخبرة الطويلة أننا لو اقتربنا من بعضنا أكثر من هذا لتهمشت الصورة ، ولبرزت على السطح الصورة الأخرى المستمدة من الواقع بكل تنوعه وفظاظته وتضاده المؤلم . لسوف يفقدني غنى المرأة الواقعية وخصوبتها القدرة على استعمالها كنوذج مصفى ومنقّح في عملية الابتكار الفني .

وبذا ذقت عذاب العذريين الذين كانوا يعشقون عن بعد ، وتتهشم أجمل الرؤى في خيالاتهم بمجرد اللمس . .

عذاب قيس بن الملوّح وكثير وجميل . . ألم يكن عشقهم صراعاً حتى الموت للاحتفاظ بصورة العشيقة نقية ، بعيدة ، صالحة لموضوع الخلق الفني؟ .

***

عند العصر كنت أجلس في مكاني المعتاد . جلدي يؤلمني كلما احتك بالقميص ؛ جلدي الذي تسلخ والتهب باليود والملح وطول التعرض للشمس . لم أستطع تعود ذلك بعد . فكنت شديد المراقبة والإصغاء لجسدي . وخلال ذلك أعيش خبال اختلال المسافات والرؤى الغريبة . . تلك التي تأخذ طابعاً حاداً عند ساكني الشقق الضيقة والشوارع المزدحمة :

اتساع البحر المهول ، والمجاني ، ونسيمة الرطب البارد لساكن الشقق المكتومة الذي يتوقى تيارات الهواء البارد والحار منها . . الأجساد شبه العارية بالمايوه البكيني قريبة إلى درجة اللمس ، ممنوحة ، فاجرة بكل تفاصيلها السرية كما في أحلام اليقظة الشبقة ، تعطي دائماً وهم أنها ممكنة بوفرة لا مثيل لها ، ولكنها في الوقت نفسه بريئة ، مصفاة من الجنس كأنها أجساد المحارم . . إن المرأة منهن لا تصبح موضوع رغبة إلا إذا رأيتها تخرج من كابينتها وقد ارتدت ملابسها وأخفت عريها . . أطالعهن وهن يسبحن ، ترفع الواحدة رأسها المبلل بالماء ، وتنساب يداها لتردان الشعرعن وجهها ، ثم تمسحان الوجه ـ العينان والفم والأنف من الماء ـ ثم تخرج وهي تقطر ماء ، وتسير على الشاطئ الرملي أمامي وتجلس مع جماعتها قريبة مني ، فتبدو لي في استغراقها في إزاحة شعرها المبلول إلى الخلف ، ومسح الماء عن الوجه ، وهي منهمكة في ذاتها ، تتعامل مع الاستمتاع بالسباحة بكل هذه الجدية ونسيان كل ما حولها . . تبدو لي في براءة طفل مستغرق في لعبة مثيرة .

وأعيش أيضاً خيال ضوء الشمس : عندما يكون بريئاً في الصباح يتخلل سطح

الماء ليحوله إلى سائل أخضر ، شفاف ، تعوم فيه آلاف الحيوات الدقيقة وذرات الصخور المتحللة والطحالب والرمال ـ حين ألمس نعومة الماء البارد فأشعر أنها نعومة الضوء ـ . . وعندما يكون ساطعاً ، لاسعاً ، كثيفاً في الضحى تلتقطه رؤوس الموجات المسنونة ، المطرقة . . وضوء الظهيرة الذي يلاحقني برّاقاً ، شرساً ، يسوخ جلدي في لهبه ، ويغشي عيناي حتى عندما أغمضهما ، حتى في ظلام حجرتي والستائر مسدّلة يلتصق بي كعطر امرأة ضاجعتها منذ حين. ضوء الظهيرة له طابع الكلية ، يحتوي كل شيء وينفذ إلى كل شيء ، يجعل البحر لماعاً كالمرآة ، يركز الملح على جسدك فتشعر كأن ناراً داخلية تصهرك صهراً ، يتبعك بلمعانه وبريقه ووهجه أينما توجهت في هذه المدينة لحوحاً ، لجوجاً ، قاسياً . . وفي الليل يكون في جسدك ذكرى ـ ذكرى الجلد المسلوخ ، المتوجع ، ذكرى حرمان الاقتراب من الأجساد العارية يورث سعار الرغبة . ذكرى رائحة . . روائح الأجساد وملح وطحالب متحللة ، وذكرى طعم السيجارة وفنجان القهوة في حلق تزايدت حساسيته بسبب ما تسرب إليه من الماء المالح .

جلست في ساعة العصر هذه رهين تلك الغرابة : اجتماع أعداد كبيرة من أشباه العراة في مكان واحد في علاقة لا تستطيع تسميتها . . فأنتم تتلامسون في الماء ، وقد تعينون بعضكم ، وتجلسون متجاورين ، ولكن ستاراً صفيقاً من الغربة والخوف يفصل بين الجميع . . . فقد يكونون أكثر قرباً لو كانوا بملابسهم الكاملة ، تفصل بينهم جدران سميكة . . أعيش تلك الغرابة بين وهم ـ حلم بيقظة الصلة الحميمة وواقع البعد . . وأعيش غرابة أن يكون هنالك بحر بهذا الاتساع المهول ، بهذا الجمال المبذول، المسئم . . مسطحات زرقاء وخضراء من الضوء ـ أجلس في أحد المطاعم المطلة على البحر فأرى البحر قطيفة زرقاء ناصعة ، تتماوج بنعومة ، فأشتاق ، بخبال لأن آخذ منه قطعة وآكلها ـ . . .

وخلال ذلك أبحث عن عبارات جاهزة تحتوي تلك الغرابة ، تسميها ، وتروضها. ويستولي علي إحساس بأني أعاني من خطأ ما يختصني وحدي ، لأن الآخرين قد تجاوزوا هذه الغرابة ، وأدخلوا البحر والسابحات وضوء الشمس وتسلخ الجلد ، في سياق أحداث الحياة اليومية ، حتى أصبحت مصطلحات تفهم بمجرد الإشارة ـ «رايحين إسكندرية يومين . .» ويقول الآخر : «حاترجعوا إمتى؟» تماماً كما لو قلت إنني ذاهب لأجلس في المقهى .

وأعيش للحظات ـ والقشعريرة تسري في جسدي ، وتوقع الألم يصبح ألماً حقيقياً ـ مرأى الصخور ذات المظهر الإسفنجي ، السمراء المخضرة ذات الصلابة الخشنة الجارحة ـ يجتاح جسدي تيار من الحمى والألم بمجرد تذكر اصطدام أصابع قدمي بنتوءاتها المسنونة ، وأستعيد التسرب البطيء للدم من الجرح في الماء الأخضر المستكن في فجوات الصخر كانحلال قطرة من الحبر في كوب ماء . يتماوج اللون الأحمر ، ويمتد في العمق شفافاً ، متشعباً ، كأنه كائن حي من تلك الحيوانات الهلامية التي تعيش في البحر . ويدهمني الدوار وأنا أستعيد خطوي المرتعش ، الزلق ، الخطر فوق الصخور التي تغطيها الطحالب المصمغة .

يجتذبني من همودي وقع خطوات نسائية تهبط السلم . يركض قلبي في صدري للهفة حتى قبل أن أربط تلك الخطوات بالمرأة التي أعشق . أتعرف على الخطوات ، يبهظني ويثقل علي ترقبها . يتحول ترقبي إلى رعب أصم ، من أن تفوتني رؤيتها عندما تنتهي من هبوط السلم ، أن تقرر هذا اليوم أن تواصل الهبوط إلى الشارع ، لا أن تجلس جلستها المعهودة تشرب الشاي في مواجهتي ، أن يواجهني زوجها وتعطيني هي ظهرها . . لوحدث أي من هذا لمت اختناقاً .

بدا لي أنها استغرقت زمناً طويلاً في الهبوط . توقف الإيقاع فأصبحت كتلة من الأعصاب المنتظرة . أكاد أسمع همس خطواتها على السجادة ثم أقدر أنها تجتاز الممر المظلم . تنبثق بغتة مثل كتلة من الشفافية المتعددة الألوان ، ثم تتحدد ، فتصبح مهرجاناً من الألوان والحركات المنسابة ، ثم تتحدد نهائياً عندما يغمرها الضوء كلية .

النظرة الأولى لي : نظرة مفاجأة ، انزعاج شبه ضاحك ، ثم تعرّف . ثم تطرق سيدتي برأسها . فيبدو جسدها في مرونة راقصة باليه ، وله قدرتها على التحكم نفسها. تسير بضع خطوات وهي مطرقة ، ثم ترفع رأسها ، وجهها وقور ، ونظرتها تائهة ، وهي تجذب شفتها العليا إلى أسفل ، وتكون نظرة متواطئة ، تدعوني إلى التماسك والوقار .

تلتقط عيناي خطوط الجسد . . لهفتي جعلتني أراها كتفاصيل . تلتقط عيناي خطوط الجسد . . ذلك الجسد الأنثوي المحبوك بنسج متين متماسك يبدو سكونه الظاهري مشحوناً بشحنة عالية من العنف . أقول هذا وأنا استرجع تدافع جسدها لصق جسدي وحركته العنيف، الصلبة ، المتوترة . . فأتصورها وعاء لحركات حادة ،

متصادمة، تمسك هي بها وتسيطر عليها .

أرى بروز الثديين ، مقتنصين داخل السوتيان ، الفم بشفتيه اللتين تمتنعان بقوة الإرادة عن الابتسام ، عن التمدد ، الشعر المكبّل بتوكة زرقاء ، ووردة زرقاء على الجانب الأيسر ، العنق الذي يمنعه إحناء الرأس أن يشمخ . . وأرى انحناءة الخصر؛ خصر امرأة ناضجة ، ولكن حيوية جسدها تعيدها إلى عهد الشباب فتجعل الانحناءة تنكسر بحدة إلى الداخل لتعود مكوّنة خطي الردفين . ولم يكن في الردفين تلك الوفرة التي تجعل عجيزتها وكأنها مضافة إليها تحد من طلاقة حركتها ، بل هي تمتلكها تماماً وتدخلها في سياق حركتها شبه الراقصة . . لسمرة الوجه والنحر تلك الصلابة البنية التي لخشب السنديان ، يخالطها التهاب خفيف الحمرة في الوجنتين من ملح البحر ويوده وشمسه . لقد أخذت منها ما يكفي لجعل وجهها ملتهباً بحيوية سمراء محمرة كحيوية الغاضب أو العصابي .

تسير إلى طرابيزتها وتجلس عليها ، وكما توقعت في مواجهتي . يتبعها زوجها ، سميناً ، أبيض ، رخواً ، تضيع ذقنه في لغد عظيم يهبط كالقوس إلى نحره ، وله كرش عريض رجراج ، فبدا لي وكأنه سوف يسيل مادة لزجة ، صمغية ، ويمتزج ليكوّن كرة سائحة . يجلس ، فيتداخل ويمتزج ليصبح كرة حقيقية . القى على البحر نظرة واحدة ، فتح بعدها صحيفة كانت مطوية . يكتسب وجهه على الفور طابع التأهب للبكاء ، ويستغرق في القراءة .

يستطيع أي إنسان أن يدرك أنني اكره هذ الرجل . وحبيبتي خلال ذلك تلقي جملاً سريعة ، هامسة ، وعيناها تلحظانني بسرعة بنظرات محايدة تغيب في البحر ، فبدت لي وكأنها تصفني لزوجها ، والزوج خلال ذلك مكب على الصحيفة لا يرفع رأسه ولا يستجيب لها .

يأتي رجل وامرأة ، يجلسان معهما . يشتعل وجهها وهي تبادلهما الحديث . الزوج يرفع إليهما وجهه الأبيض الكبير وقد احتقن ، يلقي كلاماً ، يصغي متسائلاً ، مندهشاً إلى حد ما ، يستمع إلى إجابتهما ، يهز رأسه ثم يعود إلى الصحيفة حزيناً للغاية .

رغم أن آخرين قدموا وانضموا إليهم إلا أنها ظلت أمامي ، غير متحجبة .

بعد قليل غشاهم الصمت . الزوج يقرأ ، الآخرون ينظرون عبر الشباك إلى

البحر ، وهي تحتوي وجهها بين كتفيها ، أصابعها تتخلل شعرها بحركة بطيئة ، دائبة ، وعيناها مركزتان على فنجان الشاي الذي أمامها .

على خط الأفق سفن احترت في تحديد نوعيتها .

البعض قال إنها سفن أسطول الصيد الروسي ، آخرون قالوا إنها زوارق طوربيد ، وغيرهم قال إنها مراكب صيد عادية . كانت ثماني قطع بحرية تقف في خط مستقيم .

جذب انتباهي بحدة نحو المرأة شيء ما ، لم أستطع تحديده . كان أشبه بأن تتذكر فجأة ، وأنت في الشارع ، بأنك وضعت طعاماً على البوتجاز وقد أخذ يحترق ويهدد البيت بالاحتراق ، فتعود مسرعاً وليس في خيالك إلا صورة الدخان يندفع بكثافة من الشبابيك ، وصوت أجراس سيارة الإطفائية . ولكن ذلك لايصفه تماماً ، فقد كان ذلك إحساساً فاجعاً ، مثل كون إنسان حبيب لك يحتضر .

ورفعت رأسي إلى المرأة ، فرأيتها تنظر إلي مباشرة . لم تدّع هذه المرة أنني مجرد شيء في مجال نظرها ، بل كانت عيناها مسلطتان على عيني بصَراحة . كان لنظرتها ملمس تيار كهربائي يتخللك بعنف صدماته المتتالية ، وكانت تلك النظرة تطلب مني شيئاً ما ، فعلاً ما ، بشكل ملحّ لا يحتمل الانتظار . في الجفن الأسفل للعين اليسرى كانت هنالك حركة خفيفة لا تكاد تكون ملحوظة ، شعرت أنها تستحثني : «هيا ، هيا ، لا يوجد وقت ، أسرع ، لا تتردد!» ، وأنظر وأحدق في العينين لأرى ما خلفهما ، علّ هاتين النافذتين تنفتحان على الحقيقة التي تود أن تنقلها إلي . فأجاهد وأكابد ولا أصل إلى شيء . . أبتعد عن تلك النظرة وأسائل أعماقي : «ماذا يراد مني؟» أسألها : «ما الذي تطلبينه يا حبيبتي؟» فلا أسمع رداً سوى ذلك التحديق الذي يود أن ينقل بإلحاح شيئاً ما ، أنا عاجز تماماً عن إدراك كنهه .

وأعود إلى ذلك الوجه بعينيه المحدقتين تحاصراني حتى الاختناق بإلحاحهما المبهم ، فأرى الفم انطبقت شفتاه ، بتصمم غاضب ، الأنف قد توتر بجهد لم تتعوده ، ثم أصعد إلى العينين ، وأرى فيهما ـ ويا للغرابة ـ ضحكة مخاتلة ، بذيئة ، تطالبني بفعل ما رديء وممنوع وكأنها صبية تغوي طفلاً . تود أن تغريه بعمل داعر . وأعماقي تصرخ : «ماذا تريدين مني يا حبيبتي ، أفصحي! أنا على استعداد لفعل أي شيء من أجلك حتى الموت!» .

وبمجرد أن قلت ذلك لنفسي تحولت تلك اللهفة وذلك التوهان إلى رغبة محضة .

انتهى ذلك العشق العذري في داخلي وأصبحت رغبة طلقة، غريزة مطلقة.

تلاشت المسافة التي بيننا، وانتهى كل شيء في العالم عدانا، فكان هذان النهدان اللذان يتذبذبان ببطء مع تنفسها، يضغطان على صدري؛ حيوانان مرحان يتفجران حيوية وعنفاً، احس باندفاع الردفين حاداً قوياً، وبالبطن ينبض في دخلي.. الوجه والعنق والكتفان ممنوحة للتقبيل الذي لا يرتوي، يغتذي بجوعه المتصاعد، أشدها إلي، أجذبها بعنف متصل إلى جسدي لأجعلها تتلاشى فيه، حتى تنتهي فأنهي هذا العذاب الخانق الذي لا نهاية له. وبعد أن أمتلكها تماماً، وجسدها يسيل بين ذراعي، يطاوعني، ولكنه يتفلت مني، أهبط على السرير، تقاوم قليلاً: «ليس الآن!» تقول وهي تلهث، تقول وهي غير جادة تماماً، وتنظر إلي بهاتين العينين القريبتين اللتين تبدوان وكأن بهما حول: «هل جننت، يا حبيبي!» ولكنها هي التي جنت، تندفع نحوي بهوس...

أرى الآن ذلك الفم الثابت بصرامة وحسم غاضبين، ينفرج قليلاً، ترتفع شفته العليا.. هل هي تبتسم؟ تتأملني بعينين رامشتين، ضاحكتين بضوء أسود، مشع، كثيف.. فأنظر حولي.. ماذا؟ من؟ وعندما أعود إليها أرى أن كل شيء قد انتهى. أصبح وجهها قاتماً، ثقيلاً جاداً.. غاضباً؟؟.

واستمر ذلك كله وقتاً لا أستطيع تحديده، فقدت إحساسي بالزمان وبالمكان وبجسدي.

أدارت وجهها للبحر وعلى شفتيها طيف ابتسامة. عندما استعدت إحساسي بنفسي اكتشفت أن جسدي مبلل بالعرق، وأن أصابعي التي كانت تمسك بالسيجارة كانت ترتعش، وأنني بحاجة إلى هواء كثير.

***

لاحقتني تلك النظرة، بعد ذلك كوهم متسلط. أستعيدها خلال تجوالي الليلي على شاطئ البحر ـ أستعيدها بأن أعيشها مرة أخرى ـ وتظل هاتان العينان بكماوين لا تفصحان عن شيء.

مرة استعدت تلك اللحظة بكاملها، وأنا أحاول أن اخرج منها بنتائج محددة. ها هي قادمة، تنشق عنها أستار الظلمة ـ يختلج قلبي عشقاً عندما أتذكر تلك الطلعة ـ

كانت تسير.. تسير؟ كانت تسير نحوي، تتجه إلي.. كيف غاب عني ذلك؟ اتذكر ذلك الآن. اتذكر أنني خفت، أتذكر أنني ابتهجت، وأتذكر أنها استدارت فجأة يمنة وسارت هكذا إلى طرابيزتها. بينما كان زوجها ـ ذلك الزوج العجيب الغريب ـ يصوب كرشه في اتجاه طرابيزتها وسار نحوها في خط مستقيم.

هل كان ذلك دلالة ما؟.

أجاهد لأصل إلى نتيجة، نتيجة مؤكدة مائة في المائة، فلا أستطيع. في عمل فني، قد يكون لذلك دلالة، كما في السينما، أو في المسرح عند رسم الحركة. أما في تلك اللحظة، فما هو مؤكد فقط أن تلك السيدة كانت تسير وحسب.. ثم أذكر جلستها وهاتين العينين. أرى مسطحهما المحدب، تلك السمة اليابانية في انسحاب الطرفين إلى أعلى قليلاً، ذلك الغشاء الرقيق اللامع الذي بدا وكأنه دمع.. وأحدق في تلك الصورة التي استعدتها بمكابدة.. وأقول لنفسي: ما معنى ذلك؟ هل كان إنذاراً بالبكاء أم تأهباً للانفجار بالضحك؟.

ولا أصل إلى شيء.

ودون سياق أتذكر مدام شهدي، وقد انسحب طرفا فمها إلى أسفل وهي تقول: «كنت أكتب رسائل إلى نانا، حاولت ان أضمها نوعاً من التحذير. كنت أرى كل شيء يشيخ ويهرم ويموت، والناس يسيرون في الشارع وكأن ذلك طبيعي تماماً..».

وأفهم الارتباط على الفور: كانت تلك النظرة صرخة تحذير. تحذيرهم؟.

ولاأجد جواباً.

ويظل احتواء تلك النظرة في كلمات ممتنعاً، أو على الأصح معلقاً ـ معلقاً، على حدس ما قد أتوصل إليه فجأة. إلا أنه حتى تلك كانت الألفاظ تطفو وتدور ثم تنزلق من فوق تلك الذكرى دون أن تنفذ إليها، أو تحيط بها. مرة بعد مرة أكابد في استعادة تلك اللحظة ـ الذكرى. وكلما ابتعدت عنها كنت أراها تتسرب من بين يدي وتتبدد، فأجهد نفسي لأعيدها إلى وضعها الأول. ولكنها أخذت تتحول إلى مقاطع منفصلة، وأخذت تصبح شيئاً فشيئاً عصية على الإدراك أو إمكان استخراج نتائج منها:

أستعيد أحياناً ذلك الرعب الذي أحسست به عندما كانت العينان مسلطتين علي.

لقد انفلتت منهما طاقة مخيفة وفاجرة ، كان ذلك بلطمة مباغتة ، أفقدتني توازني ، وأعجزتني عن التصرف الصحيح ثم استنفدت تلك الطاقة . أتذكر الآن أن ذلك كان هو شعوري وأنا أرى طيف ابتسامة على فمها ، وهي تنظر إلى البحر ، كان ذلك يشبه . . يشبه ماذا ؟ كانت تنظر إلى البحر ولكنها في حقيقة الأمر كانت تنظر إلي ، تكمل حواراً ما معي . أتذكر . . ذلك يشبه :

تلك المرأة في شقتها التي قالت لي وكأنما تحث نفسها :

ـ ظهري بيئلمني .

تتأوه ، تقول :

ـ دوس على وسطي .

تمسك بيدي وتضعها على منتصف عامودها الفقري . أحتار ماذا أفعل . تقول بنفاد صبر : «دوس» . أضغط بقوة ، تقول : «مش كده» . لم أكن متأكداً مما تريده ، ولكن يدي تصعد إلى أعلى ، تلمس الدانتيلا الخشنة للكومبنزايون ، ثم أعلى العامود الفقري وقاعدة الرأس ، ثم تهبط ضاغطة . . وخلال ذلك تردد ؛ «أي ، أي ، هنا هنا ، دوس . . » وهكذا تصعد اليد وتهبط . . وأحاول أن أنقل إليها بحركة اليد : «إنني أجن رغبة ولكني خجول . . أرغب وأرغب وأرغب . . وأحب أن ترغبي في ذلك . . » .

يدي تصعد وتهبط وأنا ملتاث بالرغبة . ، قالت :

ـ ما تدوسشي جامد ، بتئلمني . . . ! .

فجأة تغوص يدي في عمق جسدها . استدارت بجسدها بقوة ، ودون أن أدري كيف حدث ذلك رأيت يدي مستقرة على ركبتي . استطال جذعها فأصبح عامودياً ، أصبح عنقها شامخاً ، معتداً .

أخذت تنظر إلي في عينيها ضحكة ـ تلك الضحكة نفسها ـ وحاجباها مقطبان قالت :

ـ كنت بعتبرك زي أخويا .

وأدارت وجهها والضحكة في عينيها ، وأخذت تنظر إلى ساعة الحائط المعلقة فوق باب الصالون .

أحاول أن أخرج بنتيجة من المقارنة بين الموقفين ، فأكتشف أن التشابه الوحيد بينهما لا يتعدى تلك النظرة ، والضحكة في العينين . . وكان هنالك الرعب أيضاً .

ثم أتذكر أحد التفاصيل الذي غاب عني تماماً . أقول لنفسي : «إن كل شيء يبدو الآن واضحاً . . كيف نسيت ذلك؟» أتذكر ذلك اللسان الأحمر الرقيق الذي بللت به شفتيها وهي تحدق بي . لقد دار بالفم ببطء ، تأنى عند الشفة السفلى ، ثم اختفى ، أتذكر الآن أنه نقل إليّ بذاءة فطرية ، إحساساً قديماً بالذنب : مداعبات الأطفال الجنسية التي تدور في خفية عن الكبار . (تقول الطفلة : «هكذا يفعل بابا وماما» وتجذبه إليها ، يحاول أن يتملص ، ولكنه يخاف ويخجل . ويظل ما حدث ـ عندما يفكر في ذلك الآن ، فإنه في حقيقة الأمر لم يحدث شيء ـ رعباً من فضيحة كان يخيّل إليه أنها تهدد بالانفجار في كل لحظة) .

وأحاول أن أضع ذلك في سياق الموقف ، فلا أصل إلا إلى نتيجة تبدو لي على الفور ساذجة وغير منسجمة مع الموقف كله : إنها امرأة شبقة تشكو ظمأ جنسياً . ثم تغيم الذكرى ، وينطفىء الإحساس المستعاد وتبدو تلك اللحظة التي ظننتها تفسر كل شيء مجرد حادث عابر .

وفي مرة كنت ذاهباً إلى البلاج . في طريقي توقفت قرب صياد وأخذت أراقبه . فتح علبة صفيح وأخرج منها دودة حمراء قاتمة وشبكها في سنارته ، ثم أمسك بالسنارة بيده اليمنى وأخذ يجمّع الخيط في يده وألقى بالسنارة في البحر . لامست الماء على بعد قليل من الشاطىء ، وامتد الخيط فوق الماء . ووقف الرجل ينتظر . طالعت المقطف الذي يضعه على حافة سور الكورنيش بجواره فرأيت فيه خرقة بيضاء متسخة ، وكيس نايلون ، وخيوط نايلون وبعض السنارات وعلبة الصفيح التي فيها الطعم . ولم أر سمكاً . سألته إن صاد شيئاً حتى الآن . نظر إلى المقطف ونظر إلي وقال ، لا . سألته كم يصيد في اليوم ، فقال لي إن كل يوم يختلف عن الآخر ، ولكن ما يصطاده في العادة ليس كثيراً . قلت : هل يزداد الصيد صعوبة مع وجود المصطافين على البلاج؟ وأنا أحاول أن أستثير ذلك الاحتقار الإسكندري للمصطافين ، فحدق بي وقال إن ذلك لاعلاقة له بالسمك . سألته إن كان يعيش من صيد السمك . طالعني وجهه العجوز باستنكار ، وقال إنه موظف أحيل إلى المعاش . وهو يمارس الصيد كرياضة وتسلية . ثم انطلق في الحديث . إنه لا يحب الجلوس على المقاهي . والجلوس يقصّر العمر على أي

حال . . إنه ينام مبكراً ، وهو يحاول أن يجد مكاناً مناسباً للصيد ، ويظل يصيد حتى الظهر . زوجته والأولاد يحبون أن يأكلوا من صيده ، أما هو فيفضل اللبن الزبادي ، والخضار الطازجة .

تحدث كثيراً حتى اضطررت أن أستأذنه ، وهو لم ينته بعد . غادرته وأنا أفكر : «أية حياة تافهة ينتهي إليها الإنسان بعد سن الستين!» وكنت أعني بذلك أنني أعيش بعد الستين حياة كهذه . . ماذا إذن . . ؟ ورأيت شواطئ طويلة ذات رمل أبيض ناعم ، وغابات إفريقية ، وجبال اليمن ، ونساء ، ومؤتمرات ، وكتب . . وكل ذلك على نحو ما ، هوحياتي بعد الستين . .

ثم استرجعت تلك النظرة دون ترابط واضح . . انبثقت أمامي بوضوح فائق وكأنني أعيشها مرة أخرى . فرأيت تلك النظرة المبللة ، المتوهجة ، الساطعة بانعكاس شمس الغروب الحمراء على البحر ؛ بحر قد دخلت حواف دائرته في منطقة الظل المعتمة السوداء ، وبدا قلب الدائرة لامعاً بغموض وبعد الشمس المحتضرة ، فكان ذلك أشبه بطقس غامض يدور في عالم بعيد . وفي تلك اللحظة كنت أعيش غالب الذي تجثم عليه تلك النظرة كالكابوس ، وغالب الذي يحاول أن يفهم معنى ودلالة ما يحدث ، فأرى في تلك النظرة أنها تطالبني بشيء ما ، بفعل أقوم به على الفور لتجنب كارثة ما على وشك الوقوع . وكان طابع الإلحاح واللهفة واضحين كل الوضوح . كانت فيما بدا لي ، استغاثة بكماء ، ملتاثة بالمعاناة ضراعة حيوان تتمزق أحشاؤه . . . تتلاشى تلك الرؤيا . فيعود إليّ وقع أقدامي على أرضية الكورنيش ، وحركة البحر الهلامية الرخوة ومشهد جزء من المستحمين على البلاج وكأنني أعود من مخاطرة غريبة إلى عالمي المألوف . يعيد وقع أقدامي الرؤيا فأرى وجه المرأة التي أحب : وجهها يناديني : «مد لي يدك وأنقذني!» «كيف؟ من ماذا؟ وما معنى كل هذا؟» . . فأعلم أن تلك النظرة المتحققة كانت محاولة للامتناع عن البكاء والصراخ والاستغاثة . . غير أنه بسبب عجزي عن إدراك ما هو مطلوب مني أن أفعله على وجه التحديد ، بسبب تقاعسي ـ تقاعسي؟ كان ذلك صحيحاً على نحو ما ـ عن الاستجابة لذلك النداء الملتاع ، فإنها قد قررت أنني لم أكن عند حسن ظنها ، لا أصلح . فأدارت وجهها إلى البحر .

وهل غير ذلك تفسير لمحاولاتها المستمرة أن تتجنبني ، تنظر إلي ولكن عينيها

ترمشان وترمشان دون توقف كأنما تريد أن تتخلص من مشهد كابوس فلا تستطيع .

وفي إحدى المرات كنت قادماً من الممر المؤدي إلى حجرتي ، في طريقي إلى الردهة . رأيتها تهبط السلم . استدارت لتعبر الفسحة الضيقة ، المعتمة ، التي تفصل حجرات النوم عن الردهة ، وكنت مستمراً في مسيرتي . ولكن من الواضح أنها لم تنتبه إلى وجودي لأن السجادة امتصت صوت وقع أقدامي ، فاصطدمت . كان ملمساً مرناً ، سريع الحركة ، مفعماً بعطر نافذ ، ثقيل . شهقت عندما رأت وجهي . خطوت أنا إلى الوراء واعتذرت لها . كان وجهها مذعوراً ، غاضباً ، مشتعلاً بالذهول . طالعتني بسرعة . فكررت اعتذاري :

ـ آسف يا مدام .

وخطوت خطوة أخرى إلى الوراء تأكيداً لاعتذراي . هربت عيناها مني ولم تجب .

تلفتت حولها ، وكأنها محاصرة . بدا لي أنها تفكر في صعود السلم مرة أخرى . ثم حسمت أمرها . دارت من ورائي بسرعة واتجهت إلى الردهة .

تبعتها مرهقاً .

كانت تجلس على طرابيزتها ولكنها ـ للمرة الأولى ـ تدير لي ظهرها .